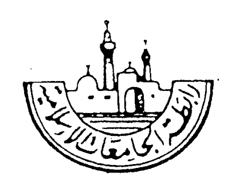


دراسات التحديات

التي تواجه الأمة الإسلامية في القرن المقبل

(٤)

الإسلام ومشكلة الحضارة بين التعددية والصراع

أ. د / يحيى هاشم حسن فرغل

أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة الإمارات

كـل مـن أهمـل ذاتيتـه
فهو أولى الناس طرا بالفنا
لن يرى فى الدهر شـخصيته
كل مـن قلـد عيش الغربـاء

محمد إقبال

من (صوت إقبال إلى الأمة العربية)
للصاوى شعلان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن
تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن
تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم
شيئاً إن الله بما يعملون محيط . ﴾

١٢٠ آل عمران

تصدير

استجاب لنا في الدعوة للدراسة والكتابة عن التحديات التـــي تواجـــه الأمة الإسلامية في القرن المقبل أحد علماء الأزهر الأجلاء وهـــو الأســـتاذ الدكتور يحيى هاشم حسن فرغل حيث قدم لنا دراسة عن الإســـلام ومشـــكلة الحضارة، بين التعددية والصراع.

والدكتور فرغل مـــن المفكريـــن المـــهمومين بمشـــكلات الإســـلام والمسلمين وقد شغل مناصب الأستاذية في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر، وكلية الدراسات الإسلامية بجامعة الإمارات التي يعمل فيها منذ عدة سنوات، ونشرت له العديد من الدراسات والبحوث في مختلف قضايا العالم الإســـلامي الحضارية والاقتصادية والاجتماعية.

ويقدم الأستاذ الدكتور يحيى هاشم في هذه الدراســـة مشـــكلة هامـــة تكشف عن حرصه الشديد على أن تتبوأ الأمة الإسلامية مكانتها فـــي عـــالم اليوم وعالم الغد على السواء، فهو يحيط بمشكلات العصر ويعتبر أن البشرية في مرحلة انتقال بعد أن تهاوت الأبنية التي كانت تعتمد عليها ويقوم الإســـلام كبديل مناسب يجب على المسلمين أن يقدموه للعالم، لأن العالم يحتاجه بقوة.

القضية – كما يقول المؤلف – وقد تهدم البناء هي قضية تقديم البنـــاء في صورته الكاملة، البناء الكامل في جوهره الحقيقي، إنها قضية الحضـــارة. وجوهر الحضارة يتلخص في أنها قامت على التصميـــم الهندســـي الإلـــهي للحضارة بناء من العلم والعمل والإيمان، ساحته التســـليم للمـــالك، طاقتـــه

المحركة العبودية للخالق، آليته سيطرة الآخرة على الدنيا وهكذا قامت الحضارة الإسلامية في أسمى صورها على يد بانيها الأكبر: محمد رسول الله.

وعلى مدى أبواب الكتاب يطالعنا الدكتور يحيى هاشم بتفصيل المفهوم الحضاري والأركان والعناصر التي يقوم عليها في الإسلام، وهي العلم والعمل والإيمان، وقد عرض في الفصل الأول من الكتاب لزاوية هامة تتصل بذاتية الحضارة الإسلامية وتميزها كما عرض لقضايا الأصالة والمعاصرة ولفكرة عالمية الحضارة وكيف أن الحضارة مشروع إسلامي. وهو يرى أن صميم المعركة بين مقومات الحضارة الإسلامية وأعدائها هي معركة الاعتصام بالذات.

والواقع أن هذه هي أهم زوايا هذه الدراسة، فهو يهتم بتحديد مفهوم الأصالة، ويعطيها مدلولا بسيطا هو أنها تعنى الاستقامة على فطرة الله، طبيعة فينا وديانة منزلة علينا.

وفي الفصل الثاني من الدراسة يصف عملية انهيار الحضارة الأوروبية، لأسباب عديدة منها عملية إبعاد الدين من الحياة، كما يعرض للمآسي التي جرتها هذه الحضارة على الإنسانية لهذا السبب وأبرزها هي الحربين العالميتين والإساءة إلى البيئة والحرية الجنسية المخالفة للشرائع وتجسيد قيم الفحش والشذوذ الجنسي... إلخ.

كما أنه درس بوضوح المآس التي جرتها الحضارة الغربية على البيئة الإنسانية.

أما الفصل الثالث فقد خصصه لدراسة الاختلافات الموضوعية بين الحضارتين الغربية والإسلامية ويرى أن هناك تناقضا بين الحضارتين الإسلامية والغربية، بحكم أن كل منهما حضارة عالمية، وبحكم أنهم يريدون القضاء على الإسلام والمسلمين، وهي الحقيقة الرئيسية التي يريد الكاتب أن يصل إليها والتي اتخذها شعارا لهذا الكتاب في التقديم بقوله تعالى :

{وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا }.

وقد نتفق أو نختلف على هذا الرأي، ولكن الذي لا خلاف عليه أن الكتاب يعطينا بوضوح – تفسيرا لمشاكلنا ولعلاقاتنا مع الحضارة الغربية وللتحدي الذي تمثله بالنسبة لحضارتنا الإسلامية.

وهو بهذا يعد إضافة جيدة إلى مكتبة رابطة الجامعات الإسلامية المتصلة بالتحديات وإلى المكتبة العربية والإسلامية بشكل عام.

الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية

أ.د / جعفر عبد السلام

المقدمة

القضية اليوم هى قضية الحضارة .

نحن على مفترق طرق كالذى حدث أيام انهيار الامبراطوريتين الرومانية والفارسية ، وانبثاق الحضارة الإسلامية على حسابهما .

وكالذى حدث أيام انهيار الدولة الإسلامية فى الغرب ، وتراجعها فى الشرق ، وانبثاق الحضارة الأوربية الحديثة على حساب طرد المسلمين من أوربا ، واستعمارهم فى آسيا وافريقيا ....

نحن على مفترق طرق :

فيه أخذت بوادر السقوط تظهر على فرائص الحضارة الأوربية الحديثة المرتعدة .

وأخذ الإنسان المعاصر يتلفت يمنة ويسرة ، يحاول أن يفهم مغزى الأحداث ويتنبأ باليد التى سوف تتناول الشعلة : شعلة الحضارة .

ونحن نخطىء اليوم ـ خطأ تاريخياً ـ عندما نعرض الإسلام عرضاً مجزءاً مفتتاً .

ربما كان هذا العرض التجزيئى صالحاً عندما كان البناء الإسلامى قائماً شامخاً قوياً لايحتاج إلى أكثر من سد ثغرة هنا أو ثغرة هناك .

أما اليوم ونحن نشهدا الركام يتساقط حولنا فإن العرض التجزيئى يصبح عبثاً أو تخريباً أو خطيئة . لأنك عندئذ إنما تأخذ قالباً من البناء المتساقط لتقول : هذا هو الإسلام ، وهو أمر يدعو إلى السخرية .

لن يفهم الناس شيئاً عندما تحدثهم عن أهل الحل والعقد . ولكنهم يستعدون للفهم عندما نقدم لهم ذلك ضمن الإطار الحضارى الكامل .

لن يفهم الناس عنا شيئاً عندما نحدثهم عن ربا التفاضل أوربا النسيئة

أو المضاربة ، ولكنهم يستعدون للفهم عندما نقدم لهم ذلك ضمن خطة بناء الحضارة فى الإسلام .

لن يفهم الناس عنا الكثير عندما نحدثهم عن حجاب المرأة وقوامة الرجل ، ولكنهم يستعدون للفهم عندما تخرج لهم هذه القضية كجزء طبيعى للحضارة الإسلامية .

لن يفهم الناس شيئاً كثيراً عندما نحدثهم عن وجوب إعفاء اللحية وستر العورة ، ولكنهم يدركون ذلك ضمن الحرص على شخصية الحضارة الإسلامية بسماتها العامة .

القضية اليوم - وقد تهدم الكثير من البناء - هى قضية تقديم البناء فى صورته الكاملة .

البناء الكامل فى جوهره الحقيقى .

إنها قضية الحضارة .

وجوهر الحضارة فى الإسلام يتلخص فى أنها قامت على التصميم الهندسى الإلهى للحضارة :

بناء من العلم والعمل والإيمان .

ساحته التسليم للمالك .

طاقته المحركة العبودية للخالق .

آليته : سيطرة الآخرة على الدنيا .

وهكذا قامت الحضارة الإسلامية فى أسمى صورها على يد بانيها الأكبر : محمد رسول الله .

قيام الحضارة على هذه الأرض كان هو الهدف من هبوط آدم عليه السلام إليها .

ولما كان الهدف من خلق الإنسان هو فى قوله تعالى : ﴿ **وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ فإن الهدف من إنزاله إلى الأرض هو فى قوله تعالى : ﴿...**إنى جاعل فىالأرض خليفة** ﴾ .

والخلافة هى جوهر مفهوم " الحضارة " .

الخلافة هى أن يخلف بعض بعضا.

والمعنى الساذج لأن يخلف" بعض بعضا " لايمكن أن يكون هوالمقصود فى قوله تعالى " **خليفة** " .

لأن جميع الحيوانات ـ بحكم التناسل ـ يخلف فيها بعض بعضا.

ولايصح أن يكون المقصود بالخلافة قاصراً على معنى الوكالة فى التصرف ، فهذه الخلافة بمعنى الوكالة أيضا ليست خاصة بالانسان إذن لابد من خطوة أخرى لفهم الخلافة هنا :

وهى أن يخلف اللاحق السابق فى البناء على ماخلّفه . فتنشأ من عملية الخلافة طبقات متوارثة من البناء يتلوها طبقات..

وذلك هو خصوصية الإنسان فيما نعرف .

وتلك هى خلافته .

وتلك هى حضارته .

ومن هنا جاء تساؤل الملائكة ، واعتراض إبليس .

جاء تساؤل الملائكة فى قولهم : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء** .. ﴾

لايمكن أن يعنى الملائكة بذلك المعنى الساذج من الفساد وسفك الدماء كالذى يحدث من أنواع الحيوان الأخرى ، وإلا لكانوا فى مستوى من الإدراك لايسمح لهم بهذا الخطاب الإلهى .

ولكنهم فى تساؤلهم لاحظوا الجانب السلبى فى عملية الخلافة وبناء الحضارة .

كانوا يعنون مستوى عاليا من الفساد ، هو الفساد الحضارى أو الجانب السلبى فى بناء الحضارة .

ولذلك فإن الله ردهم - إجمالاً - إلى الجانب الإيجابى الذى جهلوه **(قال إنى أعلم مالاتعلمون .)**

إذن فالحضارة مقصود إلهى رفيع ملحوظ اساساً فى عملية إنزال الإنسان إلى الأرض .

ومن هنا جاء قوله تعالى :

﴿ هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ، فمن كفر فعليه كفره ، ولايزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولايزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً ﴾ ٢٩ فاطر .

إذن فهى خلافة ، وهى حضارة تحت مقاييس الإيمان والكفر .

وهى خلافة ، وهى حضارة معتنى بها من الله منذ البداية .

﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

وهى خلافة ، وهى حضارة ممدود لها الحبل فى عدالة الله إلى يوم آجل **﴿ ولايزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ، ولايزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا ﴾** .

﴿ ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون . ﴾ ١٤ يونس .

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح . ﴾ ٦٩ الأعراف .

﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض** ﴾ ٧٤ الأعراف .

ومن هنا يحق لنا أن نقول إن الحضارة كانت هى الإبداع الذى من أجله خلق الله الإنسان ، ابداعاً إلهيا : كالفلك ، والشمس ، والقمر ، والأرض والنهر ، والزهرة ، .

وكالغابة .

وكبيت النمل .

وكعش النحل .

هو إبداع من إبداعات الله تعالى ، خلق الله من أجله الأرض والدنيا، والإنسان .

لايؤثر فى كونه ابداعاً لله أن كان الانسان موكولاً إليه اقامته ، أو بعبارة أدق : أن كان الإنسان باختياره عنصراً فعالاً فى اقامته .

لأن كون الانسان عنصراً فعالاً وبإرادته فى مكونات هذا الابداع هو نفسه إبداع من ابداعات الله سبحانه وتعالى ، ظهر بإرادته وقدرته وكرمه .

ومن هنا كان وجود الشيطان ـ أيضاً ـ على مشارف الحضارة ودخائلها عنصراً فعالاً فى إقامتها من حيث إنه يدعم مبدأ تكوين الإنسان المسئول ، ويؤكد دور الإنسان المختار .

الشيطان يتعرض للإنسان بالوسوسة ، فيتغلب الانسان على وسوسة الشيطان - أو ينهزم - فيستقيم أو يظهر دوره الفعال المختار المسئول .

﴿ **إن كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾ تماماً كما كان كيد أعداء يوسف ـ وهم أعداء له يسعون إلى موته وتأثيمه وسجنه الخ ـ يمضون بإرادتهم فى مشروعهم ، ولكنهم فى نفس الوقت يمضون ـ وبكيد الله ـ فى إقامة القدر النافذ الذى أراده الله : ليوسف ﴿ **وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض** . ﴾

﴿ **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** . ﴾

* * *

حضارة لا إله إلا الله :

ومن هنا كانت أهمية " **لا إله إلا الله** " باعتبارها شرطاً فى تحقيق التكليف الأكبر بإقامة " الحضارة " .

ألم يقل محمد رسول الله ﷺ { وجعلت لى الأرض مسجداً .. }

وقال الله تعالى : ﴿ **وأن المساجد لله** .. ﴾

إذن فهى الأرض لله .

وهى إذن أيضاً : الحضارة (الأرض + الإنسان + الزمن) لله .

وأن الحضارة لله .

ومن هنا كان الرفض القاطع للشرك .

فهو - أى الشرك - لايعنى اهداراً للإنسان الذى يتجه لغير الله فحسب.

ولكنه يعنى اهداراً للمشروع الأكبر " للحضارة " إذ تتجه لغير الله .

أية حضارة تتجه لغير الله فهى فوق أنها حضارة مشركة هى أيضاً حرب على المشروع الذى يضعه الله (للإنسان والأرض والزمن) أى للحضارة .

لابد من " لا إله إلا الله " لتكون الحضارة " لله " حسب المشروع الإبداعى ، فإذا لم تكن كذلك كانت انحرافاً عن الحضارة الإلهية المرادة أصلاً.

انحرافاً إلى مشروع آخر ينظر إلى وجوده - كما ننظر إلى الشيطان أو إلى عصيان ما - باعتباره تأكيداً لكينونة المشروع الأصلى ، أى ليكون المشروع - حسب التصميم الموضوع له - قائما باختيار الإنسان ومسئوليته حسب تكليف صاحب المشروع .

تصبح الحضارة " لغير الله " تأكيداً للحضارة التى هى " لله " فى نفس الوقت التى هى فيه اعتداء على تلك الحضارة .

أركان المشروع الإلهى للحضارة :

ولقد وضع مشروع الحضارة على الأرض وفقا لأركان ثلاثة من عناية الله :

العلم ، والعمل ، والإيمان .

ولهذا أعد آدم منذ البداية وجهز بهذا العلم .

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم . ﴾

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ ٣١ ـ ٣٢ البقرة .

وتعليم الأسماء هو فى بعض وجوهه تعليم عملى لأنه تعليم لا من أجل العلم بالأشياء فى حد ذاتها ، ولكن من أجل " التعامل مع الأشياء " .

وهذا العلم ـ العلم العملى ـ هو جوهر بناء الحضارة .

العلم العملى :

يقول تعالى : **﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ... ﴾**

لم يقل ليتأملوا .

وماتدبر آياته ؟ إتباع بعمل .

﴿ ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالاتفعلون .}

(اللهم إنى أعوذ بك من الأربع . من علم لاينفع وقلب لايخشع ، وعين لاتدمع ، وبطن لاتشبع .) حديث شريف .

وفى الأثر : (من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ، ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما علم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار .)

يقول عيسى بن مريم عليه السلام فيما يروى عنه فى الآثار الإسلامية: (إلى متى تصفون الطريق إلى الدالجين وأنتم مقيمون مع المتحيرين، إنما يبتغى من العلم القليل ومن العمل الكثير .)

ومن أقواله أيضا (إن الزرع لايصلح إلا بالماء والتراب ، كذلك لايصلح الإيمان إلا بالعلم والعمل ، ويلكم ياعبيد الدنيا إن لكل شيء علامة يعرف بها وتشهد له أو عليه ، وإن للدين ثلاث علامات يعرف بهن : الإيمان والعلم والعمل .) [1]

وعن سهل بن عبد الله التسترى (الناس كلهم سُكارى إلا العلماء ، والعلماء كلهم حيارى إلا من عمل بعلمه .)

وقال أبو سعيد الخراز (العلم مااستعملك ، واليقين ماحملك .)

أى على الفعل .

وعن ابن المتكدر قال (العلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه حلّ وإلا ارتحل .)

ويقول ابن عبد ربه (العلم علمان : علم حمل ، وعلم استعمل ، فما حمل منه ضر ، ومااستعمل منه نفع .)

ويعرف ابن فورك ـ من المتكلمين ـ العلم (بأنه مايصح ممن قام به إتقان الفعل .)

وعن أبى الدرداء (إنك لاتكون عالما حتى تكون متعلماً ولاتكون بالعلم عالماً حتى تكون به عاملاً .)

وينضم إلى ركنى العلم والعمل فى المشروع الإلهى للحضارة على الأرض : ركن الهداية بالايمان .

---

(١) انظر اقتضاء العلم العمل للبغدادى ص ٦٨ .

ذلك أنه إذا كان العلم حظا مبذولاً للجميع (علّم الإنسان مـالم يعلم..) فإن العلم وحده لايكفى ، وبعبارة أخرى : العلم الذى يرشح لا بتـناء العمل عليه ـ هذا العلم وحده لايكفى .

لابد من الهداية ، وهى لاتعطى كما يعطى العلم ـ للجميع ـ وإنما تعطى لمن يتعرض لها بالإيمان والتسليم. لأن التسليم شرط بديهى فى قبولها.

﴿ قل إن هدى الله هو الهدى . ﴾ ١٢٠ البقرة .

﴿ إن علينا للهدى .. ﴾ ١٢ الليل .

﴿ من يهد الله فهو المهتد . ﴾ ٩٧ الإسراء .

﴿ وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . ﴾ ٤٣ الأعراف .

﴿ وإن اهتديت فبما يوحى إلىّ ربى . ﴾ ٥٠ سبأ .

(والله لولا الله مااهتدينا ..) صحيح البخارى

ولذلك كان أنفع الدعاء وأعظمه ـ كما يقول ابن أبى العز فى شرحه للعقيدة الطحاوية ـ دعاءُ الفاتحة (أهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .)

إن العقل المتعلم ـ المستقل عن الهدى ـ يمكنه أن يصل إلى شىء من الظن ، لكنه لايصل مستقلاً إلى شىء من الهدى الذى تشعر فيه النفس بالطمأنينة والسكون واليقين .

إن الفلسفات والعلوم التجريبية التى يصل إليها العقل مستقلاً خاضعةً لما تخضع له عقولنا من النسبية والنقصان .

لذلك فإن مانصل إليه اليوم من علم يظهر لنا نقصُه غداً ، ومانزال نكتشف بتقدم البحث جهلنا ، وهزال معارفنا ، وحاجتنا إلى الهدى واليقين الذى لاتفرزه عقولنا .

فى ظل العلوم التجريبية والفلسفات الناقصة يتقدم العلم التجريبى ، ويطرد الحصول على منافع الدنيا ، لكن الإنسانية فى عملية بناء الحضارة

لابد لها من أهداف ثابتة واضحة راسخة على مدى القرون ، وإلا كان ضلالها عن أهدافها لايمكن تلافيه أو البرء منه .

والعلوم النسبية تضل دائماً عن الأهداف البعيدة الراسخة . فهذا ليس من شأنها ولايمت إلى قدرتها بسبب ، ومن هنا كان الإنسان " حيوان الحضارة " بحاجة إلى مصدر خارجي يهديه إلى هذه الأهداف ويرسم لها الطريق : (الصراط المستقيم .)

ومن هنا جاءت ملاحقة العناية الإلهية للإنسان وهو يُعَد للقيام بمهمته " بناء الحضارة " بعد أن " علمّه " جاءت هذه الملاحقة فى قوله تعالى ﴿ **فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا يضل ولايشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة** ﴾ .

ولايتلقى الإنسان هذا الهدى إلا من نافذة الإيمان . ولكى يقوم الإيمان فالطريق فى " التسليم " .

ويتضح ذلك - فى الذاتية الإسلامية - من حقيقة كبرى مؤداها أن الاتجاهات الفكرية البشرية مهما اختلفت ومهما وضعت من شروط - على اختلافها - للتوصل إلى المعرفة فإنها تتنازل عن شروطها هذه فى الأسس التى تقوم عليها ، وتؤمن بهذه الأسس إيمانا تسليمياً نزولا على حكم الضرورة العملية .

فعلت ذلك الفلسفة العقلية اليقينية ، والفلسفة اللاأدرية ، والفلسفة التجريبية [1] ، أقرت بذلك علنا ، أو أقرت به خفاء .

ومن هنا كان خطاب الوحى إلى البشرية .

---

(١) انظر كتابنا " الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية " نشر دار الفكر العربى ١٩٧٦ وانظر كتابنا " " فلسفة التسليم " ، وكتابنا " مداخل إلى العقيدة الإسلامية " لطلاب كلية أصول الدين .

وكان مدخل هذا الخطاب عن طريق " الانذار باليوم الآخر " فى جميع رسالات الأنبياء كما تحدث عن ذلك القرآن الكريم ، وفى رسالة محمد ﷺ كما جاء فى القرآن الكريم أيضاً ، وفى السيرة النبوية فى وضوح شديد .

﴿ **يأيها المدثر قم فأنذر .** ﴾

﴿ **يامعشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً** ﴾ .

والانذار يصنع موقفا يتلخص فى كلمتين :

خبر عن مجهول ، يقابل بالتصديق أو يقابل بالتكذيب . وهو منطق عملى يركز فيه المنذر على أمر نمارسه فى حياتنا العملية ـ جميعا مهما اختلفت فلسفاتنا ـ : الأخذ بالأحوط فيما يتضمن الخبر عنه تحذيرا من خطر محتمل ﴿ **إن عليك إلا البلاغ** ﴾ ٤٨ الشورى .

وهنا تبدأ الخطوة الأولى فى الإيمان ، وهى خطوة تحقق اليقين فى النجاة .

ولأنها خطوة مبنية على التسليم لله ـ فى موازاة الذين يسلمون لغيره ـ فإنها تجر وراءها عناية الله بزيادة الهدى ، وعنايته بزيادة الإيمان ، وعنايته باليقين التام ﴿ **هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع إيمانهم .** ﴾

وهكذا صنع إيمان أبى بكر وعمر وعلى وعثمان والصحابة والتابعون ـ وفقا لشروط عملية طبقت فيما يتعلق بأركان الانذار الأربعة : فى مصدره ، وموضوعه ، وحامله ، ومتلقيه .

﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا .** ﴾

هكذا وفقا للذاتية الإسلامية .

الأخروية :

إذن فالحضارة - وفقا للمفهوم الإسلامى مراد الهى يصنع - باختيار وابتلاء - وفق الإرادة الإلهية .

وقيام حضارة أخرى تتصف بالانسانية دون الإلهية هو ابتلاء وفرز يؤذن بتدافع حضارى محتوم .

ومن هنا فإننا نؤكد أنه لا أمل فى قيام نظام إسلامى دنيوى بحت ، حتى فى الأمور الدنيوية ، حتى فى الأمور المتصلة بماديات هذه الدنيا .

التصور الإسلامى لابد أن يجعلها مغموسة بالنظرة الأخروية . هذه هى طبيعة هذا النظام .

وهذا هو اختيار الله لنا فى هذا النظام .

فمن أراد نظاماً إسلامياً للحضارة فليدرك البعد الأخروى فى كل فقرة من فقراته ، وكل حلقة من سلسلاته ...

والذين يتصورون قيام حضارة إسلامية دنيوية بحتة يجربون خدعة بلقاء .

وسوف ينتهى بهم الطريق إلى سد .

لأنهم من البداية حاولوا أن يطلبوا من النظام الإسلامى للحضارة ألا يكون إسلامياً .

البعد الأخروى لابد منه عند اختيارنا للإسلام .

وتلك هى الحضارة الإسلامية فى ذاتيتها التى تحققت .

وهى هى الحضارة الإسلامية فى ذاتيتها إن أردنا لها أن تحقق مرة أخرى .

وهكذا وفقا للذاتية الإسلامية قامت الحضارة الإسلامية على أركانها الثلاثة المترابطة : العلم والعمل والإيمان .

حضارة فذة فى تاريخ البشرية ، مرت بأطوارها فى البناء والاستقرار قرونا طويلة .

تفكك أركان المشروع:

ولم يبدأ التداعي إلا بدخول التفكك في هذه الثلاثة التي قام عليها المشروع.

التفكك في ثلاثية العلم والعمل والإيمان.

وأول ما دخل التفكك وبعنف فإنه جاء في مفصل الربط بين العلم والعمل.

ولقد جاء هذا المرض الحضاري من الفلسفة اليونانية التي انفتح لها المسلمون من نافذة العلم "والشغف بالمعرفة".

واستشرى هذا المرض عن طريق "المتكلمين" الذين خاضوا بحسن نية في مباحث نظرية لا صلة لها بالعمل، كالعلاقة بين الذات والصفات، وخلق الأفعال، وخلق القرآن، والجوهر والعرض ... الخ.

ومن هنا بدأ التداعي.

ومن عجب أن الحضارة الغربية المعاصرة لم تصل إلي ما وصلت إليه إلا بالتمرد على هذا التراث اليوناني والأخذ بالمنهج التجريبي كصورة من صور الربط بين العلم والعمل: درسا تلقته عن الحضارة الإسلامية([1]).

([1]) نختار هنا-من بين شهادات كثيرة شهادة برتراندرسل- حيث يذكر أن هناك اتجاها فكريا في أوروبا نابعا من انتصارات العلم (يعتبر سلطان القدماء اليونان كابوسا جاثما، ويذهب إلى أن من الأفضل اليوم أن ننسي معظم ما أضافوه إلى عالم الفكر) انظر تاريخ الفلسفة الغربية ج١، ص٧٣.

وهو يري أن اليونان (استكشفوا الرياضة، وفن التدليل القياسي وابتكروا الهندسة إلا أن ضيق نظر اليونان وانحصاره في جانب واحد يظهر في الرياضة، فتفكير اليونان كان يتجه بهم في التدليل على نحو قياسي، يبدأ مما يظهر لهم أنه بديهي، و لم يكن تفكيرهم يسير سيرا استقرائيا بادئا مما شاهدته الحواس).

ثم يقول في عبارة صريحة إنه (على الرغم من أن فئة قليلة منهم هم الذين أشرقت عليهم أشعة المنهج العلمي لأول مرة إلا أنهم بصفة إجمالية لم يكونوا يستسيغون المنهج العلمي بطبيعة عقولهم) المصدر السابق ج١، ص٧٤.

وفي عبارة أكثر صراحة يقول عن تطور نظرة الفلاسفة اليونان إلى القول برجوع المادة إلى العناصر الأربعة: التراب، والنار، والماء، والهواء، يقول: (هاهنا عند هذا الحد وقفت كيمياء القدماء وقفة الأموات، و لم يخط هذا العلم إلى الأمام حتى أخذ الكيميائيون المسلمون في بحثهم عن حجر الفيلسوف وإكسير الحياة..)، انظر المصدر السابق ص٨٠،٨١.

ولكن هذا العجب يلحقه الأسى إذ أن هذه الحضارة الغربية لم تكمل الدائـــرة الثلاثية فاستبعدت عنصر الإيمان، وقامت على العلمانية.

ومن هنا تتضح الفروق الذاتية بين المشروع الذي قامت- وتقـــوم - عليـــه الحضارة الإسلامية وبين مشروع قامت عليه الحضارة الغربية المعاصرة.

يتضح الفرق أساسا في أن هذه الحضارة الغربية قامت في جوهرهـــا نقضـــا من ناحية وتأكيدا من ناحية أخرى للمشروع الأصلي للحضارة "أن الحضارة لله".

ثم تتضح الفروق بعد ذلك: في أن فصلت بين العلـــم والعمـــل مـــن جـــانب والإيمان من جانب آخر.

والمسلمون اليوم مدعوون إلى مشروعهم الأصلي الذي "جعلوا" له، لا إلـــى مشروع آخر هو ذاته نقض لذات المشروع الأصلي: نقض للذاتية الإسلامية.

عالمية الحضارة الإسلامية

إذا كانت أركان الحضارة الإسلامية تتكون كما قدمنا سابقاً من الربط بين العلم والعمل والإيمان ، وتتحرك في ساحة التسليم لله ، بطاقة محركة تنبثق من العبودية لله ، وآلية تستمد من سيطرة الآخرة على الدنيا ؛ فإنه يجب أن نعلم أيضاً أن انفتاحها لايقف دون العالمية .

وهى عالمية تقرر وفقا لصريح القرآن وصحيح السنة :

يقول تعالى ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾ الفرقان .

ويقول تعالى ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لايعلمون .** ﴾ ٢٨ سبأ .

ويقول تعالى ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين .** ﴾ ١٠٧ الأنبياء .

ويقول تعالى ﴿ **قل يأأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون .** ﴾ ٥٨ الأعراف .

ويقول تعالى ﴿ **يأأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ...** ﴾

ويقول تعالى ﴿ **يأأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم .** ﴾ ١٣ الحجرات .

ويقول تعالى ﴿ **يأأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم ، وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون .** ﴾ ٥١_٥٢ المؤمنون .

وفى الحديث الشريف يقول الرسول :

(أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود .) صحيح مسلم .

وعالمية الإسلام هى التى اخترقت حواجز القومية :

فى حجة الوداع يقول (أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، وكلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربى فضل على عجمى ، ولا

لعجمى على عربـى ، ولا لأحمـر علـى أبيـض ، ولا لأبيـض علـى أحمـر إلا بالتقوى) .

ولما بلغ النبى ﷺ استهانة أحد المنافقين بسلمان الفارسـى ، وصهيـب الرومى ، وبلال الحبشى ، قام مغضبا وخطـــب الناس فى المسجـد فقـال : (يأيها الناس إن الرب واحد والأب واحد ، وإن الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هى اللسان ، فمن تكلم بالعربيـة فهـو عربـى .) ابن عساكر .

وعالمية الإسلام هى التى اخترقت حواجز اللون :

وانظر قصة أبى ذر الغفارى مع بلال رضى اللـه عنهمـا ، إذ تجـادل معه واشتد به الغضب ، فقال له أبو ذر (ياابن السوداء ..) فلما سمع رسـول الله ﷺ بذلك أنكره أشد الإنكار ودعا أبا ذر إليه وسأله :

أعيّرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية ، طف الصاع ، طـف الصـاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صـالح) فنـدم أبـو ذر وألصـق خـده بـالأرض وقـال لبـلال : (قـم فطـأ علـى خـدى) رواه البخارى .

وكان عبادة بن الصامت رضى الله عنه من الصحابـة الأجـلاء أسـود اللون ، وكان رئيس الوفد الذى أرسله عمرو بن العاص لمفاوضة المقوقـس ، فضاق به المقوقس لسواده ، وطلب من الوفد أن يتكلـم غـيره ، فـاعتذر الوفـد عن ذلك ، وأصروا على أن يكون عبادة هو المتكلم ، قائلين للمقوقس :

(هذا أفضلنا رأياً وعلماً ، وهو سيدنا وخيرنا ، وقد أمره الأمير علينا فلا نخالف أمره .)

وعالمية الإسلام هى التى اخترقت طبقات الغنى والفقر :

مر رجل من وجهاء الناس أمام مجلس لرسول الله { فسأل أصحابـه قائلاً :

ماترون فى هذا ؟ قالوا : رجل من أشراف الناس ، وهو حرى إن خطب أن يزوّج ، وإن شفع أن يشفّع ، وإن قال أن يسمع لقوله .

فسكت رسول الله ﷺ .

ثم مر رجل آخر ، فسألهم : ماترون فى هذا ؟

قالوا : رجل من فقراء المسلمين وهو حرى إن خطب ألا يُزوّج ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يسمع قوله .

فقال رسول ﷺ (هذا خير من ملء الأرض من هذا) .

وعالمية الإسلام هى التى اخترقت طبقية الحكام والرعاة .

وتعرفون قصة جبلة بن الأيهم من ملوك آل جفنة مع عمر رضى الله عنه .

أسلم على زمن عمر رضى الله عنه ، ولما قدم على عمر أحسن استقباله وخرجا إلى الحج .

فبينما كان جبلة يطوف بالبيت إذ وطئ ازاره رجل من بنى فزارة فانحل ، فرفع جبلة يده فهشم أنف الفزارى .

فلما علم رضى الله عنه بذلك خيّره بين أن يرضىَ الرجلَ أو يقتص الرجل منه ، فسخط جبلة وماكان منه إلا أن فر مع قومه إلى القسطنطينية ، ووجد فى النصرانية موئلا له ، على مابه من كبر وعصبية وتعال على بقية خلق الله .

وعالمية الإسلام هى التى اخترقت سدود الجنسيات والأعراق :

وتعرفون قصة محمد بن عمرو بن العاص مع المصرى عندما ضربه لسبقه إياه ، قائلاً : أنا ابن الأكرمين . فشكا المصرى محمدا إلى الخليفة عمر رضى الله عنه ، فأرسل إلى عمرو بن العاص وابنه أن يحضرا إذا جاءهما كتابُه ، فلما حضرا أمر عمرُ المصرىّ أن يضرب محمدا بالدرة ، فضربه كثيراً ، وعمر يقول : إضرب ابن الأكرمين ، ثم قال : أجلها على صلعة عمرو ، فوالله ماضربك ـ أى ابنه ـ إلا بسلطانه .

قال الرجل المصرى : ياأمير المؤمنين ، قد ضربت من ضربنى .
فقال عمر : أما والله لو ضربته ماحلنا بينك وبينه ، ثم قال لعمرو : أيا عمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أحراراً .

وعالمية الإسلام هى التى اخترقت الحواجز بين المسلمين وأهل الذمة :

يقول رسول الله ﷺ (لهم مالنا وعليهم ماعلينا .)

ويقول (من آذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة ، ومن خاصمته خصمته .)

وأوصى عمر رضى الله عنه (أن يُوفّى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من وراءهم ، ولايكلفهم فوق طاقتهم .)

وعالمية الإسلام هى التى أزالت الفروق بين الأنبياء جميعا:

يقول رسول الله ﷺ (أنا أولى الناس بعيسى بن مريم فى الدنيا والآخرة) .

والأنبياء إخوة لعلاَّت ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد .) رواه البخارى
ويقول (إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وجمّله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويَعْجَبُون له ويقولون : هلاّ وُضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين .) متفق عليه .

ويقول تعالى ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل .** ﴾ ٥٧ الأعراف .

وعالمية الإسلام هى التى اخترقت حواجز الأرض والحدود فجعلت الأرض مسرحا متصلا :

يقول تعالى : ﴿ **قل ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة ، وإياى فاعبدون .** ﴾

ويقول تعالى : ﴿ **ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيراً وسعة .** ﴾

وروى النسائى بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال :

(مات رجل بالمدينة ممن ولدوا بها ، فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم قال :

ياليته مات بغير مولده .

قالوا : ولم ذاك يارسول الله ؟

قال : إن الرجل إذا مات بغير مولده قيس بين مولده إلى منقطع أثره فى الجنة .)

وعالمية الإسلام تطابقت مع خاتميته :

لأنها ـ أى هذه الخاتمية ـ تعنى أنه لم تعد للبشرية جميعاً حاجة لنبى بعد محمد ﷺ ، ولايتطابق ذلك إلا مع العالمية .

يقول الرسول ﷺ (فضلت على الأنبياء بست ...) وذكر منها (وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون .)

ويقول ﷺ (أنا العاقب فلا نبى بعدى .) صحيح مسلم .

ويقول (ولى خمسة أسماء :

أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب .) صحيح مسلم .

ويقول : (إنى عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمجندل فى طينه ، وسأخبركم عن ذلك : أنا دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى .) رواه أحمد .

ومن أمارات عالمية الإسلام أن أجناساً غير العرب وجده ـ أى الإسلام ـ يكون لها كما يكون لغيرها :

ومن هنا دخله الفرس فأحسوا أن الإسلام هو لهم أيضاً ، ودخله الأتراك فأحسوا أن الإسلام هو لهم كما قد كان للعرب والفرس من قبل .

ودخله أهل الأندلس فى الغرب فكان الإسلام لهم كما هو للمسلمين فى المشرق .

ودخله الأفارقة فأحسوا أنه هو لهم كذلك .

ويدخله الأوربيون فى العصر الحديث فيحسون أنهم هم دعاة الإسلام.

ومن هنا فإن المتشائمين فى مستقبل الإسلام - بالنظر إلى تدهور حال العرب أو الفرس أو الأتراك - يجهلون أعماق كون الإسلام عالمياً ، يجهلون أن الإسلام ليس لهؤلاء وحدهم ، وإنما هو للبشرية عموماً .

وأن دولة العرب لم تكن إلا دورة واحدة من دورات الحضارة الإسلامية .

وأن دولة الفرس – فى ظل الإسلام – لم تكن إلا دورة واحدة من دورات الحضارة الإسلامية .

وأن الدولة العثمانية لم تكن إلا دورة من دورات هذه الحضارة كذلك.

وإذا كان بعض فلاسفة الحضارة - شبنجلر مثلاً - يرون – بحق – أن التاريخ ماهو إلا مسرح لعدد كبير من الحضارات العظمى ، وأن لكل منها فكرتها وعواطفها وحياتها وإرادتها وشعورها وموتها الخاص بها ... فإنهم لايدركون الحقيقة بالنسبة للإسلام ، إذ ينظرون إليه باعتباره حضارة أدت دورها وانتهت .

ذلك لأن عالمية الإسلام تجعله باقياً فى انسياحه وتنقله وقابليته لجميع الشعوب .

فالإسلام يصنع دورات من حضارة : يقوم فيها العرب بدور ثم يقوم فيها الفرس بدور ، ثم يقوم فيها الترك بدور ، ثم يقوم فيها الأفارقة ، والأوربيون بدور .

لأن الإسلام ليس لجنسية من هؤلاء ، إنما هو للعالم .

لأنه هو النظام العالمى .

ولكى يكون نظام ما انسانياً عالمياً فإنه لابد له من شروط موضوعية :

١ - أن يكون قائماً على إيثار الإنسان وتفضيله على غيره من المخلوقات.

٢ - أن يكون قائماً على الرحمة بالإنسان والعطف عليه وتكريمه والحب له .

٣ - أن يكون محققاً للتوازن الضرورى المطلوب بين حرية الإنسان وعبوديته .

٤ - أن يكون قائماً على العلم : العلم بالإنسان وتكوينه وظروفه وغاياته القريبة وغايته العليا .

٥ - أن يكون قائماً على العدل .

وإنه لمن المؤكد أن ليس ثمة نظام يجمع بين هذه الصفات ليكون نظاماً إنسانياً عالمياً غير الإسلام :

أولاً : فهو من الناحية الأولى : (إيثار الإنسان .... إلخ) نجد ذلك فى الإسلام من بداية وجود آدم عليه السلام .

فمن بداية الأمر ، وعند خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام ، أمر الله الملائكة بالسجود للإنسان .

ومن بداية الأمر أيضاً طرد إبليس من رحمة الله لعصيانه هذا الأمر.

ومن بداية الأمر أيضاً آثره الله على الملائكة إذ علمه مالم يكونوا يعلمون .

والقرآن الكريم يصرح بأن الله سبحانه وتعالى خلق للإنسان البيئة الكونية المحيطة به ، وسخرها له وجعلها فى خدمته .

وحيث يصرح القرآن بذلك لاتجد به إشارة واحدة تدل على أن الإنسان مخلوق لخدمة أحد غيره ، أو لنفع مخلوق آخر .

ولقد جاء الإسلام إلى بنى آدم ـ منذ البداية ـ ليجعل الإنسان على شرف الصلة المباشرة بالله ، وليمحو الوسائط من طريقه إلى الله : **﴿ وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ﴾**

ثانياً : أما كونه قائماً على الرحمة بالإنسان ، والعطف عليه والحب له فإن الإسلام يقدم لنا علاقة الإنسان بالله باعتبارها قائمة على الحب له والعطف عليه والرحمة به بشرط أن يتوجه اليه :

يقول تعالى : ﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين .** ﴾

ويقول : ﴿ **إن الله يحب المحسنين .** ﴾

ويقول : ﴿ **إن الله يحب المتقين .** ﴾

ويقول : ﴿ **إن الله يحب المتوكلين .** ﴾

(فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) .

وفى الحديث القدسى (وجبت محبتى للمتحابين فىّ ، والمتجالسين فىّ والمتزاورين فىّ ، والمتباذلين فىّ) مصابيح الامام البغوى / حسن .

ومن حديث عمر بن الخطاب مما رواه الشيخان ، أنه قدم على النبى ﷺ سبىٌ ، فإذا امرأة من السبى قد تحلب ثديها تسقى ، إذ وجدت صبياً فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال لنا النبى ﷺ :

أترون هذه طارحة ولدها فى النار ، قلنا : لا وهى تقدر على ألا تطرحه .

فقال : لله أرحم بعباده من هذه بولدها .)

ومن حديث أبى هريرة مما اتفق عليه الشيخان أن رسول الله قال:

قال رجل لم يعمل خيراً قط .. فإذا مات فحرقوه وأذروا نصفه فى البر ونصفه فى البحر ، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذاباً لايعذبه أحداً من العالمين .

فأمر الله البحر فجمع مافيه ، وأمر البر فجمع مافيه ، ثم قال : لم فعلت ؟

قال : من خشيتك وأنت أعلم .

فغفر له .)

وروى الشيخان أيضاً (لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة ومعه راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش أو ماشاء الله . قال : أرجع إلى مكانى ، فرجع فنام نومة .

ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده .)

ثالثاً : أما عن كونه محققا لحرية الإنسان التامة ، وعبوديته التامة كذلك فذلك هو التوحيد فى الإسلام :

(لا إله إلا الله .)

(إياك نعبد ...)

وهو التوحيد فى مصدر التشريع :

إن من يشرّع لك يستعبدك .

فأولئكم - فى غير الإسلام - اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله .)

أما فى الإسلام (إن الحكم إلا لله .)

يقول الدكتور هرمان راندال فى عبودية التشريع - فى حديثه عن بنتام - : (كان من المتفق عليه فى القرن الثامن عشر أن الله هو المشرّع ..، ولقد سعى الناس لأن يجدوا قوانين الله فى تلك الطبيعة.

وهكذا فما صنعه الله للطبيعة والانسان معاً يصنعه المشرّع للمجتمع.)

فلا مبالغة فى قولنا : إن من يشرّع لك يستعبدك ، سواء كان ذلك متمثلاً فى شخص المستشار القانونى المتواضع ، أو كان متمثلاً فى تشريعات الكونجرس ، أو البنك الدولى ، أو مجلس الأمن ، أو المجمع المسكونى .

ومن ثم يصبح النظام الإسلامى هو الوحيد الذى يحقق للإنسان حريته كشرط من شروط العالمية الانسانية .

رابعاً : أما كونه قائماً على العدل :

فالعدل الإلهى هو وحده العدل الحقيقى ، لأن البشر جميعاً نسبتهم إليه واحدة ، فهو خالقهم جميعاً ورازقهم جميعاً ، ومعلمهم جميعاً ، وهاديهم جميعاً.

فلا يتحيز كما يتحيز البشر لطبيعة .

ولايتحيز كما يتحيز البشرلجنس .

ولايتحيز كما يتحيز البشر لإقليم .

ولايتحيز كما يتحيز البشر لمصلحة .

وأخيراً فإنه لايتحيز كما يتحيز الكهنة ضد البشرية كلها لتأتى خلاصها - أى هذه البشرية - على يدهم وحدهم .

ومن ثم يقرر الإسلام أنه (**لاتزر وازرة وزر أخرى .**) فلا يرث البشر خطيئة آدم لتظل لعنة الخطيئة مسلطة على رقابهم إلى يوم الكنيسة (!).

يقول تعالى : ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقا وعدلاً .** ﴾ ١١٥ الأنعام .

ويقول تعالى : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ ٤٧ الأنبياء.

ويقول تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان .** ﴾ ٩٠ النحل .

ويقول تعالى : ﴿ **وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل .** ﴾ ٥٨ النساء .

ويقول تعالى : ﴿ **ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾ ٨ المائدة .

ويقول تعالى : ﴿ **وماربك بظلام للعبيد .** ﴾ ٢٩ ق .

ويقول تعالى : ﴿ **وماظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم** ﴾ ١٠١ هود .

ويقول تعالى : ﴿ **ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا .** ﴾ ١٣ يونس .

وفى الحديث القدسى :

(اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة .) صحيح / مصابيح البغوى .

(مامن أمير عشيرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا حتى يَفُك عنه العدلُ ، أو يوبقه الجور) مصابيح البغوى .

خامساً : أما كونه قائماً على العلم :

فذلك لأنه صادر من الله سبحانه وتعالى الخالق للإنسان .

يقول تعالى : ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .** ﴾

صادر ممن يعلم علماً تاماً محيطاً : حقيقة الإنسان وتكوينه وإمكاناته وغاياته وتطوراته على مدى التاريخ الإنسانى كله ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.

وهو عالم أيضاً علماً تاماً محيطاً بالظروف المحيطة بالإنسان : فى المجتمع ، وفى الأرض ، وفى الكون . والإنسان بالضرورة يتأثر بذلك كله ؛ إنه يتأثر حتى بالأشعة الكونية التى تأتيه من وراء المجرة التى تسكنها الأرض .

إنه ليس هناك نظام يصح أن يوصف بأنه للإنسانية كلها إلا أن يكون صادراً ممن يحيط بهذه العلوم جميعاً ، وليس ذلك إلا لله ، خالق الإنسان ، وخالق الأرض وخالق الكون ، والمدبر لها جميعاً ، لغاية يقررها لها جميعاً .

إن الله هو الصانع الحقيقى ، ولانظام يصح للمصنوع إلا أن يكون مأخوذا من تعاليم الصانع .

إن الصانع هو الذى يعلم أسرار صنعته ، والاعراض عن الصانع فيه تدمير للمصنوع ، وانحراف به عن الغرض الذى صنع من أجله .

وإذن فلا نظام عالمياً للإنسان إلا أن يكون مأخوذاً من الله سبحانه وتعالى : أى إلا أن يكون هو الإسلام .

المرجعية فى النظام العالمى :

إنك إذا دعوت إلى نظام عالمى فإنك لابد أن تحتكم إلى فلسفة أو نظرية أو عقيدة توضح الحقوق والواجبات والغايات التى يقوم عليها هذا النظام .

ولذا فإن لكل فلسفة أو نظرية نظامها الخاص بها ، وإذا كانت النظرية أو الفلسفة تنتمى إلى فرد معين ، أو أمة معينة ، أو طبقة معينة أو عصر معين ، - ولابد لها من ذلك - فإن النظام الذى تدعو إليه هو نظام هذا الفرد ، أو هذه الأمة أو تلك الطبقة فى ذلك العصر ، وهذا فى حد ذاته كاف فى إبطال كونه نظاماً عالمياً إنسانياً .

وهذه العيوب الجوهرية يبرأ منها النظام الإسلامى براءة مطلقة .

لأن هذا النظام لاينتمى لفرد ولا لطبقة ولا لأمة ، وإنما هو ينتمى إلى الله الخالق للإنسان ، الرحيم بالإنسان العليم بالإنسان .

وإذن فهو لايحمل فى ثناياه عوامل نقضه وانهياره ، كما هو الشأن فى النظام العالمى المصنوع بإرادة مجلس الأمن ، أو مجموعة الدول ، أو مجموعة البنوك ، أو مجموعة المؤتمرات .

وقد يظن البعض أن عوامل التحيز والعنصرية الموجودة فى الغرب اليوم مجرد تراث يضمحل شيئاً فشيئاً ، وهو فى طريقه إلى الزوال .

والحق غير ذلك .

إنها خطة رسمية دولية ، تختفى وراء أقنعة أحياناً ولكنها تتكشف أحياناً أخرى لتظهر فى صورتها الصحيحة .

وعلى سبيل المثال نشرت مجلة الإيكونوميست البريطانية بتاريخ ١٩٩٢/٢/٧ نص مذكرة سرية للبنك الدولى تقترح أن يتولى البنك تشجيع تصدير الصناعات القذرة من الدول الصناعية المتقدمة إلى بلدان العالم النامى. وقالت المجلة إن لورنس سمرز كبير الخبراء الاقتصاديين فى البنك الدولى هو الذى أعد المذكرة وأنها أحدثت ضجة .

وقالت الإيكونوميست : إن سمرز ذكر فى مذكرتـه السرية مانصـه : (بينى وبينكم : أليس من الواجب على البنك الدولى أن يشجع على المزيد من هجرة الصناعات القذرة إلى الدول الأكثر فقراً ؟!

وأضافت المجلة إن سمرز قال فى مذكرته : إن أغلب مناطق أفريقيا على سبيل المثال أقل تلوثاً من لوس أنجلوس .) [1]

وعلى صعيد آخر يذكر لنا ملحق جريدة الاتحاد بـأبى ظبـى الصـادر فى ١٩٩٢/٢/٢٠ عن اليابانيين ، إنهم (لايشيرون إلى أنفسهم أبداً على أنهـم آسيويون ، لأن باقى أهل آسيا بالنسبة لهم هـم أجنـاس أقل مرتبـة ، والسـماح لهم بالاسـتقرار فـى اليابـان والهجـرة إليهـا لـن يـؤدى إلا إلـى تشـويه " النقـاء العنصرى للجنس اليابانى " بدليل تلك المذكرة الداخلية التى تقول المراسـلة إن جهاز الشرطة الوطنى فى طوكيو أصدرها مؤخراً لينبه فيها ضباط الأمن إلى أن بعض هؤلاء الآسيويين له " رائحة نفاذة متميزة " ولايـتردد فـى الكـذب ، وتطلب المذكرة منهم أن يغسلوا أياديهم بعد احتجاز هؤلاء المشبوهين .)

أهمية النظام العالمى :

إن الدعوة الذائعة اليوم إلى النظام العالمى تشير بحق إلى تيقظ الشوق الفطرى الإنسانى إلى العالمية .

الإنسانية ضاقت بظلام الدروب ، والتـواءات الطـرق ، وتطلعـت إلـى الطريق الشامل المستقيم .

هذا هو الجزء المضىء فى الدعوة إلى النظام العالمى ، أما الاستجابة لهذا الشوق فكيف تكون ؟ هذا هو السؤال .

هذا هو الجزء الذى تجيب عليه القوى الاستعمارية إجابة خاطئة .

لقد تيقظ الشوق ولابد من إرضائـه ، ولكـن إرضـاء هـذا الشـوق إلـى العالمية لن يكون إلا تحت نظام تتحقق له شروط العالمية التى ذكرناها .

---

(١) جريدة الأهرام ١٩٩٢/٢/٨ .

الأصالة والمعاصرة

إن اهدار شخصية الإسلام ، وذاتيته ، وخصوصيته هو أعتى حركات تزييف الحقائق الإسلامية القائمة على قدم وساق فى عالم اليوم .

وهو أخطر الحركات المضادة للإسلام على الإطلاق .

وهو أخطر من كل مايجرى على السطح من معارك سياسية أو اقتصادية أو عسكرية .

وهى حركات - أو معارك - تستعمل فيها كل أساليب المناورة والخداع والكر والفر والمكاشفة والمسايرة ، وتكشير الأنياب ، أو لبس أقنعة الأحباب ... إلخ حسب الظروف والأحوال .

ومن أهم ميادين الكر والفر فى المواجهة الإسلامية المعاصرة موضوع : الأصالة والمعاصرة .

وسوف نتجه مباشرة إلى الكلام عن الأصالة والتراث والمعاصرة .

الأصالة : تعنى الرجوع إلى الأصل .

والأصل يعنى الانسان .

أو انسانية الانسان .

بفطرته التى فطره الله عليهاةشطرها الضرورى " الطبيعى " .

كفطرة ربانية تقوم على جوانب متكاملة : جسدية وعقلية ، ووجدانية واجتماعية ، وكونية .

وشطرها الارادى التكليفى القائم على التسليم الاختيارى للخالق ، مقابل تسليم بقية المخلوقات تسليماً طبيعياً لخالقها سبحانه وتعالى .

﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى .﴾

والتسليم الاختيارى الارادى لله تعالى يعنى الدخول فى دينه وهو

الإسلام .

﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾

والدخول فى دين الله يعنى الاستقامة على نهج الله وصراطه ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله .** ﴾

والاستقامة على نهج الله تعنى التسليم لإرادته والخضوع لمقاصده سبحانه والعمل وفقاً لشريعته .

المقصود بالأصالة على هذا النحو إذن هو :

(إنسانية الإنسان = فطرته الطبيعية + فطرته الإرادية التسليمية التكليفية .)

إن الأصالة فى حياة الإنسان تعنى المستقر الثابت الممتد فى الماضى والحاضر والمستقبل .

والمستقر الثابت هنا إما أن يكون مستقراً ثابتاً بالضرورة ، وهذا هو الجزء الذى وضعه الله فينا عقلاً وجسداً وروحاً واتصالاً بالمجتمع واتصالاً بالكون .

فنسلم له ضرورة .

ثم هو الجزء الذى أراده الله منا فنسلم له اختياراً : ديناً وتشريعاً ، وخلافة فى الأرض .

التراث :

ومن هنا يمكننا أن نتصفح التراث لنميز فيه بين مايتفق مع الأصالة ومايتعارض معها .

هنا يمكننا أن نقول :

ليس كل مافى التراث أصالة .

إذ ليس من المعقول ـ بداهة ـ أن يكون كل مايلتقطه الإنسان فى

طريقه طوال الأحقاب والقرون إضافة للإنسان كإنسان : فطرة طبيعية وفطرة إرادية .

هناك الكثير جداً من التراث الذى لاينتسب إلى الأصالة بدرجة أو بدرجات .

إن التراث ليس إلا الحصيلة التاريخية لحركة الإنسان : مابين الأصالة والمعاصرة فى وقت من الأوقات .

وإذا أردنا مزيد توضيح لهذه النقطة فى مجال تراث الفكر الإسلامى فإننا نلقى نظرة سريعة على مسار هذا الفكر فى عصوره الأولى مابين الأصالة وماكان يسمى المعاصرة آنذاك .

فسوف نجد الخط البيانى الذى يبدأ بمجموعة الإيمان بالنص إلى أن ينتهى فى أقصى اليسار بمجموعة الإيمان بالفلسفة .

حيث نجد فى أقصى اليمين : القرآن والسنة ، لنرتب بعدهما موقع الصحابة والتابعين ، ثم أئمة الحديث ثم أئمة الفقه ، ليدخل المسار بعد ذلك مع علماء الكلام : أشاعرة ومعتزلة ، ثم مايسمى الفلاسفة المسلمون ، ثم زعماء الفلسفة اليونانية .

هذا كله موجود فى التراث الإسلامى .

فليس بوسعنا إذن القول بأن كل مافى التراث أصالة .

فليست نظرية وحدة الوجود أصالة .

وليست فلسفة إخوان الصفا أصالة .

وليست نظرية العقول العشرة أصالة .

وليس إدعاء الحلول الإلهى أصالة .

وليست شيوعية القرامطة أصالة .

وليست إباحية الحشاشين أصالة .

وإنما هو ماض ، يدرس لتعرف خباياه ومداخله ومخارجه لأهداف

مختلفة .

وكما أنه ليس كل مافى التراث أصالة ...

فكذلك ليس كل مافى الأصالة تراثاً .

فليس القرآن تراثاً .

وليس الوحى عموماً (قرآناً وسنة) تراثاً .

وإنما هو الأصل .

أصل حاضر ، حى .

وينبغى أن نتعامل معه على هذا الأساس .

فأين يأتى دور التراث إذن ؟

هنا نقول : دور التراث ... ، أو بعبارة أصح : دورنا نحن مع التراث..:

هو أن نأخذ منه وندع .

ومقياسنا فى هذا الأخذ والترك هو :

نأخذ منه كلما كان هذا الأخذ أقرب إلى الأصالة .

وأقدر على المعاصرة .

ونترك : كلما كان الأخذ أبعد عن الأصالة وأعجز عن المعاصرة .

المعاصرة :

وإذا عرفنا الأصالة والتراث على هذا النحو عرفنا معنى المعاصرة .

وعرفنا ماينبغى من المعاصرة التى تحافظ على الأصالة وتتمشى معها .

معنى المعاصرة إذن :

أن نعيش بأصالتنا مع عصرنا .

نعيش بأصالتنا لأنها نحن .

مع عصرنا : لأن العيش مع العصر ضرورة واقعة أولاً ، ورسالة واجبة ثانياً .

أما أنه واقع ، فلأنها - أى المعاصرة - واقع زمنى ، يتصف به كل البشر؛ إنه مثل السماء والأرض والشمس والقمر .. ، وهو ليس حكراً لأحد ، وليس استعماراً للزمن ، يحق لأحد .

إننا - واقعاً - لايمكننا أن نغلق الأبواب دون عصرنا .

فهو يقتحمنا ، ويجرفنا ، أردنا أم لم نرد .

التكنولوجيا ، الحروب النووية ، والفضائية ، الهندسة الوراثية ، ثورة الاتصال ... إلخ .

إنه يتحتم علينا أن نعيش " عصرنا " .

لكن بأى معنى .

هل نعيش " له " ..؟

أو نعيش " معه " .. ؟

أن نعيش " لعصرنا " يعنى أن نكون ملكا له ، نفقد ذواتنا ، ونفرغ أنفسنا من محتواها ، لنحشوها بكل مايأتى من جديد ، تنتجه " المنطقة الاستعمارية للعصر " .

فنفقد بذلك الأصالة من أول خطوة .

إن هذا منهج خاطىء

وهو فوق ذلك منهج فاشل .

لأن أصالتنا تعيش فى دمائنا .

وتنبض فى أدمغتنا ، وتنبع من فطرتنا ، يقول رسول الله (إن الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة) .

أما أن نعيش مع عصرنا ، فإنه يعنى أن نفهمه ، وأن نشعر بهمومه ، وأن نستغل امكاناته لنعبره إلى المستقبل ، إلى مابعد العصر .

إن هذا العصر شيال متحرك نحو المستقبل ، وعلينا نحن أن نساهم فى وضع صورة مابعد العصر .

صورة المستقبل المفتوح .

نعبر " المنطقة الاستعمارية للعصر " تلك التى رفعت أعلامها الحضارة المعاصرة ، بعد أن استعمرت الجغرافيا والتاريخ ، أعلنت أنها استعمرت " العصر " .

وعلينا نحن أن نعيش مع هذا العصر لنعبره إلى مابعده .

ولعلنا بذلك نكون أكثر صلاحية لإبداع صورة المستقبل ، أكثر من أولئك المنغمسين فى أحضان العصر .

إن المعاصرة بالنسبة لنا - إذا أردنا الاحتفاظ بالأصالة - لاتعنى العيش للعصر .

وإنما العيش معه ، أو بعبارة أدق : فى موقع قيادته .

من أجل تقديم المساهمة الإيجابية المبدعة لتغييره .

ولايكون ذلك إذا أفرغنا ذواتنا وحشوناها بمحتويات العصر .

وإنما يكون إذا احتفظنا بذواتنا ، وجعلنا من أصالتنا : إيماناً ، وعلماً وعملاً ، أدوات نعالج بها العصر من أجل المستقبل .

إنه لايصح أن نخسر العصر ، تماماً ، كما أنه لايصح أن نخسر الأصالة .

ذلك أننا إذا خسرنا العصر خسرنا الأصالة ، وإذا خسرنا الأصالة خسرنا العصر أيضا .

إن المعاصرة رسالة الأصالة .

إن التقوقع والجمود والهروب من العصر خيانة لرسالة الأصالة فينا .

إن الأصالة بشقيها : الطبيعى والاختيارى .. تدعونا إلى الامساك بناصية العصر .

إذا خسرنا العصر خسرنا الأصالة ، لأن الأصالة تدعونا إلى إعادة تشكيل العصر ، من أجل إعادة تشكيل المستقبل .

ومن الناحية الأخرى : فإننا إذا خسرنا الأصالة خسرنا العصر أيضاً، لأننا عندما نخسر الأصالة نخسر أنفسنا ، ومن خسر نفسه فإنه لايملك شيئاً .

وعلى أساس ماتقدم فإنه يمكننا أن نقول :

ليست الأصالة مناورة لفظية ، أو مراوغة فكرية ، أو بعثا للأموات ، أو إقامة للمهرجانات ، أو تفتيشا عن خامل الثقافات .. أو استعراضاً لألوان الفولكلور ، أو تخشعاً أمام قبور الفراعنة ، أو انتشاء بأعياد النيروز ، أو تغزلاً بمكارم قحطان ، أو تعصباً لما يسمى التراث ...

كلا :

إنما الأصالة بكلمة بسيطة : هى الاستقامة على فطرة الله ، طبيعة فينا ، وديانة منزلة علينا .

كذلك فإن المعاصرة ليست هى : القبعة ، أو الجينز ، أو الفيديو ، أو الرطانة بلغات العالم المتحضر ، أو اقتناء للوحة لفان جوخ ، أو الرقص فى أعياد الميلاد ، أو تبادل الكؤوس ومخاصرة النساء فى الحفلات ..

ولكن المعاصرة هى : تحرير العصر من الأسر ، وحث الخطى نحو المستقبل إلى عصر جديد ، نخط فيه سورة العصر على أعلام الأمم ، أو هيئة الأمم إن شئت ...

﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر ﴾ .

يقول رسول الله : (مامن مولود إلايولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء .) رواه البخارى ومسلم .

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم . ﴾ ٣١ الروم .

الذاتية .. ودماء مسفوحة

لكى نتعـرف علـى ذاتيـة الحضـارة ــ فيمـا ينبغـى أن يكـون ــ وطبقـاً للمنهج الإسلامى ، يجب أن نقرر مبدئياً أن الإسلام " نسق " .

والنسق لايقبل التفكيك .

تماماً كما هو الحال فى أى كيان عضوى متكامل .

كنظام الذرة .

والخلية .

وجسم الحيوان .

والفلك .

وإذا قبلنـا تفكيـك نسـق مـا فـإن هـذا يعنـى أننـا قبلنـا تدمـيره يقينـاً ، ولحساب غيره احتمالاً .

الأنساق لاتفكك ، وإذا فككت دمّرت .

وإن كثيراً من المفكرين الإسلاميين - وفى هذا القرن العشرين بـالذات - ليقومون بدور تفكيك الإسلام [1] : ظناً منهم أن يعودوا إلى تركيبه بعد ذلـك تركيباً عصرياً (!!) .

فيأخذون منه " إفراد الله بالعبودية " ليروجوا لــ " الليبراليـة " . : مـع أن إفراد الله بالعبودية جزء من النسق الإسلامى العام ، و " الليبرالية " جـزء من النسق العلمانى العام ؛ فهيهات .

ويـأخذون منـه تكريـم اللـه " للإنسـان " عبـدا للـه ، لـيروجوا لحقــوق الإنسان .

: تكريم الله للإنسان العابد جزء من النسق الإسلامى .

وحقوق الإنسان جزء من النسق العلمانى الذى تقوم عليه هيئة الأمــم " العصرية " .

---

(١) هؤلاء أهون حالاً ممن يعومون الإسلام إلى سطحية الالتقاء مع غيره فـى صياغـات شديدة العمومية لاتختص بدين .

ويأخذون منه رعاية الاسلام للفقراء ليروجوا للاشتراكية.

؛ رعاية الفقراء جزء من النسق الاسلامى.

وإفقار الأغنياء جزء من النسق الشيوعى .

ويأخذون منه شرعية " البيع "و " الربح" ليروجوا للربا .

: الربح جزء من النسق الإسلامى فى الاقتصاد .

والربا جزء من النسق العلمانى .

وهكذا ....

قالوا : تلك الحضارة (المسيحية اليهودية الإلحادية !!) :

هى العلم ، والإسلام دين العلم ، وتغافلوا عن وضعية العلم فى البناء الإسلامى ، وهى وضعية الأداة التنفيذية ، لا الفيلسوف ، ولا المشرع ، ولا المنظّر ، ولا المقيّم للأشياء .

قالوا : هى العقل والإسلام دين العقل ، وتغافلوا عن وضعية العقل فى الإسلام ، وهى وضعية المخلوق الساجد لأمر الله .

قالوا : هى القوة والإسلام دين القوة ، وتغافلوا عن وضعية القوة فى البناء الإسلامى ، وأنها مطلقة فى جانب الله ، مقهورة بشرع الله فى جانب المخلوق .

وهكذا ...

قالوا : هى الغنى والرفاهية والجمال ، والإسلام دين الغنى والزينة والجمال ..

صنعوا لنا ملامح القربى والتشابه مع الغرب ليمحقوا تميز الإسلام وليسحقوا ذاتيته ، ولتظل القبلة الحضارية هناك .

صنعوا للحضارة الإسلامية ملامح القرب والتشابه وأعلنوها بغير خصوصية لتتزلق فى مزالق التبعية .

روح هذه الحضارة ، وروح عصر هذه الحضارة نعثر عليه فى الدنيوية أو العلمانية .

نعثر عليه فى الصراعية أو التطورية .

نعثر عليه فى الأصولية المسيحية والأصولية اليهودية .

نعثر عليه فى التخليط بين هذا كله مع الإلحادية .

نعثر عليه فى مسحة السفسطة اليونانية القديمة ، التى حاصرها الفكر الإسلامى فى سجن " العندية " ثم انبعثت على يد شياطين الفلسفة المعاصرة فى مذاهب " الصيرورة " و " النسبية " و " التاريخية " ..

ليست تلك إذن هى حضارة العصر أو حضارة العلم .

كذب وتزييف .

تزييف لهذه الحضارة يراد به بعد ذلك تزييف للإسلام ، فلا يعود الإسلام بذاته ، أو بشخصيته .

فلا يعود الإسلام غريباً .

ولايعود الإسلام إسلاماً .

ولايعود الإسلام .

ولاتظهر ذاتية الإسلام بالتفكيك .

إنما تظهر بإدراك خصوصيته التركيبية .

وهى تظهر فى النظر إلى قضاياه الأساسية مقارنة بنظرة الغرب إليها.

ففى العلاقة بالله نجد المحور فى الإسلام هو إسلام الوجه لله ، وفى الغرب نجد أرقى شكل من أشكال النفاق الفكرى : إذ يعلن الحياد ازاء المسألة. !

وفى العلاقة بالزمن نجد المحور فى الإسلام هو الأخروية .

وفى الغرب نجد المحور هو الدنيوية .

وفى العلاقة بالتاريخ نجد المحور فى الإسلام هو التوازن وفى الغرب نجد المحور هو الصراع حتى الابادة .

وفى العلاقة بالبيئة نجد المحور فى الإسلام هو فى الاستفادة بها مسخرة من الله مكفولة بشريعته . وفى الغرب نجد المحور هو المغالبة حتى وهم السيطرة .

وفى العمل من أجل الترقى نجد المحور فى الإسلام هو الجهاد فى سبيل الله ، بينما نجد المحور فى الغرب هو دعوى جبرية التقدم .

وفى قضية الحقوق نجد المحور فى الإسلام يدور حول حقوق الله المنعم بحقوق الإنسان ، بينما نجد المحور فى الغرب هو حقوق الإنسان المنتهبة بأيدى قوانين البقاء .

وفى قضية الضعفاء نجد المحور فى الإسلام هو النصرة من الله بواسطة الضعفاء ﴿ ... **فإنما تنصرون بضعفائكم .** ﴾

بينما نجد المحور فى الغرب هو النصرة على الضعفاء بواسطة السوبرمان .

وفى قضية التشريع نجد المفارقة التى لاتستبين إلا بالتسليم لله - الذى - هو أساس الإسلام - هذا التسليم الذى لايكون إلا بتطبيق الشريعة تطبيقاً كاملاً قد يعذر فيه تقصير المستضعفين ولايعذر فيه إنكار الجاحدين .

الشريعة : أهدافاً ، وأحكاماً ، عامة ، وجزئية .

وإن يكن مع النزول على أحكام الواقع فى التدرج والانتقال والتيسير.

مع الأخذ بوسائل التنفيذ الحديثة المتجددة .

وقد يتفيهق بعضهم فيقول :

إن الوسائل الحديثة تجر معها قيما خاصة بها .

ونقول : نعم ، لكن فى التشريع الإسلامى العلاج لذلك .

إذ نأخذ من هذه الوسائل تحت قواعد التشريع الإسلامى :

طمسوا ملامح الخصوصية ، فأفقدوا الأمة شرط النصر من الله الذى إنما يأتى لمن ينصرون الله ..

طمسوا ملامح الغربة ، فأفقدوا الأمة شرط عودتهم إلى الإسلام ، أو عودة الإسلام إليهم " بدأ الإسلام غريباً ويعود غريباً كما بدا " حديث صحيح .

أسقطوا الخصوصية ، فأسقطوا الملامح ، فأسقطوا الشخصية وأهدروا الذاتية .

لمصلحة من ؟

المعاصرة كما يقولون !!

وأولى بهم أن يسموها اعتصاراً .

التجديد كما يظنون ، وأولى بهم أن يسموه التبديد .

إن الذى يقوم به هؤلاء المفكرون لن يعود على الإسلام بالمعاصرة .

وإنما يعود عليه بالتفكيك والتبديد .

إن للإسلام شخصيته الحضارية .

والشخصية كائن عضوى يؤخذ ككل .

أو على الأقل تجرى المحاولة فى هذا الأخذ على هذا الأساس .

التفكيك قد لايضر بالمادة أو بالجماد .

قطعة الحجر عندما تقسم إلى عشرة قطع فإن كل قطعة منها تظل منتسبة بالفعل إلى " الحجر " ، ولاتصبح شيئاً آخر .

أما الشخصية ـ ككائن عضوى ـ فإنها إذا فككت لاتصبح هى هى ..

وكذلك لاتصبح هى هى إذا أعيد تركيبها وفقا لمنظومة أخرى .

إن فقدان الخصوصية الشخصية ليس بعثاً ولكنه اقتبار .

لايبعث الإسلام وهو أشلاء مختلطة بالمسيحية ، أو باليهودية ، بالاشتراكية أو الشيوعية ، بالرأسمالية أو الربوية ، بالديموقراطية أو الليبرالية بالدكتاتورية أو الأتوقراطية ، أو الثيوقراطية ، بالتقدمية أو التطورية أو

الرجعية ، بالوسطية أو الثورية ، بالراديكالية أو الأصولية ، بالعقلانية أو العلمانية أو العلموية ، بالقومية أو الماركسية أو البعثية ، بالعصرنة أو الإنسانية ، أو عالم القرية الواحدة المحكوم بمجلس الأمن .

لقد ذهب - أو يجب أن يذهب - إلى مزبلة التراث القريب :

قول أحدهم : (علينا أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ، ولنكون لهم شركاء فى الحضارة : خيرها وحلوها ومرها ، ومايحب منها ومايكره ، ومايحمد منها ومايعاب .) (١)

لقد ذهبت - أو يجب أن تذهب - إلى مزبلة الحاضر القريب بلايين الكلمات التى كتبها الاتباعيون للحضارة (المسيحية اليهودية الالحادية) يروجون بها لها ، ليجعلوها هى القبلة ، بزعم أنها هى العصر ، وأنها هى العلم .

ولقد كذبوا ، فهذه الحضارة ليست هى العصر ، وإنما هى المستبد بالعصر ، وهذه نزعة إلى استعمار الزمان ، بعد استعمار المكان ، نزعة إلى استعمار التاريخ بعد استعمار الجغرافيا .

أما العصر الحقيقى فهو عصر الله الذى أقسم به ﴿ **والعصر إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .** ﴾

وهذه الحضارة ليست هى العلم ، وإنما هى المحتكر للعلم ، باسم القوة.

العلم والعلم التجريبى نفسه منهج بشرى قديم .

وللإسلام فيه دور رائد أصيل .

وهو مع ذلك ليس روح هذه الحضارة ، ولاروح عصر هذه الحضارة.

(١) مستقبل الثقافة فى مصر لطه حسين ص ٤١ .

الضرر يزال - ارتكاب أخف الضررين – سد الذرائع – رد المفاسد مقدم على جلب المصالح بعد حساب الموازنة بينهما .. إلخ .

نعم لقد درج الفكر - فى المجال الإسلامى – المعاصر على اصطياد جهات التشابه بين الإسلام وبين غيره من الأديان والمذاهب والأنظمة ، وجرى التركيز على ذلك ، حتى كدنا نرى كل دين أو مذهب أو نظام – قائماً بذاته هناك ، يعلن تفرده وكينونته وشخصانيته ماعدا الإسلام .

فككنا الإسلام .

قلنا : فى الفلسفة اليونانية " العقل " وفى الإسلام " العقل " ، ثم أخذنا بالفلسفة اليونانية .

: فى الفلسفة المعاصرة " العلم " وفى الإسلام " العلم " ثم أخذنا بالعلموية .

: فى الفلسفة " النيتشوية " " القوة ، وفى الإسلام " القوة " ، ثم أخذنا بالنيتشوية .

: فى النظام العلمانى " الدنيوية " وفى الإسلام " الدنيوية " ثم أخذنا بالعلمانية .

: فى النزعة الحضارية " المتعة " وفى الإسلام " المتعة " ثم أخذنا بالمتعوية .

: فى اليهودية " التوحيد " وفى الإسلام " التوحيد " وفتحنا الباب لليهودية .

: فى المسيحية " المحبة " وفى الإسلام " المحبة والرحمة " وفتحنا الباب للتنصير .

: فى الصوفية الهندية " النرفانا " وفى الإسلام " ابن عربى " وفتحنا الباب للنرفانا .... وهكذا .

صار الإسلام مزقا وأشلاء ...

وفى ركام المزق والأشلاء تضيع الشخصية كما يضيع الوجود .

إذا كان " س " مْن الناس له أنف ففى كل واحد من الناس أنف .

وإذا كان له " أمعاء " فلكل حيوان أمعاء ...

أين " س " إذن ؟

من هو " س " ؟

مزقناه .

قتلناه .

إذن فنحن أمام جريمة .

* * *

وأسلوب ثان فى محاولات محو الذاتية : ذلكم هو الذى اتبعه المستشرقون منذ وقت غير قصير ، وتابعناهم فيه إلى حد كبير . وهو أن تمزق حقائق الإسلام وتوزع على أكياس " جانبية " يسهل التخلى عنها ، فهذا كيس " الصوفية " توضع فيه " المحبة " .

وهذا كيس " السلفية " يوضع فيه " الاتباع " .

وهذا كيس " المعتزلة " يوضع فيه " التنزيه " .

وهذا كيس " المعاصرة " يوضع فيه " العقل أو العلم " .

وهذا كيس " الأصولية " يوضع فيه " الالتزام " .

فإذا بما هو " الإسلام " أصبح " لاشيء " ، وعندئذ تتصدى العلمانية لملئه فتصبح العلمانية إسلاماً أو الإسلام علمانية .

ذلكم هو أسلوب التوزيع لميراث الإسلام !!

***

أما الأسلوب الثالث فهو مارسمته المنطقية الوضعية أو المذهب التحليلى من منهج دقيق فى التعامل مع الإسلام ، وهو أن تؤخذ العناوين من تراث الحضارة الإسلامية وتفرغ من مضمونها الإسلامى ، وتحقن بمضامين جديدة واقعية وكما يقول أستاذ الوضعية المنطقية (أن نملأ الصور المفرغة

لتلك المبادئ بمضمونات جديدة) وعلى هذا الأساس يعاد تفسير مفاهيم الإسلام وعقائده ، فيكون " الله " جل جلاله ماذا؟ صفات ، وتكون الصفات ماذا؟ " العلم " مثلاً ؛ وهات " العلم " افرغه من مضمونه القديم واملأه بالمضمون الحديث ، فيصبح هو " العلم التجريبى " [1] .. و " يادار مادخلك شر " . وهكذا ....

وتحول القضية برمتها إلى باطنية عصرية ، أو إلى وجهة نظر لغوية!!!

هذه هى أساليب العصر الثلاثة :

التفكيك بحثاً عن التشابه .

والتوزيع من أجل التمزيق .

والتفريغ من أجل التزييف .

هذه هى أساليب العصر فى تدمير الذاتية الإسلامية ... وهكذا ترتكب الجريمة الكبرى !

والمسلم فى " مستقر " الذاتية " ليس أمامه إلا أن يرفض هذه الأساليب جميعاً ويلزم بيته الذى هو : " الإسلام " .

الإسلام هو " مايميزه " .

وهو فيما يميزه ليس تلك الشطائر أو المزق أو " العرائس " التى تقدم من هذا الجانب أو ذاك .

المسلم يرفض الانسياق إلى تناول الإسلام من خلال رؤية يونانية ، أو لاتينية ، أو ماركسية أو براجماتية ، أو تاريخية ..

المسلم يرفض الانسياق إلى تناول " عرائس " كاذبة مغشوشة تقدم إليه بعناوين من تراث قديم ..

---

(١) انظر تجديد الفكر العربى للدكتور زكى نجيب محمود .

المسلم يرفض الانسياق إلى مسارب التيه بتسمية ماهو من الإسلام بأسماء الفرق والمذاهب ..

الإسلام هو كلمة " الإسلام " لفظاً ومعنى .

ومايميزه هو معنى كلمته .

" إسلام الوجه لله " وسيطرة الآخرة على تصرفاته تحقيقاً لهذا " الاسلام" .

***

إن الابقاء على الذاتية إنما يكون بإبراز نقاط المفارقة والاختلاف : تلك بديهية لايمكن أن تكون محل خلاف وإن غابت عنا طويلاً .

ففي الحضارة الغربية سيطرة الدنيوية ، أما في الذاتية الإسلامية فسيطرة الأخروية .

في الحضارة الغربية التسليم " للإنسان " أما في الذاتية الإسلامية فالتسليم " لله " .

ذلكم جوهر الذاتية الذى في ضوئه يعاد النظر في كل مايبدو من مظاهر التشابه بين الإسلام وبين الحضارة الغربية فإذا لكل شيء من هذا التشابه معنى مختلف .

ولايعنى هذا رفض الحضارة الغربية جملة ، إذ مع كون ذلك انعزالاً قاتلاً وانتحاراً جماعياً ، فإن فيه افتئاتا على الله : لأنه لاتخلو هذه الحضارة من خير فيكون نكران هذا الخير نكراناً لنعم الله ، وحرماناً من فضله .

وإذا كان لابد من الانتقاء واختيار مايصلح فإن السؤال يظل قائماً : مامقياس ذلك ، مامقياس مايصلح ومالايصلح ؟ " لنا " ؟

ذهب بعض الكاتبين إلى " أخذ التكنولوجيا " كما هي ، وانتقاء بعض القيم النافعة .

وهو رأى خطير يحتاج إلى مراجعة وتمحيص .

لابد من مقياس .

والمقياس هو فى قلعة الذاتية الإسلامية القائمة على التسليم لله ، والسيادة للآخرة .

عندئذ لابد من أن نعلن رفض استيراد مايأتى من تلك الحضارة فى باب القيم ، والأهداف ، والأحكام التشريعية العليا لأنها جميعاً جاءت تحت "سيطرة الدنيوية " .

ثم نعلن الأخذ بما عندهم من " الوسائل " التى يمكن أن نستخدمها لقيمنا وأهدافنا وشريعتنا أو بعبارة أشمل وأدق لتأكيد ذاتنا .

حتى التكنولوجيا لابد فيها من المراجعة (١) .

على أن يتم ذلك على أسس من أصول شريعتنا :

فى تحقيق المصلحة " من المنظور الإسلامى " وسد الذريعة " من المنظور الإسلامى " وارتكاب أخف الضررين " من المنظور الإسلامى " أيضاً .

***

وماعدا ذلك فمصيره الفشل المؤكد .

ذلك أن ضمائر ذواتنا ممغنطة بما لايتفق مع أقطاب هذه الحضارة الغربية .

إن المغناطيس الذى صنعت به الذاتية الإسلامية تكون أقطابه من : جبريل ، ومحمد ، والقرآن ..

فكيف ينجح فى داخله مغناطيس معاد :

تكونت أقطابه من وليم جيمس ، والقديس بولس ، وكارل ماركس ؟!

كيف ينجح مجال مغناطيسى كهذا معاد لمغناطيس عقيدة الملك الذى هو بيد الله ، ومغناطيس الملكوت الذى هو بيد الله كذلك ؟

---

(١) يجب أن ننظر بحذر وتشكك إلى الآراء المتداولة عن نقل الأعضاء والهندسة الوراثية ، والسيطرة على البيئة .. إلخ .

﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ﴾ تبارك ١ .

﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾ ٨٣ يونس .

﴿ ءأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ، أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير . ﴾ ١٧-١٨ تبارك .

فيا أيها البشر :

ادخلوا مساكنكم .

﴿ قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون ﴾ .

ملك الله ... ونحن !

ملك سليمان والنمل !

فى قوانين ملك الله أين الصراط المستقيم ؟

فى قوانين ملك سليمان أين الأمان ؟

ادخلوا مساكنكم .

تلكم هى الذاتية الإسلامية :

وكل طرح عدا ذلك فإنما يحسب فى عمليات التزييف القائمة على قدم وساق .

ولايتوهم واهم أننا ونحن نتحدث عن ذاتية النسق الإسلامى نعنى حصيلة التراث الى تكونت عبر القرون .

كلا .

فما هكذا يكون موقف الإسلام من تراث أمة وشعب ، وهو أصلاً صاحب الموقف الفاحص الناقد الرافض لمنطق " إنا وجدنا آباءنا على أمة ."

ولكن الذاتية الإسلامية تعنى ماهو إسلام خالص ، نطق به " الوحى ": قرآنا ، وسنة .

وتراثا بمقدار اقترابه من القرآن والسنة .

إن هذه الذاتية تتلخص فى :

الإسلامية : إسلام الذات لله .

الإلهيـــة : خضوع الذات لله .

الأخروية : ربط الدنيا بمصالح الآخرة .

معركة " الذاتية " :

صميم المعركة الدائرة الآن بين مقومات الحضارة الإسلامية وأعدائها هى معركة الاعتصام بالذات .

وهى معركة ثقافية .

صميم المعركة الدائرة الآن هو فى الدائرة الأولى لصنع الإنسان المسلم .

لقد تهاوت بالفعل دوائر خارجية تم صناعتها وتهاويها تاريخياً ، دائرة بعد الأخرى .

تهاوت دائرة الدعوة بالجهاد .

وتهاوت دائرة الدولة الإسلامية .

وتهاوت دائرة التشريع .

وبقى قلب البناء : الدائرة الثقافية الذاتية .

تلك الدائرة التى توشك أن تنهار .

ولكنها توشك بعد ذلك أن تعود (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء .)

ولقد أنبأنا الرسول ﷺ بمراحل المعركة ، من قبل . إذ قال (توشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : من قلة نحن يومئذ ؟

قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن . قيل : وما الوهن يارسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت .) أخرجه أبو داود.

وحب الدنيا وكراهية الموت ، هو من الأمراض التى أصيبت بها الذاتية الإسلامية المبنية أصلاً على الأخروية .

وفضلاً عما فى الحديث من معان وعظات فإن فيه من النبوءة مايدل على نبوته ﷺ وصدقه فى التلقى من عالم الغيب ..

إذ من كان فى تصوره يومذاك أن ينظر إلى جماعة المسلمين باعتبارها هدفاً من أهداف (الأمم ...) ؟ تحرص الأمم على إبادته ، بعد أن كانت تمتلىء خوفاً من مهابته ؟

وهنا ونحن نتحدث عن " الأكلة " لايملك الباحث إلا أن يسجل دور إسرائيل بينها .

حيث تظهر إسرائيل - بوضوح - بين هذه الأكلة وماهى إلا اللعاب الذى يسيل من فم الغرب المتلمظ شوقاً إلى بقايا القصعة ...

وقد أشار الله تعالى إلى هذا اللعاب فى قوله تعالى :

﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ، أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل . ﴾ ٥٥ - ٦٠ المائدة .

أزيحوا هذه الأكلة أولاً .

إذا لم يمكنكم أن تزيحوها من مراكزها العسكرية والاستراتيجية فأزيحوها من اقتصادكم .

إذا لم يمكنكم أن تزيحوها من اقتصادكم فأزيحوها من تعليمكم .

إذا لم يمكنكم أن تزيحوها من تعليمكم فأزيحوها من إعلامكم .

إذا لم يمكنكم أن تزيحوها من إعلامكم فأزيحوها من عقولكم .

إذا لم يمكنكم أن تزيحوها من عقولكم فأزيحوها من قلوبكم .

وذلك أضعف الإيمان .

أما أن تحل الأكلة فى ذلك كله ويرضا منا وحب وابتهال فى ذلك كله فنحن - إذن - دعاة الأكلة إلى القصعة .

فهل نرضى أن نكون نحن دعاة " الاستعمار " ودعاة " الصهيونية " لأننا - فى الجوهر - دعاة أن تظل لهذه " الحضارة المسيحية اليهودية الإلحادية "مكانة القبلة الحضارية فى حياتنا . ؟!!

وتاريخنا الإسلامى حافل بأمثلة التداعى إلى القصعة ، كما أن حاضرنا صارخ بمعاركها ، ولكننا نحن الذين بأيدينا نجرى لأنفسنا غسيل المخ ، بحيث لانتذكر التاريخ ، ولانرى الحاضر .

يكفى أن نذكر ماحدث فى الحروب الصليبية .

دماء مسفوحة فى قدس الذاتية :

يقول المؤرخ الأوربى " ميشو " فى كتابه تاريخ الحروب الصليبية : أن الصليبيين لما جاءوا إلى المعرة بالشام قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين ، اللاجئين إلى الجوامع ، المختبئين فى السراديب ، وأهلكوا صبرا مايزيد على مائة ألف إنسان فى أكثر الروايات .

قال ميشو : تعصّب الصليبيون فى القدس أنواع التعصب الأعمى الذى لم يسبق له نظير حتى شكا من ذلك المنصفون من مؤرخيهم فكانوا يُكرهون العرب على إلقاء أنفسهم من أعالى البروج والبيوت ، ويجعلونهم طعاماً للنار ، ويخرجونهم من الأقبية وأعماق الأرض ويجرونهم فى الساحات ويقتلونهم فوق جثث الآدميين . ودام الذبح فى المسلمين أسبوعاً حتى قتلوا منهم مااتفق على روايته مؤرخو الشرق والغرب سبعين ألف نسمة ، ولم ينج اليهود - كالعرب - من الذبح فوضع الصليبيون النار فى المذبح الذى لجأوا إليه وأهلكوهم كلهم بالنار .) [1]

فما هى الصورة المقابلة لهذه الهمجية ؟

(١) انظر " الإسلام والحضارة العربية " لمحمد كرد على ، جـ ١ ، ص ٢٩٦ .

ماالذى كانت تمليه الذاتية الإسلامية على صلاح الدين عندما استرجع القدس .

(كان فى القدس لما استرجعها صلاح الدين عام ٥٨٣ هـ من الصليبيين مائة ألف .

منهم ستون ألف راجل وفارس .

سوى من تبعهم من النساء والأطفال .

فأبقى صلاح الدين على حياتهم ، واستوصى بهم خيراً واكتفى بأن ضرب على كل رجل منهم عشرة دنانير وعلى كل امرأة خمسة ، وعلى كل طفل دينارين [1] ورخص للبطريرك الأكبر أن يسير آمناً بأموال البيع ، وذخائر الجوامع التى كان غنمها الصليبيون فى فتوحهم !!) .

تلك فى ميزان الذاتية أمة الكذب والنفاق ، وهذه أمة الصدق والهداية.

وماذا حدث للموريسكيين [2] من سحق للذاتية الثقافية فضلاً عما تم فيهم من سحق عسكرى وسياسى واجتماعى :

١ - (يحظر على الموريسكيين استخدام الملابس العربية التقليدية [3] ، ويرغمون على ارتداء الملابس على النمط الأسبانى ، ويمنع أى خياط يخيط الملابس المحظورة ، فإن فعل عوقب بأشد العقاب ، كما يمنع الموريسكيون من ارتداء الملابس الحريرية والملابس الفاخرة .)

هكذا جاء فى المرسوم الذى أصدرته الملكة جوليانا (١٤٧٩ ــ ١٥٥٥م) .

وأمهلهم المرسوم ست سنوات ، وبعدئذ مدت المهلة إلى عشر سنوات ، وفرض مرسوم آخر أن تلبس كل طبقة اجتماعية ملابس متميزة خاصة

---

(١) يتحدثون عن الجزية فليتهم فى الغرب قبلوا منا الجزية بدلا من الابادة .

(٢) هم المسلمون الذين تنصروا فى عملية تصفية الإسلام فى الأندلس . !!

(٣) تذكر معركة الحجاب فى فرنسا وغيرها .

بها ثم أعطيت النساء مهلة سنتين حتى يتخلصن من استخدام الملحفة وغطاء الوجه [1] .

٢ – **مرسوم خاص بالذبائح :**

يمنع الموريسكيون من ذبح الحيوانات على الطريقة الإسلامية ، ويفرض أن يذبحها جزار مسيحى من أصل أسبانى قديم ، ويجب أن تحمل إلى المسلخ .

يستثنى من ذلك صيد الجمال والدواجن ، فكان يجوز ذبحها فى البيوت حتى ألغى ذلك الاستثناء بقرار فى التاسع والعشرين من شهر تموز عام ١٥١٣ م .

٣ – **مرسوم خاص بالزواج :**

يلزم الموريسكيون بالزواج على الطريقة المسيحية . كما يجب على كل منصر ، أن يتزوج نصرانية أصلاً ، ويفرض على كل موريسكية منصرة أن تتزوج من نصرانى أصلاً ويرغم الموريسكيون فى كل حالة أن يكون الاشبين من المسيحيين القدماء ، ولايجوز أن يكون من الموريسكيين ولا من اليهود الذين تم تعميدهم حديثاً .

٤ – **مرسوم خاص بالزيارات :**

يرغم الموريسكيون المقيمون خارج غرناطة الذين نصروا قسراً ، على عدم زيارة الموريسكيين المقيمين فى مملكة غرناطة ، خشية أن يتآمروا معهم ، فيشعلوا الثورات بتقويتهم ، وتأثرهم ، وتحالفهم معاً ، ويهدد من لايتقيد بذلك بأقصى العقوبات من مصادرة الممتلكات والموت حرقاً ، ويسمح لموريسكيى مملكة غرناطة الذين كانوا خارجها حين صدور هذا القرار ، بالعودة إلى بيوتهم فى غرناطة .

---

(١) انظر " النسب الشريف " الذى تنتسب إليه حركة مهاجمة الزى الإسلامى أو الحجاب فى عصرنا الحاضر .

٥ – **مرسوم خاص ببيع العقارات غير المنقولة :**

لايجوز لأى موريسكى بيع ممتلكاته لأى موريسكى آخر ، إلا بعد أن تمنحه السلطات إذناً ، علماً بأنها لم تكن تمنح هذا الإذن ، إلا بعد تأكدها من إخلاص المشترى الجديد للكاثوليكية ، وخلال الاستئذان ، يجب على الموريسكى ذكر السبب الذى يجعل بيع الممتلكات بالنسبة إليه ضرورة ، ومن خالف ذلك فباع بدون إذن السلطان عوقب بالعقوبات السابقة الذكر ، ثم منع الموريسكيون من بيع ممتلكاتهم البتة سواء كان ذلك البيع لموريسكى أو نصرانى ، خشية أن يأخذوا قيمة ممتلكاتهم ، فيفروا بها إلى شمال أفريقيا ، ويشتركوا بعد ذلك بالأعمال التى كانت مصدر إزعاج لأسبانيا ، كما فعل الكثيرون من قبل ، ومن خالف هذه القرارات يعاقب بأشد العقوبات .

٦ – **مرسوم خاص بمنع الكتب العربية :**

يجب على كل موريسكى - تم تنصيره قسراً – أن يسلم كل مافى حوزته من كتب باللغة العربية ، سواء أكان مقيماً فى غرناطة ، أم فى القرى والأماكن التابعة لها ويتم تسليم الكتب والمخطوطات كافة ، إلى السلطات المسؤولة فى مدة لاتتجاوز خمسين يوماً من تاريخ صدور هذا القرار ، وبعد تسليمها ، يفحصها مختصون لمعرفة فحواها ثم يحرق منها كل ماكان له أدنى تعلق بالدين الإسلامى ، سواء فى الفقه أو فى العقيدة على رؤوس الأشهاد ، وبعدئذ ترد الكتب المتعلقة بالفلسفة والطب والعلوم الأخرى - بعد ترخيصها - إلى أصحابها ، ومن ثبت أنه يقتنى أى كتاب أو مخطوطة بعد العشرين من شهر حزيران عام ١٥١١م تصادر كل ممتلكاته ، علماً بأن السلطات لم تكن تعيد أى كتب أو مخطوطات : ذلك أن حملة محاكم التفتيش ، لم تكن تقتصر على الدين الإسلامى ، بل تعدته إلى اللغة العربية ، كما تبين فى المراسيم التى صدرت فى عهد الملك فيليب الثانى ، وفى المراسيم التى صدرت

سابقاً ، فى عهد الملكين الكاثوليكيين ، كذلك كانت الحملة على كل مايرتبط بالعرب من عادات وتقاليد وأعراف اجتماعية .

٧ – **مرسوم خاص بمنع الأسلحة :**

يسمح لنصارى مالقة بأن يحملوا السلاح دفاعاً عن أنفسهم ، وحماية لممتلكاتهم من اعتداءات الموريسكيين ، وصوناً للمدينة من تلك الاعتداءات المتكررة ، بينما يمنع الموريسكيون من حمل أية أسلحة ، أو استخدامها إلا باذن من السلطات العليا المسؤولة ، أما إذا حمل أى موريسكى السلاح بدون ذلك الإذن المشار إليه سابقاً ، فيقصى عن البلاد إلى الأبد ، وتصادر ممتلكاته ، فإن ثبت أنه قد اقترف تلك الجريمة مرة سابقة ، ففى المرة الثانية يحكم عليه بالموت ، إذا ضبط متلبساً بتلك الجريمة .

٨ – **مرسوم خاص بالإرث :**

يمنع المنصّرون قسرا من الموريسكيين من تقسيم ممتلكاتهم المنقولة وغير المنقولة وتركاتهم على الطريقة الإسلامية ، ويرغمون على تقسيمها طبقا للأعراف المستعملة لدى الأسبان ، ومن خالف ذلك ، عرض نفسه للعقوبات الصارمة .

٩ – **مرسوم خاص بالتعاون مع مسلمى شمال أفريقيا :**

كل موريسكى يتبين أنه حمى ، أو آزر ، أو تعامل مع المسلمين المهاجمين لشواطء مملكة غرناطة الذين يحدثون أضراراً ، من قتل ونهب وسرعة وازعاج ، لاتقل عقوبته عن الموت المؤكد .

١٠– **مرسوم خاص بالهاربين من مملكة غرناطة :**

كل موريسكى يهرب من مملكة غرناطة ، يحرم من ممتلكاته منها ، فإن عاد إليها ، قبض عليه ، وبيع بيع العبيد بالمزايدة .

١١- **مرسوم خاص بممارسة الشعائر الإسلامية والملتحقين بالثوار :**

إذا تبين أن موريسكياً منصراً مارس بعض الشعائر الإسلامية ، فيجب على السلطات والنبلاء أن تصدر بحقه أشد العقوبات التى تصل إلى مصادرة الممتلكات ، وكذلك إذا التحق بالثوار المعتصمين فى رؤوس الجبال .

على هذا النحو مضت السياسة الأسبانية فى غيها ونقمتها واضطهادها للمسلمين بمختلف الوسائل إلى أن تم تنصير أعداد كبيرة منهم قسراً تحت رهبة الأحكام الشنيعة التى كانت تقوم بها محاكم التفتيش وينفذها رجالات الاكليروس ، فكان الموريسكى يضطر إلى اعتناق النصرانية ولو ظاهراً هرباً من الثبور والويلات التى كانت تصب جامها على رأس كل متمسك بدينه أو عروبته .

ازدادت سرية الممارسة للشعائر الإسلامية ، فغدا الموريسكيون يحذرون أشد الحذر حتى من أبنائهم لأن أولئك الأبناء كانوا يربون فى ظلال الكنائس والأديرة على الدين المسيحى ، خاصة المذهب الكاثوليكى ثم يردون إلى أسرهم ، عيونا تشى لمصلحة محاكم التفتيش للقضاء عليهم ، وقد كانت محاكم التفتيش أو بالأحرى محارقها تلتهم الكثير من الموريسكين الأبرياء ، لأقل الشبه والوشايات ، ونعلم أن لكل فعل رد فعل أدى ذلك إلى ازدياد سريتهم فى التنظيم بعد أن كان الأمر لايستدعى كل هذا الحذر وكل تلك السرية [١] .

ذلكم كان فى بلاد المغرب ، فى الأندلس من قرون مضت .

---

(١) نقلاً من بحث للدكتور محمد عبده حتاملة بمجلة (دراسات) التى تصدر عن الجامعة الأردنية عدد كانون الأول ١٩٨١ ، والبحث موثق بالمراجع والوثائق الأجنبية على وجه الدقة .

ولكن حبل الغزو الفكرى العسكرى متصل وللقارىء أن ينظر معنا – فيما يأتى كيف يرتبط الغزو الثقافى الفكرى التبشيرى ، بالغزو العسكرى ... فى بلاد المشرق فأيهما ينكر المنكرون ؟

هاهو القائد البرتغالى - قبل أن يضع قدمه على أرض الخليج العربى فى القرن السادس عشر الميلادى - يرسل إلى إمام عمان الرسالة التمهيدية التالية :

(-- من ربان برتغالى إلى الإمام سيف بن سلطان الأول اليعربى ... الحمد لله خلق الأرض والسماوات

أنتم يامن تحكمون على رعاياكم فى خلافاتهم .. تعلمون أننا نحن جيش الله ، وقد خلقنا لنكون أداة لعقابه الإلهى ، ووهبنا السيطرة على الذين يحل بهم سخطه ...

إننا لانرحم من يشكو

أو نشفق على من يبكى ...

فقد نزع الله الرحمة من قلوبنا حقا

والويل كل الويل لأولئك الذين لايمتثلون لأوامرنا لقد دمرنا مدناً وقضينا على أهلها وأفسدنا الأرض ...) إلى أن يقول :

(إن قلوبنا قدت من حجارة ، وأعدادنا كحبات الرمل ، ونحن نعتبر أن أعدادكم الوفيرة قليلة وقوتكم خسيسة ... إننا نحكم الدنيا بالتأكيد من مشرق الشمس إلى مغربها ...) [1] .

وصحيح أن الإمام سيف بن سلطان الأول رد عليه بما ينبغى ... ولكن هكذا - بداهة - يبدأ الغزو العسكرى ..

---

(١) الخليج العربى أمام التحدى العقدى لسعيد عبد الله حارب نشر مكتبة الأمة فى دبى طبعة أولى سنة ١٩٨٥ ، ص ٤٣ - ٤٦ ، وانظر مانقل عنه : تاريخ عمان لوندل فيلبس ترجمة محمد أمين عبد الله ص ٦٧ .

وهكذا مع الغزو الفكرى ، والعسكرى بدأت ارساليات التنصير تنزل بالخليج العربى وتعمل عملها بالمنطقة .

وبدأ اهتمام الدول الاستعمارية بالمنطقة ابتداء من البرتغال (١٥٢٢ – ١٦٤٠م) إلى فرنسا ، وهولندا ، ثم بريطانيا التى كانت أطولهم احتلالاً للخليج العربى (١٧٩٨ - ١٩٧١) .

وكان اهتمام الدول الاستعمارية بالمنطقة فى ذلك الوقت ومايزال مرتبطاً أشد الارتباط بالنشاط التنصيرى ، ومن الأمثلة الواضحة على ذلك القرار الذى أصدره لويس الرابع عشر عام ١٦٧٩ بتعيين كبير دير الكراملة بالبصرة قنصلاً فرنسياً بها وماتلا ذلك من تتابع أحد عشر قسيساً فى القيام بواجبات القنصل فى البصرة بين عامى (١٦٧٩ - ١٧٣٩) [١] .

وعندما تأسست " الإرساليات العربية الأمريكية عام ١٨٨٩م أكد القس صمويل زويمر و " جيمس كانتين " كما يقولان (أن للمسيح الحق فى استرجاع الجزيرة العربية) !!!

وادعيا أن الدلائل التى تجمعت لديهما تؤكد أن المسيحية كانت منتشرة فى هذه البلاد فى بداية عهدها ، لهذا كما يقولان (فإن من واجبنا أن نعيد هذه المنطقة إلى أحضان المسيحية .) هكذا (!!!)

وعندما وصل زويمر إلى البحرين حوالى عام ١٣١٠ هـ (بدأ يتصل بالناس فى الأسواق ويناقش الشباب منهم فى أمور الدين ، وكان يحادثهم باللغة العربية فقد كان يجيدها ، وبدأ يتحسس فيهم ميولهم وآمالهم ... ويقول لهم : إنه جاء إليهم فى بلادهم ضيفا عليهم ، وإذا لم يقبلوه فهو ضيف الله ... وكانوا يقولون له : أنت ضيف إبليس وبقى هذا اللقب عالقا به طوال تردده على البحرين بعد ذلك .) [٢] .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٧ نقلاً عن دليل الخليج لوريمر ج، ٦ ، ص ٣٤٢ .

(٢) المصدر السابق نقلاً عن المؤرخ البحرينى مبارك الخاطر فى كتابه (القاضى الرئيسى الشيخ قاسم بن مهزع) .

وعندما ضاقت عليه أرض البحرين ورفض الحاكم أن يثق بتعهداته استعان فى عام ١٨٩٩ بالمقيم السياسى البريطانى الكولونيل " ميد " فى إلزام الحاكم بإجابة طلباته لكنه لم ينجح ، ولكنه أعاد الكرة (عام ١٩٠١) فنجح هذه المرة فى أن يشترى ويضم أو يتسول قطعا من الأرض يضمها إلى مشروعه وما أن حل عام ١٩٠٦ حتى كانت جميع المبانى الملحقة قد اكتملت مكونة المركز العام للإرسالية فى البحرين (١) وكانت هذه هى المحطة الثانية للتبشير فى المنطقة بعد محطة البصرة " .

ثم اتجه زويمر بعد ذلك إلى مسقط ، وكتب زويمر عنها يقول : (منذ بعض الوقت ومسقط تقدم فرصة مفتوحة لنشر الإنجيل ... والعرب مستعدون للقدوم إلى منزلى لمناقشة الأمور الدينية إذا دعوتهم ... والكتب المقدسة تباع فى معظم الأماكن ، وتقرأ فى السوق أو فى المقهى .) وعلى العموم لم يواجه هذا الغزو أية مشاكل تذكر فى مسقط فى تلك الأيام بسبب وجود الحماية البريطانية ووجود قنصل أمريكى استخدم حمايته لمتابعة هذا الغزو .

وهكذا اتجهت محاولات الغزو من البصرة إلى البحرين إلى مسقط ، إلى الساحل الشمالى ، إلى قطر ، إلى الكويت ، على تفاوت فى درجات الفشل والنجاح فى هذه المناطق ، ولكنها فى جميع الأحوال كانت شديدة الارتباط بالسلطات الاستعمارية وكان اخفاقها أو نجاحها مرتبطاً بمدى ظهور أو اختفاء هذه الرابطة الاستعمارية ، ذلك لأنه كما يقول الأستاذ سعيد حارب : كان هذا الارتباط الظاهر يؤدى إلى ابتعاد سكان الخليج العربى عن نشاط هذه الإرساليات بعد الاستقلال وانتشار الروح الوطنية المستقلة عن أية تبعية ، وكان بقاء الإرسالية فى عملها يعنى بقاء صورة من الماضى الاستعمارى ، فرأت العقلية التنصيرية (الغازية) أن تطوى هذه الصفحة لتبدأ بعدها صفحات أخرى تكون ذات ملامح وأساليب جديدة تتفق مع المتغيرات التى حدثت بالمنطقة .)

---

(١) المصدر السابق ٥٩ ـ ٦١ .

ثم يقول سعيد حارب : (إن واقع التنصير فى منطقة الخليج العربى يهدد المنطقة بأسرها فخطورة هذا النشاط لاتتوقف عند الخليج بل تتجاوز إلى بقية أجزاء الجزيرة العربية التى هى الهدف الرئيسى للتنصير) (١) .

ثم يقول الأستاذ سعيد حارب بعد أن يشير إلى النشاط التبشيرى العام الموجه إلى المسلمين فى جميع بلاد آسيا وأفريقيا : (إن الهدف الرئيسى لم يكن غائباً لحظة عن دعاة التنصير . فمكة المكرمة هى الهدف (كذا !!!) والجزيرة العربية هى الطريق الى ذلك ، والخليج هو البداية التى يلج فيها التنصير إلى مكة المكرمة ، كما يصفه ... زويمر .)(٢) .

***

لقد جاء فى تقرير اللجنة الثالثة من لجان مؤتمر أدنبرج التبشيرى الذى عقد عام ١٩١٠ :

(اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى فى عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم الثانوية التى أسسها الأوربيون كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية يرجع إلى تأثير العمل المشترك الذى قامت به دول أوربا كلها)(٣) .

ولما انتهت اللجنة السابقة من لجان المؤتمر المذكور من أعمالها قال " اللورد بلفور " رئيس الشرف : (إن المبشرين هم ساعد لكل الحكومات فى أمور هامة ولولاهم لتعذر عليها أن تقاوم كثيراً من العقبات ، وعلى هذا فنحن

---

(١) المصدر السابق من ص ٧٠ إلى ص ٧٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٤ .

(٣) كتاب الغارة على العالم الإسلامى تأليف أ.د شاتليه ترجمة مساعد اليافى ومحب الدين الخطيب ، القاهرة ، المطبعة السلفية / عام ١٣٥٠ هـ ، ص ٧٢ .

فى حاجة إلى لجنة دائمة يناط بها التوسط والعمل لما فيه مصلحة المبشرين فأجيب اللورد إلى اقتراحه) (١) .

ويقول شنكال رئيس غرفة التجارة فى همبرج تعليقاً على أهمية هذا المؤتمر : (إن نمو ثروة الاستعمار متوقف على أهمية الرجال الذين يذهبون إلى المستعمرات ، وأهم وسيلة للحصول على هذه الأمنية إدخال الدين المسيحى فى البلاد المستعمرة لأنه هو الشرط الجوهرى للحصول على الأمنية المنشودة حتى من الوجهة الاقتصادية) (٢) .

لقد جاء فى قرار المؤتمر المذكور (إن ارتقاء الإسلام يتهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم ، والمؤتمر يشير على الذين فى أيديهم زمام المستعمرات أن يقوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام وأن يزيلوا العراقيل من طريق انتشار النصرانية ، وأن ينتفعوا من أعمال إرساليات التبشير التى تبث مبادىء المدنية .) (٣) .

أما فى مؤتمر لكنو التبشيرى الذى عقد عام ١٩١١ فقد جاء فى ختام تقرير للقس سيمون عن حركة الجامعة الإسلامية فى ماليزيا :

(إن العامل الذى جمع هذه الشعوب وربطها برابطة الجامعة الإسلامية هو الحقد الذى يضمره سكان البلاد للفاتحين الأوربيين (!!) ولكن المحبة التى تبثها إرساليات التبشير النصرانية ستضعف هذه الرابطة وتوجد روابط جديدة تحت ظل الفاتح الأجنبى) (٤) .

وجاء فى ختام تقرير القس ينغ فى مؤتمر لكنو المذكور عن الانقلابات السياسية فى جزيرة العرب :

---

(١) الغارة على العالم الإسلامى ـ السابق ـ ص ٧٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٨٠ .
(٣) المصدر السابق ص ٨٢
(٤) المصدر السابق ص ١٠٥ .

(إنه قد أزف الوقت لارتقاء العالم الإسلامى وسيدخل الإسلام فى شكل جديد من الحياة والعقيدة ، ولكن هذا الإسلام الجديد سينزوى فى النهاية ويتلاشى أمام النصرانية .) [1] .

ومن الغريب حقا ـ كما يقول الدكتور سعيد إسماعيل على ـ أن تمتد يد المبشرين حتى إلى داخل الجامع الأزهر ، نعرف ذلك من رسالة أرسلها طالب طرابلسى كان يدرس فى الأزهر ـ فى وقت غير بعيد جداً ـ إلى مجلة الفتح العدد ٦٤ حيث ذكر أنه بينما كان جالسا بالأزهر يراجع دروسه إذا بطائفة من المبشرين يدخلون الأزهر ، وماكادوا يصلون الصحن حتى تفرقوا فى أنحائه ، وذهب كل واحد منهم إلى ناحية كعادة موزعى الاعلانات ، فعلم أن فى الأمر شيئاً ، وقام من مجلسه لعله يعرف السبب الذى دعاهم إلى الانتشار على خلاف المعتاد ، وماهو إلا أن لقيه بعضهم فدفع إليه بكتاب من الكتب ، عنوانه " النجدين " يدور حول الكيفية التى يصير بها المسيحى مسلماً والتى يعتنق بها المسلم المسيحية ، والهدف الأخير كان هو المقصود بالطبع ، فذهب الدارس إلى بعض أولى الأمر فى الأزهر ، محتجا على ترك هؤلاء يدخلون المسجد .

كذلك كشف أحد دارسى الأزهر أن الجامعة الأمريكية وزعت مرة بجوار الأزهر منشورات تدعو فيها طلاب العلم للاعتناء بمحاضرتها ، فلبى عدد من الأزهريين (حسنى النية) دعوتها ، وملأوا قاعة المحاضرات حتى ازدحمت بهم وكأن الدعوة لم تصل إلا للأزهرى فيما يقول صاحب الرواية ، بالاضافة إلى عدد قليل من غيرهم وكانت المحاضرة باللغة الإنجليزية التى لايعرفها الأزهريون (!) ، ومن هنا كانت الجامعة تستعين بمترجم ينقل معناها إلى المستمعين ، يقول صاحب الرواية : إنهم فوجئوا بالمحاضر يبشر ويوجه إلى الإسلام تهما خبيثة ، حتى تبرموا واعتذر المترجم بأنه ناقل فحسب .

(١) المصدر السابق ص ١١٢ .

وكما يقول الدكتور سعيد إسماعيل على الذى ننقل عنه ماسلف (كـان نشاط المبشرين يتعاظم وبدأت الشكاوى وصيحـات الاحتجـاج ترتفـع مـن كـل مكان فكان لابد للأزهر من أن يتخذ موقفاً حازماً ، فاجتمعت لأجل ذلك هيئـة كبـار العلمـاء برئاسـة شـيخه فـى ١٩٣٦/٦/٢٦ ، وعـرض فـى الاجتمـاع ماستفاضت به الأخبار من قيام المبشرين بتنصير أبناء المسلمين فـى مختلـف الجهات بما يتخذون من وسائل الحيل والفنون والإغراء تارة وضـروب العنـف والإرهاب أخرى . وبعد البحث والمداولـة قـررت الهيئـة ـ انظـر مجلـة نـور الإسلام ربيع أول ١٣٥٢ هـ ـ مطالبة الحكومة بأن تسن تشريعا حازماً يجتـث بذور هذا الفساد ، ويستأصل شـأفه هـذا المـرض الوبيـل القتـال ، كـى يطمئـن المسلمون على دينهم وكى يكون أولادهم وإخوانهم وأقاربهم فى مأمن .) (١)

ولاجدال فى أن دور الغزو الفكرى قد فاحت رائحته الكريهة فى هـذه المؤتمرات وذلك النشاط كمـا لاشـك أن ذلـك يتـم بـالمخدر الأقـوى : اسـتبعاد الدين .

واستبعاد الدين هنا مقصود بـه " الديـن الإسـلامى " بخاصـة ، وإذن ، فالعلمانية موظفة لدور تآمرى ملوث .

يقول القس اكسنفلد فـى مناقشـة لـه بمؤتمـر أندنـبرج التبشـيرى الـذى أشرنا إليه سابقاً وذلك بعـد أن أشـار إلـى (أن الخطـر الإسـلامى صـار أمـره معروفاً عند الجميع ...) قال : إن الحكومة لابد لها من القيام بتربية الوطنيين المسلمين فى المدارس العلمانية مادام هؤلاء المسلمون ينفـرون مـن المـدارس المسيحية ...) (٢) .

وهنا يكون من الواضح أن العلمانية وإن كانـت تستبعد الدين إلا أنها

---

(١) انظر كتاب دور الأزهر فى السياسة المصرية ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ .

(٢) كتاب الغارة على العالم الإسلامى ص ٨٢ .

تجد فى الدين المضـاد حليفاً طبيعياً يشـاركها فـى العمـل علـى تحطيـم الديـن الأصلى السائد .

إن العاملين فى مجال تحطيم المسلمين والإسلام هنا هم ثالوث متداخل الأركان : الاستعمار والتبشير والعلمانية . ثم انظـر بعدُ تحـت أى حـذاء مـن أحذية هذا الثالوث تجد من يسمون أنفسهم دعاة الإسلام الجديد " !!!

أما فى الخلافة العثمانية :

فنحن نعرف ماحدث للخلافة العثمانية التى تآمر الغرب على إسـقاطها فى بداية هذا القرن بعد أن ظلت أكثر من أربعة قرون القلعة الشامخة للإسلام والمسلمين تحميهم وتذود عنهـم كـلاب أوربـا المسـعورة ، وتبـث الرعـب فـى رجالها البغاة وتصل إلى مخادعهم لتملأها بكوابيس الذل والهوان .

صحيح أن هذه الامبراطوريـة كـانت قـد شـاخت وسـرت فـى جسـمها أمراض الحضارات الكبيرة ، وأنها كـانت فـى حاجـة إلـى دم جديـد ، أو إلـى مركز إشعاع إسلامى جديد .

لكن غير الصحيح هو مـاتولى كبره الغرب مـن التـآمر علـى توزيـع ميراث هذا " الرجل المريض " ودفن دولة الإسلام الكـبرى إلـى الأبـد ، باسـم العلمانية ، وبأيدى العلمانيين من زعماء تركيا .

والسؤال الآن : ماالذى حدث للدولة الإسلامية علـى يـد العلمانيـة فـى تركيا ؟

وهنا فإنى أترك القارىء يستمع إلى رواية الأستاذ فهمى هويدى الـذى سعى إلى استامبول ولقى رجالها المخضرمين الذين عايشوا التجربة العلمانيـة الكمالية .

يقول الأستاذ فهمـى هويـدى : إنـه عندمـا سـألهم عـن حقيقـة مـاجرى تحفظوا جميعا علـى الفـور وقـالوا : القـانون الـتركى يسـمح بـالتعرض بـالنقد

والتقييم والتجريح للذات العلية والرسل والكتب السماوية ، ولأى مقدس باستثناء رمز واحد هو : شخص كمال أتاتورك .

ليس هذا فقط ، بل أن ذكر الإسلام أو الشريعة يعد من المحظورات التى يعاقب عليها القانون بالسجن ١٢ عاماً ، والمشتغلون بالعمل الإسلامى يتحايلون على ذلك النص القانونى ، فلا يذكرون أمثال تلك الكلمات " ولكنهم يشيرون إلى الإسلام والشريعة ، أحياناً بكلمة " الحق " ، " أو وجدان الأمة " (مللى شعور) وفى هذا الصدد يذكر أن نجم الدين أربكان ، رئيس حزب الرفاه - وهو حزب إسلامى لم يجرؤ على ذكر صلته بالإسلام – سئل أثناء محاكمته عما إذا كان يعنى الإسلام أو الشريعة ، بكلمة الحق التى يرددها أحيانا ، فكان رده أنه لم يقل بأنه يقصد المعنى الذى أشارت إليه المحكمة ، وأنه يحاسب على نص كلماته لا على تفسير المحكمة له .

وعندما ألححت فى الأسئلة - الكلام للأستاذ فهمى هويدى – اشترطوا على قبل أى حديث ألا يشار إلى أسمائهم ونصحونى فى الوقت ذاته بالرجوع إلى كتابين - إن أردت التعرف على الوجه الآخر للصورة هما : الرجل الصنم (أتاتورك) وهو من تأليف ضابط تركى مات منذ سنتين (١٩٨٤) حجب إسمه ، ووضع صفته فقط على غلاف الكتاب ، خشية التعرض للعقاب أو الملاحقة من جانب الكماليين ، والكتاب يتداول سراً فى تركيا ، وقد ترجم إلى العربية فى السبعينات ، وطبع فى بيروت والكويت ، أما الكتاب الثانى فعنوانه هو : " النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة " (يقصد الكماليين) من تأليف شيخ الإسلام فى عهد السلطان عبد الحميد ، الشيخ مصطفى صبرى ، وقد طبع خلال الخمسينات فى القاهرة ، وصدرت له نسخة محققة فى العام الماضى (١٩٨٥م) قدمها الدكتور مصطفى حلمى من جامعة الاسكندرية .

تشير مجمل تلك المصادر إلى أن مصطفى كمال - الذى أعطى لاحقا لقب " أتاتورك " أو أبو الأتراك - قدم نفسه فى البداية باعتباره منقذا للخلافة

وللأمة الإسلامية ، وفى بيان أصدره بمناسبة افتتاح مجلس الأمة التركى سنة ١٩٢٠ قال : " إن افتتاح المجلس فى يوم الجمعة هو من أجل الاستفادة من بركة هذا اليوم .. وباشتراك جميع النواب فى صلاة الجمعة بجامع " حاجى بيرام " سيؤخذ الفيض من نور القرآن والصلوات على الرسول ... سيبدأ من الآن فى جميع أرجاء الوطن المقدس والجريح بقراءة القرآن والبخارى الشريف ، وستتلى الصلوات من فوق المنابر فى يوم الجمعة بعد الآذان وعندما تتلى الأسماء السلطانية لمولانا وسلطاننا وخليفتنا ، فستتلى الأدعية من أجل خلاص حضرته السامية ، ومن أجل خلاص بلده وخلاص رعيته وتحقيق السعادة لهم فى أقرب وقت " .

ولكنه بعد عامين فقط من هذا الكلام (فى سنة ١٩٢٢) أعن أن تجربته أثبتت امكانية فصل السلطنة عن الخلافة ، وأن مجلس الأمة التركى يستطيع أن يمثل الحاكمية والسلطنة ، وبذلك تعود السلطنة إلى الأمة .

على الفور شكلت لجنة لبحث الأمر ، وأعدت مشروع قانون الفصل بين الخلافة والحكومة ، وعندما طرح المشروع للتصويت اعترض مصطفى كمال على مبدأ التصويت قائلاً : إنه من الطبيعى أن يوافق مجلس الأمة بالاجماع على إعادة السلطة إلى الأمة ، والحفاظ على استقلال الأمة والوطن.

كانت هذه الخطوة هى التمهيد الطبيعى لإلغاء الخلافة بعد ذلك فى شهر مارس من عام ١٩٢٤ ، بالقوانين الثلاثة الشهيرة ، التى حملت أرقام ٤٢٩ - ٤٣٠ - ٤٣١ - وينص أولها على إلغاء وزارتى الأوقاف والشرعية بينما ينص القانون الثالث على أن تلحق جميع المؤسسات العلمية والدينية بوزارة المعارف .

كان ذلك إيذانا بميلاد الدولة العلمانية الجديدة التى بدأت هويتها تلك تتردد على مختلف الألسنة وفى مختلف المحافل ، وفى مذكرات على كيليج ـ أحد رجال أتاتورك ـ أن قضية العلمانية أثيرت فى اجتماعات مجلس الأمة ، فى حضور مصطفى كمال ، فقام أحد العلماء من أعضاء المجلس وقال : "

إن الكل يتحدث عن العلمانية ، ولكنى لا أستطيع فهم معناها على وجه التحديد "عندئذ قاطعه مصطفى كمال بحدة وقال : إنها ، تعنى أن نكون آدميين ياشيخنا .. آدميون !

وبينما كانت الدعوة إلى العلمانية تشتد ، فإن الحملة على الشريعة كانت تمضى معها فى خط مواز ، وكان مصطفى كمال هو الذى قاد تلك الحملة ، حيث بدأها بأن قال غامزا " إن الدين المتعلق بالضمير شىء والشريعة التى تريد أن يتجمد المجتمع وأمور الدنيا عند القرن السابع (الميلادى) شىء آخر " (لاحظ أن العبارة تتردد بنصها الآن فى أوساط العلمانيين [١]) ، مما قال أيضاً : " إن التشريع والقضاء فى أمة عصرية يجب أن يكونا مطابقين لأحوال الزمان ، لا للمبادىء ولا للتقاليد " أما وزير العدل فى حكومته ، محمود أسعد ، فقد هاجم الشريعة ووصفها بأنها " قانون الصحراء " [٢] ، وقال : " إن الشعب التركى جدير بأن يفكر بنفسه ، دون أن يتقيد بما يفكر فيه غيره من قبله ، لقد كانت كل مادة من مواد كتبنا القضائية تبدأ بكلمة " قال " المقدسة ، أما الآن فلا يهمنا أصلاً ماذا قالوا فى الماضى بل يهمنا أن نفكر نحن ، وأن نقول نحن ، وقد شاعت فى أنقرة آنذاك عبارة تقول : لانريد شرعا فيه قال وقالوا ، لكنا نريد شرعا فيه قلنا ونقول " .

هذه " الظاهرة " أفرزت القانون المدنى الجديد ، الذى جاء ترجمة للقانون المدنى السويسرى .

وكان هو البديل الذى حل محل الشريعة الإسلامية ، وقد اعتبره أتاتورك تحقيقا للانتصار النهائى للكفاح فى سبيل المدنية فى عصر تأسيس

---

(١) لاحظ أيضاً أن الكلام مايزال للأستاذ فهمى هويدى .

(٢) قارن هذا مع مايقوله أحمد عبد المعطى حجازى عن الموازنة بين ثقافة الحضارة الزراعية " مصر " وثقافة الصحراء التى يحملها المتشددون فى الإسلام . انظر الأهرام ١٩٨٨/٥/١٨ .

الجمهورية " وقال : إن إقرار القانون المدنى وتنقية الدستور لصالح العلمانية (بحذف المادة التـى تنص علـى أن ديـن الدولـة الرسمى هـو الإسـلام) هـو بمثابة لبس التاج فى مراسم انتصار مبادئنا الثورية .

أراد الكماليون أن يتخلصوا من الشريعة فترجموا كل ما أمكن نقله من مواد القانون السويسرى ، وقد واجهتهم بعض المشكلات الصغيرة فى هذا الصدد ، إذ - تبينوا مثلاً - أن القانون السويسرى يمنع الزواج بين الأخـوة فـى الرضاعة ، استناداً إلـى اجتهادات الكنيسة الفرنسية ، شأنه فـى ذلك شأن الشريعة الإسلامية .

وقد عرضوا الأمر على أتاتورك الذى أغضبه هذا التماثل ، مما دفع ناقلى القانون إلـى إلغـاء الحظـر ، والسماح للتركى بأن يتزوج أختـه فـى الرضاعة ، إمعانا فى رفض كل ماجاءت به الشريعة !

ثمة ملاحظة طريفة فـى هذا الصدد أوردها أحد الكتاب الفرنسيين (موريس برنو) قال فيها : إن الكماليين عندما استبعدوا الشريعة وظنـوا أنهم تخلصوا من عبء كلمات مثل : قال وقالوا ، فإنهم لم يفعلوا أكثر من استعارة القانون المدنى السويسرى لتطبيقه ، غير مدركين أنـه نـابع مـن مصدرين ، أحدهما رومانى والآخر مسيحى ، أى أنهم استعانوا بقانون له مصادره الأقـدم عهدا من الفقه الإسلامى ، الذى زعم مصطفى كمال أنه ألغاه بسبب توغله فى القدم وإذ يسجل الأمير شكيب أرسلان هذه النقطة فإنه يضيف أن أوربا التى يتطلع إليها هؤلاء - وأمثالهم - ليس فيها قانون غير متأثر بالتعاليم المسيحية والتشريع الرومانى ، وأنه ليس في الدنيا شرع أو قانون يخلو من قال وقـالوا، غاية ماهناك ، أنهم يستبدلون سلفاً بسلف .

لم يقف جهد أتاتورك وجماعته عند هذا الحد ، ولكن الأمر تجاوز تعطيل الشريعة إلى محاولة قطع كل الروابط التى تصل الأتراك بالإسلام ، فقد تحولت الخلافة إلى دائرة صغيرة تابعة إلى وزارة الداخلية للشئون الدينية

ـ يانت إيشـي ـ وأغلقت كل مدارس التعليم الدينـي ، وكل التكايا والزوايا والأضرحة ومقار الطـرق الصوفيـة ، وألغيت أعياد الفطـر والأضحـى لعدة سنوات ، ومنع أداء فريضة الحج ، ومنع الآذان باللغة العربية ، حيث أصبح يؤذن بالتركية ، واستمر هذا الوضع حتى سنة ١٩٥٠ ، أى بعد وفاة أتـاتورك وطرحت فكرة ترجمة القرآن بالتركية لتكون الصلاة به ، ولكن لم يكتب لهذا الاقتراح أن ينفذ وألغيت الجمعة (أيضاً) واستبدل بها الأحد ، ومنع الحجـاب فضـلاً عن أن القـانون المدنـى كـان قـد منـع تعـدد الزوجـات ، وأبـاح زواج المسلمة بغير المسلم ، وصدر قانون يمنع ارتداء الطربوش ، الذى عد رمـز الانتماء للدولة الإسلامية ، وتم استبداله بالقبعة ، التـى كـان النـاس يعتبرونها لباس أهل الكفر لأن حافـة القبعـة تحـول دون السـجود فـى الصـلاة ، وكـانت الطامة الكبرى ، أن قرر أتاتورك إلغاء الحرف العربى واستبدل بـه الحـروف اللاتينية ، وتم ذلك تحت شعار إتاحـة الفرصـة للناشـئة الأتـراك لأن يسـتفيدوا من علوم الغرب ، ولتخليص الأتراك من إسار اللغة العربية ، ليكون انتماؤهم القومى صافياً ، كما كتب فالح رفقى ، أحد رجال أتاتورك ، ولكن القرار كـان يعنى فى حقيقة الأمر ليس فقط قطـع الصلـة بيـن الأتـراك وبيـن لغـة القـرآن ومنابع الثقافة الإسلامية ، ولكـن أيضـاً إسـقاط كل الـتراث الثقـافى الإسـلامى الذى نهل منه الأتراك معارفهم الدينية .

وكانت الذروة فى سعى أتاتورك للالتحاق بـالغرب والتعلـق بـه ، أن طلب وهو على فراش المرض ـ قبل وفاته ـ من السفير البريطانى فى أنقرة ، أن يخلفه فى حكم تركيا !!

وهى المفاجأة التـى أعلنتهـا صحيفـة " الصنـداى تـايمز " قبـل سـنوات (عـدد ١٤ فـبراير ٦٨) عندمـا نشـرت القصـة ، ونقلـت تفاصيلهـا ووثائقهـا المثيرة عن ابن السفير البريطانى الأسبق ، السير بيرسون ديكسون.

فى الشق المتعلق بالديموقراطية والحريات ، فإن التسـاؤلات التـى قـد تثور بشأنه يرد عليها بلاغة ذلك العنوان الذى اختـاره أبـرز مفكـرى الكماليـة

" شوكت باشا " للموسوعة التى وضعها من ثلاثة أجزاء للتعريف بعبقريته ومناقبه ، وكان العنوان هو " الرجل الأوحد " أما رئيس وزرائه وخليفته عصمت اينونو فقد قال عن الرجل فى إحدى المناسبات : " إن حبه عباده " !

ويذكر كتاب " الرجل الصنم " أن بعض أعضاء مجلس الأمة اعترضوا على قانون منع الطربوش ، ودعوا إلى احترام رأى المجلس ، فكان رده أنا الذى جمعت هذا المجلس ، وأنا الذى صنعته ، فإذا كنتم تطالبون باحترام المجلس فإننى علاوة على ذلك أحترم أثرى وصنع يدى ! ، وعندما خطر لبعض أعضاء المجلس أن يفكروا فى إنشاء " الحزب الجمهورى التقدمى " وعرف أن احترام المعتقدات الدينية من بين مبادئه ، فإنه أصدر قانونا باسم " إقرار السكون " أغلق بمقتضاه الصحف ، وألقى القبض على رؤساء التحرير ، ووضع كل العلماء تحت المراقبة ، وأغلق الزوايا والتكايا وعندما ثار بعض أعضاء المجلس على اغتيال أحد المعارضين (على شكرى) وطالبوا التحقيق فى الجريمة فإنه أمر بحل المجلس ، وأنشأ حزب " الشعب " برياسته معتبرا نفسه نائبا عن الشعب.

أما قصص إقامة الأحزاب وتقويضها ، وصناعة الدمى السياسية من هياكل العبيد الجاهزة فى كل عصر ، وتشكيل المحاكم ثم إلغائها وفصل قضاتها والازدراء بالجماهير واحتقار شأنها ، هذه القصص تملأ أكثر من ٤٠٠ صفحة فى كتاب الرجل الصنم ، فضلاً عن أن تفاصيلها المأساوية مازالت محفورة فى أعماق الجيل المقهور الذى لحق بعصر " الانطلاقة العلمانية العظمى " (١) .

***

وهكذا سقطت تركيا معقل الخلافة العثمانية والدولة الإسلامية وانفرط عقد الشعوب الإسلامية المعقودة حباتها بها ، وتداعت الأكلة المنهومة الناقمة إلى القصعة الثرية .

---

(١) نقلاً عن جريدة الأهرام للأستاذ فهمى هويدى ، جزاه الله خير الجزاء .

وتداعت شعوب المسلمين ، التى كانت قد بدت عليها الشروخ من قبل وأعلنت الحماية الغربية الموتورة على شعوب المشرق والمغرب من شعوب الإسلام ، وعقدت اتفاقيات الغرب فى تقسيم ميراث الرجل المريض. وبالرغم من هذا السقوط المدوى لتركيا حيث تمزقت دولتها الإسلامية الكبرى أشلاء فإن الدجالين من سماسرة الغرب ودعاة العلمانية يروجون لهذا السقوط ويلبسونه ثوب " النهوض " هكذا .

وردا على هذه المزاعم يقول الأستاذ الدكتور محمد البهى :

(يلاحظ أن تركيا هى الدولة الإسلامية فى الشرق التى أعلنت العلمانية الغربية كأساس لسياستها الجديدة ، منذ تولى أتاتورك السلطة فيها بعد الحرب العالمية الأولى ، والسياسيون فى الغرب على الخصوص ومعهم المستشرقون فى بحوثهم وكتاباتهم يشيدون بتقدم صناعى علمى فيها ، ويعودون بأسبابه إلى دخول تركيا مجال الغرب بدون الإسلام ، ففصلها بين الإسلام ـ كدين ـ والدولة ، هو العامل فى نظرهم الذى قربها من الدولة المتطورة .

إن تركيا فى قبولها للعلمانية كانت مجبرة فى تسوية الصلح الذى دار وراء الكواليس مع الحلفاء ، بعد انتصارهم فى الحرب العالمية الأولى ، وقصد الحلفاء من إعلان تركيا العلمانية ، وفصل الإسلام عن الدولة وهى مركز الخلافة الإسلامية إلغاء الخلافة الإسلامية ، كأداة تجميع للمسلمين : عرب ، وعجم على السواء فى آسيا وأفريقيا ، إذ سيترتب على إلغاء الخلافة إمكان تمزيق المسلمين إلى عرب ينطقون بالعربية ، وغير عرب ينطقون بلغاتهم الوطنية ، وعندئذ يمكن التبشير بالقومية العربية كذلك لتوسيع الهوة بين المسلمين ثم لكى لاتكون للقومية العربية فاعلية بعد عزل العرب عن غيرهم من المسلمين ويلاحظ أن هذا وذاك ، كان مقدمة ضرورية لعزل فلسطين عن قلعتها تمهيدا لالتهامها) [1] .

---

[1] أنظر " العلمانية و الاسلام بين الفكر و التطبيق " ص٤٧ وما بعدها

ونحن لانتذكر ذلك لمحض المقابلة بين ذاتية وذاتية ، أو لمحض التأكيد على الذاتية الإسلامية ، وأننا اليوم فى معركة الجهاد الثقافى للمحافظة على هذه الذاتية ، بعد أن سقطت بالفعل القلاع المتقدمة ...

ولكننا نذكر مانذكر لنصل الماضى بالحاضر فى المعركة الدائرة .

ماضى الحروب الصليبية ، والقضاء على المسلمين فى الأندلس ، ثم القضاء على الدولة الإسلامية ، بحاضر الابادة البشرية التى تجرى فى فلسطين، والشيشان ، والبوسنة والهرسك ، ومايرتكب فى كل ذلك من فظائع همجية وحشية ، لاتقاس عليها أعمال التتار والبربر والعصور الوسطى ...

وخذ عينة صغيرة من فلسطين ...

(الصحفى الفلسطينى " باسم عيد " أعد بحثاً خاصاً لمركز حقوق الانسان فى إسرائيل " بيتسليم " نقل فيه اعترافات جندى مسرّح من الوحدات الخاصة اسمه " دانى " ، ومما جاء فى هذه الاعترافات :

" فى أحد الأيام أطلق صديقى الرصاص على شاب عربى حتى أخرج أمعاءه من بطنه ، وبعد أن سقط الشاب مضرجا بدمائه تقدمنا نحوه ، وإذا به ينزف ويبصق علينا ، قلت له : اخرس ، وبدأت أضحك ، وكأن هناك أحدا يدغدغنى ، ربطت جرحه ، وطلبت من أحد الجنود أن يضع له حجراً داخل جرحه لوقف نزيف الدم ، وعندما أخبرت أمى بهذه الحادثة بدأت بالضحك ..)

(جندى آخر يدعى " دودو " يرى أن المسئولية تقع على عاتق من وجهّه للقتل فيقول " يعطونك الاندفاع لتكون مفترسا ، ويصل بك الحد لتصلح مفترساً فعلاً بسبب العمل الذى تقوم به فتكون أنت إنساناً غير ذلك ، لكن العمل هو العمل ..

وماهى الوحدات الخاصة تلك ؟ هى وحدات شكلها الإسرائيليون فى نهاية عام ١٩٨٨ ، وأعلنوا عن وجودها رسمياً عام ١٩٩٠ وقد حدد الهدف الأساسى لهذه الوحدات باعتقال وتصفية الشبان الفلسطينيين المسلحين من

خلال نصب الكمائن لهم ، والتنكر بالزى النسائى ، أو زى السياح واللباس العربى ، ويستخدم جنود هذه الوحدات سيارات تحمل لوحات الضفة الغربية زيادة فى التضليل وحتى يتمكنوا من دخول القرى دون إثارة ريبة الشبان .

ويتسلى أفراد هذه الوحدات فى أوقات الفراغ بشراء الدجاج للتصويب عليه ، وبعد التسريح يفكرون بالذهاب إلى البوسنة للقتال ضد المسلمين ..(١)

ولنسمع إلى صحفى إسرائيلى ناقد لبعض التصرفات الإسرائيلية " أريبه شافيت " فى مقال له بجريدة " هاآرتس " نقلته وكالات الأنباء العالمية ولم تمنعه الرقابة الإسرائيلية العسكرية لعلها تريد بذلك تأكيد الزعم بأنها دولة ديموقراطية ..

يعلق أريبه شافيت على مجزرة قانا التى قتلت فيها القوات الإسرائيلية مايزيد على مائة مدنى فى هجوم مقصود على مقر قوات الأمم المتحدة فى لبنان فى " قانا " : ويزعم أنها تهاجم قوات المقاومة اللبنانية وحزب الله ، فيقول :

(إن مجزرة قانا تعبير فاضح عن بذرة فاسدة مزروعة فى الثقافة الإسرائيلية .. كيف قتلناهم بسهولة من دون أن يذرف دمعة واحدة ومن دون أن نشكل لجنة ، ومن دون أن نملأ الشوارع تظاهرات ...

لقد قتلناهم بفاعلية كبرى وكنا واثقين من أننا نعمل استنادا إلى حسابات باردة ومواقع عملية .

كانت ذريعتنا الكبيرة هى أن المسئولية لاتقع علينا وإنما على " حزب الله " لكنها ذريعة واهية ، ذلك لأننا عندما اتخذنا القرار بفتح النار بغزارة على المناطق السكنية فى جنوب لبنان – فى وقت لم يكن هناك أى خطر حقيقى يهدد إسرائيل - فإننا قررنا بذلك فى الواقع أن نسفك دماء عدد غير محدد من المدنيين الأبرياء .

---

(١) جريدة الخليج بالامارات ١٩٩٣/٥/٦ .

وعندما اتخذنا القرار باخراج نصف مليون شخص من منازلهم وبقصف من بقى منهم ، فى وقت لم يسقط فيه أى قتيل إسرائيلى ، فإننا قررنا بذلك فى الحقيقة أن نقتل العشرات منهم ...

إن ماجعلنا نصل إلى مثل هذه القرارات الدنيئة من دون أن نعتبر أنفسنا أوغادا هو أنهم بالنسبة إلينا غير موجودين .

قتلناهم ببساطة لأنه لم يكن من الأهمية بمكان بالنسبة لنا ألا نقتلهم ، لأن عدم قتلهم ليس فى سلم أولوياتنا ، لقد قتلناهم لأن الفارق الشاسع بين الطابع المهم إلى حد القداسة الذى نوليه لأرواحنا وبين الطابع قليل الأهمية لأرواحهم سمح لنا بقتلهم(١) .

إننا مقتنعون إلى درجة لاتقبل الشك بأن حياة الآخرين ليست بالأهمية التى نوليها لحياتنا طالما أن البيت الأبيض ومجلس الشيوخ ، وصحيفة نيويورك تايمز طوع بناننا .

ونحن نؤمن إيماناً مطلقاً بأنه طالما لدينا ايباك " مجلس المنظمات اليهودية " وبرونجمان " رئيس المؤتمر اليهودى العالمى ، وديمونة المفاعل النووى ، ويادفاشيم " نصب ضحايا المحرقة النازية ، ومتحف المحرقة ، فإن من حقنا أن نبلغ ٤٠٠ ألف شخص أن أمامهم ثمانى ساعات لاخلاء منازلهم ، ومن حقنا أن نتعامل مع منازلهم بعد انقضاء الساعات الثمانى كأهداف عسكرية ، ومن حقنا أن نلقى ستة آلاف قذيفة على المناطق الآهلة بالسكان والقرى والبلدان ، ومن حقنا أن نقتلهم من دون أن نشعر بأى ذنب .)(٢)

وماذا عن البوسنة والهرسك :

(يقول فوشتيك السفاح الصربى بالحرف الواحد فى حديثه لمجلة " دير شبيجل " :

---

(١) لاحظ الضغط الذى مارسته الولايات المتحدة الأمريكية على هيئة الأمم المتحدة لسحب قرارها باعتبار الصهيونية مذهباً عنصرياً .

(٢) جاء ذلك ضمن مقال للأستاذ عزت صافى بجريدة الخليج ١٩٩٦/٥/٢٣ .

" لقد قتلت وحدى مئات المسلمين ، وقمت شخصياً بإطلاق الرصاص على الأسرى المسلمين للقضاء عليهم " .

وعندما نبهته المجلة إلى المعاهدات الدولية التى تحرم قتل الأسرى قال :

" إنه لم يجد سيارات لنقل الأسرى فوجد أرخص طريقة أن يقتلهم بالجملة ، مثلما أجهز رفاقه الصرب على ٦٤٠ مسلما كانوا يختفون فى مخبأ.

وعندما سألته المجلة عن الهدف من الحرب ؟

قال دون تردد : هدفنا هو القضاء على المسلمين فالمسلمون فى أوربا يجب أن يختفوا كأمة . واستمر قائلاً :

وأنا أقتل كل قادر على الحرب من المسلمين ، ومن لا أقتله أقوم بحرق عينيه ... ونحن نلجأ إلى تهشيم أيدى الأسرى ببطء حتى يعترفوا بما نريد من معلومات ..)

هذا هو الفحش الإجرامى الذى يجرى على ملأ من دول تتحدث عن العدالة وحقوق الانسان وتحاكم هذا على نسف طائرة ... وهذا على خطف رهينة ... الخ بينما هناك عملية إبادة عرقية دينية ، وطرد جماعى لثلاثة ملايين مواطن من أراضيهم ، وقتل وتعذيب وحرق أكثر من سبعين ألف شهيد جهاراً نهاراً أمام تواطؤ عالمي ، وأمام دول .. تكتفى بالشجب والتصريحات ودول أخرى تخفى رءوسها فى الرمال ... والظلم على الضعفاء دوار ، ودورنا قادم فى الطريق .

أقول لهؤلاء إن دورنا قادم فى الطريق ، فالجنود التاميل يقتلون اليوم مئات المسلمين فى مذابح متصلة فى سيريلانكا ، والهنود يقتلون مسلمى كشمير ، والبورميون يذبحون مسلمى بورما بالآلاف ، والدبابات الروسية أعملت السلاح فى الجبهة الإسلامية... والترسانة العسكرية النووية والميكروبية والكيماوية - فى إسرائيل - تتربص لتصفية الإسلام من الكرة

الأرضـــية كلها فى المعركــة التى يبشر بها التلمـود والتى يسمونها معركــة " هرمجدون " [1] .

وتؤمن الحركة الأصولية المسيحية الصهيونية الأمريكية بهذه المعركة وهى حركة تضم - كما جاء فى موسوعة اكسفورد للعالم المسيحى الصادرة عام ١٩٨٢ - الأعداد التالية :

٢٤٠,١٥٧,١٠٠ مليونا على مستوى العالم .[2]

٧٤,٧٢٨,٠٠٠ مليونا فى أمريكا وحدها .

وقد حددت الحركة موعدا لهذه المعركة .

حددته فى عام ١٩٨٨ ، ولما لم يحدث حددت له عام ١٩٩٢ وعندما لم يحدث حددت له موعدا جديداً هو عـام ٢٠٠٠ م باعتبـاره النهايـة ، وبدايـة الألف عام الجديدة السعيدة ، التى يحكم المسيحيون فيها العالم وفقا لما جاء فى سفر أشعيا النبى ، والاصحاح الثالث عشر ، وهم قد كانوا يواظبون على قراءة هذا السفر ، وذلك الاصحاح ، يوميا أثناء حرب الخليج الثانية فى ١٧ يناير ١٩٩١[3] .

إن العجب كل العجب فينـا نحـن الذيـن نتلقـى هـذه الأخبـار والتقـارير بشىء من الاندهاش والاستغراب : الصدمة ازاء مزاعم عن التقدم والحضارة والرقى ، والحضارة الانسانية ، والمحافظة على حقوق الانسان .

كيف نندهش ؟

كيف نندهش وقد أخبرنا ديننا الحنيف بكل هذا الذى يحدث ؟

ألا يعنى هـذا الاندهـاش إثمـا فكريـاً أو معصيـة عقليـة ، تعنـى أننـا - لاشعوريا - أكثر تصديقاً لمزاعم عن حضارتهم منا لما أخبرنا به الرسول عن همجيتهم ؟!

---

(١) تحقيق : الأهرام ١٩٩٢/٩/٣٠ .

(٢) المسيحية والحرب للقس د . رفيق حبيب ص ١٩ .

(٣) المصدر السابق ص ١٩٧ .

(يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ...)

وإذا كان الرسول ﷺ قد أنذرنا بهذا الخطر فى صيغة يغلب عليها الخطر المادى ، فإنه وهو خطر الاستئصال ، يتضمن حتما خطر المحو .. الثقافى فى آخر المطاف .

معركة الثقافة .

معركة الذاتية .

وإن القرآن أنذرنا بما يسبق الخطر المادى ، ومايعقبه على السواء .

أنذرنا بالغزو الثقافى .

أنذرنا بغزو الذات ...

يقول تعالى ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم...** ﴾

ويقول تعالى : ﴿ **يأأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لايهدى القوم الظالمين .فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ماأسروا فى أنفسهم نادمين** ﴾ ٥٠ ـ ٥١ ـ ٥٢ المائدة .

ويقول تعالى :﴿ **يأأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لايعقلون قل ياأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون .** ﴾ ٥٧ ـ ٥٩ المائدة .

ويقول تعالى : ﴿ **يأأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا .** ﴾ ٤٤ النساء.

إن المقارنة بين أهمالنا لما أخبرنا به الله ورسـوله وبين مارسخ فـي وجدان البعض منا حول التقدم والرقى والقيم الإنسانية التى تأتى من الغرب... الخ هذه المقارنة تبين إلى أى حد وصلنا فى معركة الذات .

إنهـا تؤكد أننـا غـارقون إلـى الأذقـان تحت هزيمـة فكريـة ينبغـى أن نتخلص منها أولا قبل أن ندخل المعارك السياسية أو العسكرية .

إنه لاينبغى أن يغيب عن وجداننا أننا أمـام حملـة صليبيـة جديـدة أشـد ضراوة وأقوى تخطيطاً من جميع الحملات السابقة .

ذلك لأن الحملة الجديـدة أخذت تقدم لنفسـها بحـرب ثقافيـة استمرت طـوال هـذا القـرن اسـتهدفت محـو الذاتيـة الحضاريـــة الإســلامية ، بواســطة المبشرين والمستشرقين والمستعمرين والعملاء ، ووصلت إلـى قـدر ملحـوظ من النجاح فى عملية الاستئصال الثقافى الذى من شأنه أن يـؤدى إلـى النتـائج التى لم تصل إليها الحروب الصليبية من قبل فــى المشـرق وهـى نتـائج لاتقـل خطرا عن عملية الاستئصال التى نجحت نجاحاً كاملاً فى الأندلس مــن قبـل ، ولازالت تجر ذيولها فى شرق أوربا .

يقول الفيلسوف الفرنسى الشهير جان بول سارتر فى مقدمــة كتــاب " المنبوذون فى الأرض " :

(كنا نحضر أبناء السادة من أفريقيا وآسيا ونطوف بهم بضعة أيام فى لندن وباريس وأمستردام فتتغير ملابسهم ، ويلتقطـون بعـض أنمـاط العلاقـات الجديدة ، ويرتدون السترات والسراويل ، ويتعلمـون لغتنـا وأسـاليب رقصنـا وركوب عرباتنا ... ونلقنهم أسلوب الحياة ، على أثاث جديد ، وطرز جديدة ، من الزينة ، واستهلاك أوربى وغذاء أوربى كنا نضع فى أعماق قلوبهم أوربا ، والرغبـة فـى تحويـل بلادهـم إلـى أوربـا ، ثـم نرسـلهم إلـى بلادهـم ، حيـث يـرددون مانقولـه بـالحرف تمامـاً ، مثـل الثقب الـذى يتدفـق منــه المـاء فــى الحوض.

هذه أصواتنا تخرج مـن أفواههم ، وحينمـا كنـا نصمت كـانت ثقوب الأحواض هذه تصمت أيضاً ، وحينما كنا نتحدث كنـا نسـمع انعكاسـاً صـادقـاً وأميناً لأصواتنا من الحلوق التى صنعناها .

وكنا واثقين أن هؤلاء المفكرين لايملكون كلمـة واحـدة يقولونهـا غـير ماوضعنا فى أفواههم .

ليس هذا فحسب ، بل إنهم سلبوا حق الكلام من مواطنيهم !!! .)

ويقـول مسـتر بـيرغرين وورسـثورن فـى مقـال لـه بجريـدة الصنـداى تلجـراف فــى ١٩٧٨/١٢/١٧ ، بعـد أن يشــير إلــى إنهيـار الامبراطوريـة العثمانية:

(الأهم من هذه السـيطرة الماديـة كـان هـو المـدى الـذى تغلغلـت فيـه الأفكار والقيم الغربية إلى صميم الروح العربية ، حتى أنتجت جيلاً من النخبة المثقفة العربية المستعدة للتعبد فى الصوامع النصرانية طبعا ، بل فى صـوامـع العلم والتكنولوجيا التى أصبح الغرب نفسه يؤمن بهـا ، ذلـك أن هـذه الأصنـام الغربية الجديدة التى أثبتت قدرتها على نسف ايماننا بالمسـيح ستنسـف إيمـانهم بالله بالطريقة نفسها .)

ثم يدعو الغـرب إلـى القضـاء علـى الإسـلام ، ويحـذره مـن النهضـة الإسلامية قائلاً : (إن تشجيع الإسلام على القيام بنهضة تصل إلى نوع جديـد من الجهاد وجعله يفترض فى نفسه القدرة على النجاح فى ذلك دون أن تجابـه صلابته بصلابتنا سيكون معناه الحكـم علـى العـالم المسـيحى بمصـير خسـيس تعيس يجلبه على نفسه ، وعندئـذ سـيكون العـالم المسـيحى مسـتحقاً لمثـل هـذا المصير .)

ثـم يدعـو إلـى اسـتعمال كافـة الوسـائل التـى تحـول دون ذلـك ، وألا يستبعد أخيراً اللجوء إلى استعمال القوة المسلحة .

صميم المعركة الدائرة الآن ليس فى ظواهرها السياسية أو العسـكرية ولكنه فى أعماق مشكلة الذات الثقافية .

وهنا لم يتركنا الله ورسوله حيارى أمام الحل المطلوب .

وهو حل ثقافى فى المقام الأول وبخاصة بعد أن ذابت قلاع المقاومة المتقدمة .

إنه حل المحافظة على الذات .

حل المحافظة على التميز .

حل المحافظة على الخصوصية .

حل الغربة .

(بدا الإسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء .)

لكى نكون نحن :

ولكى نتهيأ لنصر موعود ليس لغير الذات الإسلامية .

ولكى نقدم للعالم شيئاً غير ماهو فيه ، مما بدت عوراته ، وانحلت قوائمه ، وأصبح على شفا جرف هار من انهيار مرصود .

يقول تعالى : ﴿ **أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ، ولايحض على طعام المسكين** . ﴾ .

تلك جميعا صفات الحضارة المسيحية اليهودية الإلحادية المعاصرة .

يدع اليتيم - فى غير احتفالات الشاشة التليفزيونية والدعاية النفاقية .

ومنه دع النسل ، وصده ، وبيعه أشلاء فى أسواق الطب الحديث .

ولايحض على طعام المسكين ، فى غير احتفالات الشاشة التليفزيونية والدعايات النفاقية .

ومنه التلهى بمجاعات العالم الثالث وردها إلى غير النهب الاستعمارى .

ثم تلتفت الآيات إلينا .

(فويل للمصلين ...)

نحن .

لماذا ؟ لأننا لانعمل بما يتفق مع هذه الصلاة .

وما الذى يتفق مع هذه الصلاة ؟

هو أن نهجر هؤلاء الذين يكذبون بالدين .

﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين . ﴾ ٦٨ الأنعام .

أن نزيحهم من ثقافتنا .

تقتضى صلاتنا منا أن نجعل قبلتنا هى القبلة الإسلامية .

لا أن نجعل قبلتنا هناك فى الغرب .

وإلا كنا نصلى غير مصلين .

وإلا كنا مسلمين غير مسلمين .

وإلا كنا مرائين .

(الذين هم يراءون ...)

ويمنعون العون .

يمنعون العون عن الآخرين .

ولكنهم أولاً يمنعون عن أنفسهم العون من الله .

يمنعون عن أنفسهم العون الذى من شأنه أن تمدهم به الصلاة لو أنهم يصلون .

لو أنهم يصلون غير مرائين .

لو أنهم يصلون إلى قبلتهم ، وليس إلى قبلة الحضارة المسيحية اليهودية الالحادية !!!

حضـــارة متداعيـــة

تمهيد :

ليس من شك فى أن المشروع الذى قامت عليه الحضارة الأوربية المعاصرة استبعد الدين تماماً[١] ، فما الذى قام بدور الدين فى هذه الحضارة ؟

هل قامت الفلسفة الأوربية بهذا الدور ؟

يقرر ألبرت شفيتزر أن الفلسفة الأوربية المعاصرة انصرفت عن القيام بدور إيجابى فى هذا المجال ، سواء على المستوى العالى من الفلاسفة ، أو على المستوى الشعبى من أتباعهم ، وذلك لأنها ـ أى هذه الفلسفة المعاصرة ـ تقلصت وانحسرت إلى مجالات ثلاثة :

١ – الفلسفة النقدية التى أسفرت عن الشك فى كل القيم العقلية والأخلاقية الراسخة .

٢ – اللهاث وراء العلم ، الذى أصبح فى نظر الفلسفة المعاصرة (هو الذى من حقه أن يقدم الحقيقة الواقعية ، وهو بعد ذلك إنما يقدمها ـ لا كحقائق ثابتة ـ ولكن كفروض ونظريات .)[٢]

٣ – الاستغراق فى دراسة ماضى الفلسفة ، حيث أصبحت الفلسفة من هنا مجرد علم يستخلص النتائج التى وصلت إليها العلوم الطبيعية والتاريخية حتى أصبحت الفلسفة عملياً هى تاريخ الفلسفة .[٣]

وبهذا أصبحت الفلسفة (خاوية من التفكير الحقيقى وراحت تتأمل فى النتائج التى وصلت إليها العلوم الجزئية ، لكنها فقدت القدرة على التفكير الأصيل .) [٤]

---

(١) وإن كان يلجأ إليه فى أغراض عارضة .

(٢) فلسفة الحضارة ص ١٤ .

(٣) المصدر السابق ص ١٦ .

(٤) المصدر السابق ص ١٧ .

يقول : ومنذ ذلك الوقت والأفكار الأخلاقية التى تقوم عليها الحضارة تجوس أنحاء العالم فقيرة لامأوى لها ، ولم تتقدم نظرية فى الكون لتسندها إلى أساس متين .) (١)

هذا لايعنى أنه ليست لهذه الحضارة إيجابيات شامخة :

فى مجال العلوم ، والتخصص ، والتكنولوجيا ، وتوزيع العمل ، والانتاج والتسويق ، والاستهلاك ، واختزال المعرفة (الكمبيوتر) واختزال الزمن والمكان ، وهى اليوم تتربع على عرش العلم ، وتملك قوة الذرة ، وتمشى على القمر ، وتجوب الفضاء وتزرع قلوب الموتى فى الأحياء ، وتصنع أجناساً جديدة من النبات والحيوان بالهندسة الوراثية ، وتفجر الطاقة الكهربائية من شعاع الشمس ، وتصنع السدود والأنفاق والكبارى مئات الكيلومترات ، وتحفر تحت المحيط أنفاقاً مثل المدن . (٢)

وبشىء من التحديد فإن إجمالى الناتج القومى فى أمريكا يبلغ أكثر من ٢٠٪ من إجمالى الناتج القومى العالمى ، وفيها أكبر عدد من أصحاب الملايين ، وأصحاب البلايين ، ففيها ٦٤ ألف مليونير ، و ٥٠٪ من إجمالى عدد أصحاب البلايين فى العالم ، ولديها قدرات نووية تدمر الكرة الأرضية ست مرات إذ تملك أكثر من ٢٥ ألف رأس نووى ، ولازالت هى الدولة الوحيدة فى العالم التى تنفق سنوياً ٢٨٠ مليار دولار ـ أى مليون دولار فى كل دقيقة على مدار السنة ـ على انتاج الأسلحة وتطويرها بكل أشكالها وأنواعها .(٣)

***

لكن تعالوا بنا نتجاوز هذه القشرة الخارجية لنلقى نظرة على الخواء الذى ينخر كالسوس فى عظام هذه الحضارة .

---

(١) المصدر السابق ص ١٤ .

(٢) أنظر مقال للدكتور مصطفى محمود بالأهرام ١٩٩٢/١٠/٣١

(٣) بحث للدكتور عبد الخالق عبد الله بجريدة الخليج فى ١٩٩٢/٩/٢١ .

يقول ألبرت شفيتزر : (إن الاتساع الرائع فى المعارف المادية والقوة لايكون جوهر الحضارة .) [1]

(وإن الأعمال المبتكرة : عقلية ومادية لاتعطى آثارها الحقيقية إلا إذا استندت الحضارة فى بقائها ونمائها إلى استعداد نفسى يكون أخلاقياً حقاً.) [1]

وأنه (إذا فقد الأساس الأخلاقى تداعت الحضارة حتى لو كانت العوامل العقلية والفنية والمادية تعمل عملها فى اتجاهات أخرى .) [1]

ثم يقول (إن مستقبل الحضارة يتوقف على تغلبنا على فقدان المعنى واليأس اللذين يميزان أفكار الناس ومعتقداتهم فى هذه الأيام ...

ولن يكون فى وسعنا ذلك إلا إذا اكتشف غالبية الناس لأنفسهم معنى أخلاقياً عميقاً راسخاً عن طريق نظرية أو عقيدة فى الكون .

وبغير مثل هذه التجربة الروحية العامة لاسبيل إلى المباعدة بين عالمنا وبين الانهيار الذى يغذ فى السير إليه .) [3]

وهاهو تشارلز فرانكل فى كتابه " أزمة الإنسان الحديث " يشير إلى أن كثيراً من فلاسفة العلم المعاصر مثل مرتيان ونيبور ومانهيم يتحدثون عن (التقدم الفكرى والعلمى - وهو أكبر مفخرة لما أتاه الانسان الحديث - على أنه مجرد أحبولة وخداع ، وأن هذا العالم الحديث قد أعطى مكاناً مركزياً فى الحضارة لجزء من الحياة البشرية ، ليس فى حقيقته سوى جزء صغير بالنسبة إلى الأجزاء التى تعمل على التقدم الإنسانى ، وإن حماسة كوندورسيه وجون ستيوارت مل للعلم الحديث وإيمانهما بالعلم وأملهما فى المستقبل تنبذ — الآن - على أنها أوهام قوم ، معرفتهم بالطبيعة البشرية مسطحة جداً ، مثل مفهومهم لإمكانات الحياة البشرية ومعضلاتها .) [3]

---

(١) فلسفة الحضارة ص ١ .

(٣) المصدر السابق ص ٧

(٣) أزمة الإنسان الحديث ص ١٥٢ - ١٥٣ ، وهذا يذكرنا بمدبر الحضارة الإسلامية (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .

ويقول البرت شفيتزر (لن نفلح فى بناء حضارتنا على أساس ثابت وطيد إلا إذا تخلصنا نهائياً من الفكرة السطحية عن الحضارة ـ هذه الفكرة التى نتشبث بها وتملك علينا أنفسنا ـ ثم نأخذ من جديد بالنظرة الأخلاقية ...)

ويقول (يجب أولاً أن نكون متأهبين للعمل الايجابى فى العالم والحياة ويجب ثانياً : أن نكون أخلاقيين .) (١) ثم يقرر أنه لاسبيل إلى اقناع الناس (بالأخلاق عن طريق الدعوة والوعظ بل لابد من أن تنشأ العقلية الايجابية الأخلاقية التى تنبع من نظرة عقدية تشمل الكون والحياة ...) (٢)

ثم يقول (هذا هو المصير الذى انتهينا إليه :

لقد فقدنا كل نظرية الكون .) (٣)

ثم يقرر حقيقتين هامتين : (أن طابع الحضارة أخلاقى فى أساسه وأنه لابد من ارتباط وثيق بين الحضارة وبين نظرتنا إلى الكون .) (٣)

ثم يقول (لم يكن ذنب الفلسفة أن الفكر المجرد لم يفلح أبداً فى بناء نظرية فى الكون ذات طابع متفائل أخلاقى ، إنما أذنبت الفلسفة فى حق هذا العصر بعدم اعترافها بهذه الواقعة وإصرارها على أوهامها ، وكأن فى ذلك فعلاً مايعين على تقدم الحضارة .) (٤)

حتى فى مجال تحرير الرقيق نجد الخواء ...

يقرر أرنولد توينبى أن المحرر قانوناً لم يكن أحسن حالاً من مملوك مسلم إذ يقول (بالنسبة لهذا المملوك فإن استرقاقه الشرعى قد يفتح له الطريق أمامه ليصبح سيد عدد من المحررين قانوناً ، أى المعتقين شرعاً ، إذ العتق يشمله هو أيضاً .)

ثم يقول : (والسود فى الولايات المتحدة الذين حرروا قانوناً فى سنة ١٨٦٢ لايزالون يشعرون إلى الآن ، وقد مر على تحريرهم أكثر من قرن ،

---

(١) فلسفة الحضارة ص ٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٦ ـ ٧ .

(٤) المصدر السابق ص ١٨ .

بأن الغالبية البيضاء من مواطنيهم لاتزال تنكر عليهم حقوقهم المدنية الكاملة ، وهم فى شعورهم هذا على شيء كثير من الحق [١]

ويقرر رشدى فكار أن الحضارة المعاصرة تفخر بانجازاتها على مستوى السلبيات :

١ - الحروب المدمرة الأولى والثانية [٢] .

٢ - تعدد وسائل الفناء للبشرية كأنما لاتكفى المتفجرات الذرية ، وإنما أضيفت إليها الهيدروجينية والكيماوية والبيولوجية .

٣ - عصر تشرنوبيل وماأحدثته من رعب بالتلوث الذرى وماحملته من سموم رياح الشمال القاتلة ووصلت أصداؤها إلى الجنوب ، وأتلفت آلاف الأطنان من المحاصيل والمنتجات .

٤ - عصر المضاربات التجارية ، ليس فقط فى البنيات الاقتصادية وإنما فى المستخرجات الطبية والصيدلية سعياً وراء الربح .

٥ - وتعدد أنواع الأدوية والسموم بحثاً عن الكسب ولو لحساب إفشال الكبد والكلى .

٦ - التلوث القيمى حيث يفاخر البعض بخروجهم على القيم والتقاليد والتنكر لكل رباط مقدس حتى المحرمات أبيحت باعتبار أنها مجرد (تابو)[٣] .

٧ - وأسست جمعيات [٤] لاباحة العلاقة مع المحارم .

٨ - كما أبيح الشذوذ الجنسى وشرع للعلاقة المثلية فى مجال الجنس .

---

(١) تاريخ البشرية ص ٢٤ الجزء الأول نشر الأهلية للنشر والتوزيع بيروت ١٩٨١ ترجمة د. نقولا زيادة .

(٢) وأضيف : والثالثة المستمرة من انتهاء الحرب العالمية الثانية ، فى البلاد الإسلامية ابتداء من مسلسل فلسطين إلى البوسنة إلى الشيشان .. الخ

(٣) نهاية عمالقة ص ١٣٢ .

(٤) وأضيف : وأقيمت مؤتمرات ، وصيغت قوانين .

٩ - وأصبح موكب الفضائح الأخلاقية بما فيه من رشوة وجنس وعلاقات جنسية ، علنياً ، على كل المستويات ، وأصبح قاسماً مشتركاً لاينفصل عن العظمة [١] !!

١٠- وأصبح المنتحرون على مستوى كبار الأدباء ، والقادة والمتخصصين فى الدراسات النفسية والاجتماعية والانثروبولوجية من أمثال : جاكوب مورينو ، وجان لوفيقر وهمنجواى ، ومارياكالاس ، وداليدا ... إلخ .

وقامت المراهنة الصناعية على دعائم فاسدة من :

تلوث البيئة بافتقاد سلامة الجو ،

وتلوث الجسد بالكيماويات ...

وتلوث العلاقات الاجتماعية ، بأمراض الجنس والايدز .

وتلوث العلاقات القومية بالفتن والقلاقل وبرك الدماء ؛

وتلوث العلاقات السياسية والاقتصادية بالزيف والغش والمضاربة :

حيث أعطيت لها أسماء التكتيك والاستراتيجية ومناطق النفوذ .

وصارت حضارة العقل التى قدمت اللامعقول على حد تعبير برتراندرسل . [٢]

***

وإذا كان الردع النووى الذى يحتكره كبار السدنة فى هذه الحضارة هو الذى يؤجل انهيار المعبد على رءوس الجميع فهل بقى فى المعبد رادع أخلاقى أو عقلانى يمنع انفلات الكارثة النووية الشاملة ؟

وماذا تكون هذه الكارثة المحتملة والتى إن لم تقع فإنها تؤثر سلبياً بمجرد احتمال وقوعها .. ؟

ماذا تكون هذه الكارثة ؟

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٧ .

سؤال طرحته منظمة الأمم المتحدة على عشرة من كبار العلماء فى العالم - من بينهم أ. الدكتور محمد عبد الفتاح القصاص - واستغرقت الدراسة حوالى عام ، وتم تسليمها إلى بيريز دى كويلار السكرتير العام للأمم المتحدة آنذاك .

وكانت نتائج الدراسة على النحو التالى :

١ - سوف يموت فى الساعات الأولى مابين ٢ إلى ٣ بليون شخص .

٢ - ٢ بليون آخرون ينتظرهم شتاء نووى مظلم تنخفض فيه درجة الحرارة إلى مابين ٢٠ - ٢٥ درجة تحت الصفر .

وفى نهاية الشتاء النووى المظلم وبعد أن تتقشع غمامة الدخان الأسود هناك مرحلة تساقط الغبار الذرى .

٣ - تنشأ - عن قنبلة ذرية عادية - عاصفة سرعتها ٧٥٠ كيلومتراً ، وتدمر أى مبان - مهما كانت قوتها - فى بؤرة التدمير .

٤ - الموجة الحرارية الناشئة عن طاقة القنبلة تكفى لاشعال حرائق تصل درجة حرارتها إلى مئات الدرجات المئوية .

٥ - تحدث نبضة ألكترو مغناطيسية تكفى لتعطيل كل الاتصالات السلكية واللاسلكية ، وتدمير كل الأجهزة الالكترونية فى قارة أوربا [١] .

وبغير الردع النووى ماذا صنعت - بالفعل - هذه الحضارة ؟

يعلق الفيلسوف الفرنسى روجيه جارودى على ضحايا الحضارة المعاصرة فيقول :

(لقد أطلق مؤرخونا بحق اسم الغزوات البربرية على الأهرامات التى بناها تيمورلنك بسبعمائة ألف جمجمة بعد احتلاله أصفهان .

فماذا نقول عن إبادة ملايين الهنود الحمر فى أمريكا على يد الفاتحين الأوربيين أصحاب المدافع ؟

---

(١) الأهرام ص ٣ ، ١٩٨٨/١٠/٩ .

وماذا نقول عن "تخريب أفريقيا بانتزاع حوالى عشرين مليوناً من سكانها السود مما يعنى أن عدد الضحايا بلغ مائتى مليون إذ كان أسر كل أسير يكلف قتل عشرة أفراد .

بل ماذا نقول عن مذابح آسيا وحرب الأفيون ؟ والمجاعات التى فتكت بملايين الهنود بفضل الاستعمار وفرض الضرائب ؟

وماذا نرى فى ضحايا الحرب العالمية الأولى والثانية ؟

وماذا نرى فى قنبلة هيروشيما ؟

وماذا نرى فى حرب فيتنام ؟

وماذا نرى فى ضحايا فلسطين ؟

ولماذا نسمى فى عالمنا اليوم النظام العالمى للسيطرة الغربية ، هذا النظام الذى أنفق أربعمائة وخمسين ملياراً من الدولارات على التسلح عام ١٩٨٠ وتسبب فى العام نفسه فى موت خمسين مليوناً من البشر فى العالم بسبب لعبة المبادلات التجارية ؟

وهكذا - يقول جارودى - يعتبر الغرب إلى أبد الآبدين أكبر مجرم فى التاريخ .) (١)

***

وماذا عن العنف العالمى الذى تصنعه هذه الحضارة ؟

يلاحظ المراقبون السياسيون ان العالم الغربى يشهد تياراً من العنف لم يسبق له مثيل منذ نهاية الحرب الباردة ؟

الحروب الأهلية فى الاتحاد السوفيتى السابق .

وحرب الابادة فى البوسنة والهرسك .

والحروب التى تجرى فى المدن بين عصابات الشوارع : فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانيا ، وإيطاليا والمانيا وفرنسا واليابان ،

---

(١) مايعد به الإسلام ص ٣٧ - ٣٩ .

والتى تنظمها منظمات على أعلى مستوى من السيطرة والتحكم والادارة والمال . (١)

وهل أغنت المظلة النووية عنهم من الله شيئاً ؟!

إن الاتحاد السوفيتى تبدد وهو مسلح نووياً ، وكما يقول الدكتور مصطفى محمود (ماتت روسيا وهى واقفة بدون حرب ، وعلى ظهرها حمولة من القنابل الذرية تكفى لنسف الكرة الأرضية وفى الفضاء تدور سفينتها العجيبة " مير ") .

ثم يقول (وسوف يسقط العملاق الغربى بنفس الداء ، ودون أن يطلق عليه المسلمون (!!) رصاصة واحدة .

سوف يموت من الداخل ، هذه المرة بمرض مختلف : اسمه الترف ، والوفرة والشبع ، والتخمة ، وعبادة الشهوات ، والغرق فى الملذات .

هذه المرة الميكروب : اسمه البطالة ، و المخدرات ، والجريمة المنظمة والمافيا ، وعجز الميزان التجارى ، وصراع العملات ، وكساد السوق ...

وكعادة كل حضارة مترفة ازدهرت فنون الانحلال ، وسينما العنف ، ومسرح العبث ، وغناء العهر ، وروايات الجنس التى تخلف البلادة والاكتئاب.

ثم سر المكروبات : غرور القوة الذى يورث التمرد على كل شىء ، حتى على الخالق وقوانينه وسننه ، فنراهم يقننون الشذوذ ، ويحتفلون بزواج الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، وينظر قضاؤهم فى مشاكل هذا الزواج من النفقة والحضانة والميراث وكأنهم يخرجون لسانهم لحكمة الخالق التى أعمرت لهم الأرض فراحوا يخربونها بهذا الزواج العقيم ، ويحتفلون بهذا العقم ، ويتبادلون التهانى .)

كل ذلك يهون ، أو يقاس - مع الفارق - على آثام حضارات تداعت من قبل .

لكن : هل من قياس لما تصنعه هذه الحضارة من كارثة للأرض : كوكباً ضمن المنظومة الفلكية ؟!

---

(١) الأهرام ١٩٩٢/٩/٣٠ ص ١ .

كارثة الأرض

تمر الحضارة المعاصرة اليوم بمنحنى خطير فيما يتعلق بشئون البيئة يهدد بما يطلق عليه : " مأساة الأرض " - ككوكب صالح للسكنى .

إن مشكلة البيئة اليوم وصلت إلى مستوى الوصف القرآنى لها فى قوله تعالى : ﴿ **ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس لعلهم يرجعون** . ﴾ ٤٢ الروم .

إن الأخطار التى تهدد البيئة اليوم لم تعد أخطاراً محلية يمكن أن يقتصر ضررها على وطن ، أو إقليم ، أو قارة بعينها ولكنها أخطار تهدد بيئة الأرض كلها .

إنها أخطار تأتى على مستويات متدرجة :

فهناك أخطار تبدو ذات طبيعة محلية كالتى تتسبب فيها الفضلات ودفن المخلفات بطريقة غير مشروعة ، ولكنها تعم فيما بعد .

وهناك أخطار تبدو ذات طبيعة إقليمية كالتى تحدث بسبب الأمطار الحمضية ، وتلوث مستودعات المياه الجوفية ، وانسكاب كميات كبيرة من النفط ، ثم تعم كذلك .

وهناك فئة جديدة من المشاكل البيئية ، تؤثر فعلاً - من بداية الأمر - فى النظام البيئى العالمى ، مثل زيادة كمية الكلوروفلورفى الغلاف الجوى ، الذى زاد فى الأربعين عاماً الماضية بنسبة ٦٠٠٪ ، ومشكلة الاحترار العالمى الذى يعد خطراً استراتيجياً والذى تسببه زيادة غاز ثانى أكسيد الكربون - وغيره من الجزئيات التى تمتص الحرارة - بنسبة ٢٥٪ منذ الحرب العالمية الثانية ، حيث تشكل هذه الزيادة خطراً حقيقياً على التوازن المناخى لكوكب الأرض .

وهناك العمليات التى يتم بها قطع الغابات ، وتجفيف البحيرات ، وتحويل الأنهار ، والنفايات ، والتلوث النووى ، وتهديد التنوع الحيوى.. إلخ.

ومن الملاحظ أنْ كبار الخبراء والباحثين قد أدركوا عمق المأساة التي تنحدر إليها الأرض فى هاوية البيئة .

يقول بارى كوموز ـ كما ينقل عنه الأستاذ راشد الحمد ومحمد صبارينى[1] - فى كتابه الشهير الدوامة :

(أنقذوا الانسان من الموت المؤكد ، ساهموا فى مكافحة التلوث ،

إن مدينة قبائل البوشمن فى وسط إفريقيا هى أرقى من مدنية الانسان المعاصر فى البيئة المرفهة الأمريكية) [1] .

وتقول الدكتورة هند صادق أستاذة علم طبقات الجو العليا والتلوث فى واشنطن .

(إن الانسان القديم كان متفاعلاً مع الطبيعة ومع كل مظاهر الحياة من حوله .

أما مايفعله أحفاده اليوم ، فهو تدمير كل ماهو جميل ، وخير وطيب ، فى هذه الأرض التى نحيا عليها .)[2]

ويقول الأستاذ الدكتور طلبه عويس فى دراسة له نشرت بكتاب بعنوان ترجمته (من أجل الحفاظ على الأرض) مع الدكتورة هند وآخرين : (إن الانسان ابن الطبيعة قد طعنها فى مقتل .)

وفى الكتاب نفسه يقول البروفيسور أرفنج سبنتزر الأستاذ بمعهد أبحاث المناخ الأمريكى : (إنه فى انتظار الانسان كوارث عديدة نتيجة ثقب الأوزون ، فى مقدمتها تحرك حزم الأمطار من مكان لآخر ، إلى جانب ارتفاع درجة حرارة الجو ، مابين درجتين وخمس درجات ، وهذا يعنى جفافاً وتصحراً فى موجات متتالية تقضى على كل مظاهر الحياة فى إفريقيا ، بل إن

---

(١) انظر كتاب " البيئة ومشكلاتها " للمؤلفين ص ١٩٩ نشر عالم المعرفة بالكويت .
(٢) انظر جريدة الأهرام ١٩٨٩/١٢/٢٣ .

موجة الجفاف وصلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية نفسها فانخفض انتاج القمح والذرة فى وسط غرب أمريكا ...

وانخفض منسوب مياه نهر المسيسبى - أطول نهر فى العالم – بمقدار ستة أمتار) [1] .

وتُظهر صور الأقمار الصناعية للمناخ فى أوربا الشرقية كتلاً كثيفة سوداء من الغازات والأتربة الصناعية تنتشر فوق مصانع المانيا الشرقية ، وتشيكوسلوفاكيا وتغطى بولندا بأكملها .

وفى بولندا بالذات أصاب التسمم كى شىء : الجو والتربة والماء والناس .

وتتعرض أوربا الغربية أيضاً وبخاصة فى المناطق السياحية بجبال الألب لأزمة بيئية نتيجة الأمطار الحمضية والتلوث النووى .

وقارة إفريقيا توشك ألا تصلح للحياة بسبب التلوث والجفاف ، وهناك خمسون مليوناً من البشر يعيشون فى أراض متصحرة تهددهم المجاعات كل عام وينتشر القحط فى افريقيا بمعدل ٢,٣ مليون متر مربع سنوياً .

وفى الصين كلما هبت الرياح فوق المدن الصناعية انتشر دخان أحمر وأسود ليغطى الأراضى .

وفى البرازيل احترقت ملايين الأفدنة من غابات الأمازون الشهيرة التى تعتبر رئة للكرة الأرضية .

ويقول بعض الباحثين : إنه فى العاصمة المصرية - القاهرة – أصبح تنفس الهواء لايقل خطورة عن تدخين علبتى سجاير يومياً . [2]

***

إن الأرض كلها هى التى تمر اليوم بالمأساة .

---

(١) الأهرام ١٩٨٩/١٢/٢٣ .

(٢) الأهرام ١٩٩٠/٤/٢٧ .

وإن من التعتيم على حجم هذه المأساة أن يتحدث عنها البعض فى مستوياتها الأدنى ، ويحملوا المسئولية لأقل العوامل أثراً فى تدمير البيئة .

وإن من التعتيم أن يساير الخبراء خضوع الأفراد والجماهير للخدر النفسى الذى أصابهم تجاه هذه القضية ، وبالتالى تجاه أسبابها الرئيسية .

إن حجم المشكلة وصل إلى حد الوصف القرآنى لها فى قوله تعالى :

﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون . ﴾ ٢٤ - ٢٥ يونس .

إن التعتيم على مشكلة البيئة يجرى على قدم وساق حتى فى أكثر البلاد ديموقراطية وانفتاحاً فى وسائل الإعلام .

لحساب من يجرى هذا التعتيم ؟

لحساب اشاعة جو من التفاؤل بدلاً من اليأس ؟

نتفاءل ؟ نعم .

ويجب أن نتفاءل ؟ نعم .

ولكن يجب أن يكون تفاؤلنا صحياً وغير ملوث أيضاً .

أى يجب أن يكون مبنياً على الحقائق ، أما إذا بنى على الأكاذيب ، أو حجب الحقائق فإنه سرعان ماينهار ويأتى بأوخم العواقب .

إننا نتفاءل ولكن من خلال الحقائق ، ولو ذهبنا إلى التفاؤل بعد خوض أقصى حالات اليأس ، فاليأس حر فى بعض الأحيان ، وحافة اليأس يمكن أن تلامس عند النهاية حافة التفاؤل ، إذا ماارتبط التفاؤل بالرجوع إليه سبحانه ﴿ **إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾ .

تفصيل الحقائق عن مأساة البيئة :

فيما يلى صورة مفصلة عن الأخطار التى تهدد البيئة ، تساعد على تصور حجم المشكلة ، نعتمد فى إبرازها على دراسة عالمية حديثة لهذه القضية ، جاءت فى كتاب (الأرض فى الميزان ، الايكولوجيا وروح

الانسان) لآل جور ، نائب رئيس الولايات المتحدة ، قام بها فريق كبير من الخبراء والباحثين بقيادته ، وترجمت إلى اللغة العربية ، وأصدرها مركز النشر والترجمة فى الأهرام بالقاهرة عام ١٩٩٤م .

(١) **مشكلة القمامة** : وهى تتمثل فى تيار عارم من القمامة يتدفق بكميات هائلة لم تعد الأرض قادرة على استيعابه كما يؤكد خبراء البيئة .

ويكفى أن نتأمل مثالاً لذلك فيما يسببه نمط الاستهلاك فى العالم المتحضر ، وبخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية .

فمن الفضلات الصلبة التى تفرزها المدن الحديثة هناك يتم توليد مايزيد على طن واحد لكل شخص فى الولايات المتحدة الأمريكية كل عام .

ثم هناك الفضلات الصلبة التى تنتجها المصانع ، وهى تتم بمعدل طن أسبوعياً لكل فرد فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وهناك الفضلات الغازية المستمرة فى الانبعاث إلى الغلاف الجوى ، والذى يتم بمعدل عشرين طناً سنوياً من ثانى أكسيد الكربون لكل شخص فى أمريكا .

والمحصلة النهائية لحجم الفضلات فى هذه الأنواع الثلاثة تشير إلى أن كل شخص فى الولايات المتحدة الأمريكية ينتج من الفضلات يومياً مايزيد على ضعف وزنه .

ويواجه الانسان المعاصر هذه المشكلة بقدر كبير من خداع النفس ، حيث يفترض خطأ أن المواد التى تستهلك تختفى آثارها بمجرد استخدامها ، بينما الحقيقة أنها تتحول إلى فضلات فى نهاية الأمر .

وتتضاعف المشكلة فى ظل القيم الحضارية التى تفترض أن معدلات الاستهلاك العالية هى العلامة المميزة للمجتمع المتقدم .

ومن هنا فإن شهية الحضارة المعاصرة تنفتح لالتهام كميات هائلة من الأشجار والفحم والبترول والمعادن وآلاف المواد التى تنتزع من أماكنها ، ثم تقوم بتحويلها إلى منتجات من كل شكل ولون ، وإلى سلاسل جبال هائلة من الفضلات .

وبالمعدل الحالى فإن الانتاج العالمى من المواد الكيمائية التى يستهلكها العالم المتحضر يتضاعف الآن فى الحجم كل سبع سنوات .

وفى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها يوجد مايقدر بنحو ٦٥٠ ألف مصدر تجارى وصناعى للفضلات " الخيرة " كما يتم انتاج كميات هائلة من ملوثات المعادن مثل : الرصاص والزئبق والنفايات النووية .

ويعتبر الخبراء أن حجم القمامة فى الولايات المتحدة أصبح كبيراً لدرجة أنهم لايجدون مكاناً يضعونها فيه ، وأن تراكم القمامة أصبح خارجاً عن السيطرة تماماً ، لدرجة أن الولايات المتحدة بدأت فعلاً فى شحنها إلى البلاد الأكثر فقراً ، خارج الحدود القومية ، الأمر الذى دعا أحد زعماء إفريقيا إلى إعلان استنكاره لما سماه امبريالية القمامة ، وهو استنكار يشاركه فيه زعماء آخرون من أعضاء منظمة الوحدة الإفريقية [١] . وحيث أصبح ينظر الآن إلى افريقيا باعتبارها المضيفة الرئيسية للمواد السامة [٢] .

وإذا كان البعض يحاول التخلص من القمامة بحرقها - حيث توجهت استثمارات ضخمة إلى هذا السبيل بلغت حوالى عشرين مليار دولار فى وقت من الأوقات - فإن بعض الخبراء ينظر إلى هذه الوسيلة على أنها غير مجدية وتزيد الطين بلة ، فطبقاً لفريق البحث التابع للكونجرس فإن تلوث الهواء الناتج عن أفران حرق القمامة ، يحتوى على غازات وملوثات أكثر خطراً ، مثل الزرنيخ والكوبالت ، والرصاص ، والزئبق ، وأنه إذا ماستمرت عمليات حرق الفضلات فإن كمية الزئبق المتصاعد عن هذا الطريق تضيف ملايين الأرطال من الزئبق إلى النظام البيئى ، وكما هو معروف فإن الزئبق لايتحلل فى البيئة ولكنه يتراكم ويتركز بكميات متزايدة فى الحيوانات ، ومنها الأسماك التى يتم صيدها فى البحيرات والأنهار ، والنتيجة النهائية المترتبة على حرق الفضلات هى تحويلها إلى صورة غازية تنتقل عبر الهواء إلى المجتمعات

---

(١) انظر جريدة الأهرام ١٩٨٨/١١/٢ .

(٢) جريدة الاتحاد ١٩٨٨/١٠/٣ .

المجاورة حيث تسافر عبر حدود الدول ، ثم تصل بالضرورة إلى الغلاف الجوى لكوكب الأرض بأسره .

هذا وبينما عمليات الحرق تصدر إلى الجو ٩٠٪ من حجم الفضلات فإن الحجم الباقى وقدره ١٠٪ يكون فى صورة رماد عالى السمية ، أكثر خطورة من كمية الفضلات الأكبر حجما قبل الحرق .

أما أسلوب " إعادة التدوير " أى إدخال الفضلات فى عجلة الانتاج مرة أخرى ، فإن كثيراً من الخبراء وجدوا أن المنتجات التى تصنع عن هذا الطريق ، لاتجد الاقبال من المشترين ، فضلاً عن أن بعضها لايقبل هذه المعالجة ، وإذا فإن إعادة التدوير تظل أقل كثيراً من عمليات الحرق فى الأفران [1] .

(٢) **تلوث الهواء** : يقول بعض خبراء البيئة : إن أوصال العالم ترتعد فزعاً من مستويات التلوث التى لايصدقها عقل ، وبالذات تلوث الهواء على مستوى العالم كله .

وعلى سبيل المثال فإنه فى بعض المناطق فى بولندا يؤخذ الأطفال بصفة منتظمة إلى مناجم عميقة تحت الأرض لمدة من الوقت يريحون فيها صدورهم من الغازات المتراكمة ، والتلوث الذى يملأ الهواء بكل أنواعه .

ولقد لاحظ زائر لأحد المدن الرومانية تسمى (كوسباميكا) أو (المدينة السوداء) : أن الأشجار والحشائش ملطخة بالدخان إلى حد أنها بدت كأنها مشربة بالمداد .

وذكر أحد الأطباء المحليين هناك أنه حتى الخيول لاتستطيع البقاء فى تلك المدينة لأكثر من عامين ، وبعد ذلك لابد من أخذها بعيداً وإلا لقيت حتفها وبين الأطراف الشمالية من تشيكوسلوفاكيا فإن الهواء ملوث بدرجة خطيرة حتى إن الحكومة تدفع فعلاً حوافز مادية لمن يواصل العيش هناك لأكثر من

---

(١) انظر كتاب (الأرض فى الميزان) لنائب الرئيس الأمريكى " آل جور " ترجمة د . عواطف عبد الجليل من ص ١٤٩ إلى ص ١٧١ .

عشر سنوات . ويقول عن تلك الأموال إنها " تكاليف الدفن " وفى أوكرانيا فإن القدر الذى تضيفه الصناعة من الجسيمات الدقيقة العالقة فى الهواء يعادل ثمانية أمثال ماتضيفه الولايات المتحدة الأمريكية بكاملها .

وتعانى مدينة مكسيكوسيتى يومياً من أقسى درجات التلوث الهوائى على مستوى مدن العالم بأسره ، وعندما تستعمل المداخن العالية فى تلك البلاد لتقليل تلوث الهواء على المستوى المحلى فإنها تساعد على تفاقم المشكلة على المستوى الإقليمى ، حيث يتمثل ذلك فيما يسمى الأمطار الحمضية عالميا الأمر الذى يؤكد أن تلوث الهواء يصل من شمال أوروبا إلى المنطقة القطبية وينتقل إلى كل بقعة فى الأرض (١) .

(٣) **ثقب الأوزون** : إن غاز الأوزون وهويدخل كطبقة هامة فى تركيب الغلاف الجوى للأرض يعمل على حماية سطح الأرض من سقوط الكميات الضارة للأشعة ذات الموجة القصيرة (فوق البنفسجية) .

ومن الملاحظ أن هذه الطبقة من الأوزون أخذت تتآكل بسبب تصاعد غاز الكولوروفلوروكربون الذى يتزايد انتاجه بكميات هائلة فى الصناعات الحديثة .

ومن هنا فإن هذا التآكل أخذ يسمح لمزيد من الأشعة فوق البنفسجية بأن ترتطم بسطح الأرض ، وتصطدم بكل الأحياء ، ومن بينها أنواع كبيرة من النباتات التى تستهلك كميات هائلة من غاز ثانى أكسيد الكربون ، الذى أخذ يتزايد هو أيضاً ، مما يهدد بمشكلة كبرى نتحدث عنها فيما بعد هى مشكلة الاحترار ، وقد أخذ الانسان يتأثر هو أيضاً بالزيادة فى الأشعة فوق البنفسجية .

ومن أسوأ العواقب المترتبة على تلك الزيادة : سرطان الجلد ، ومرض اعتمام عدسة العين (الكاتاراكت) وكلا المرضين يزدادان انشاراً ، وبالذات فى مناطق بنصف الكرة الجنوبى مثل استراليا ونيوزيلندا ، وجنوب أفريقيا ، وفى كوينزلاند بشمال شرق استراليا ـ على سبيل المثال ـ فإن أكثر

---

(١) الأرض فى الميزان لآل جور ص ٨٥ ـ ٨٧ .

من ٧٥٪ من السكان الذين بلغوا الخامسة والستين من العمر مصابون الآن بنوع من سرطان الجلد .

والأطفال مطالبون هناك بحكم القانون بأن يرتدوا قبعات كبيرة ووشاحا حول العنق خلال ذهابهم للمدرسة والعودة منها ، لتحميهم من الأشعة فوق البنفسجية ، وفى إقليم بتاجونيا يقول الصيادون إنهم يعثرون على أرانب فاقدة البصر ، وأسماك عمياء .

وبالنسبة للانسان فإن زيادة معدلات الأشعة فوق البنفسجية ـ وبالاضافة لأمراض الجلد والعيون ـ تثبط جهاز المناعة وتعجل بظهور الأمراض الجديدة المتعلقة بهذا الجهاز [1] ، ومنذ اكتشاف ثقب الأوزون وهو يزداد عمقاً واتساعاً ، وهو يغطى حالياً فى الغلاف الجوى مساحة تعادل ثلاثة أمثال مساحة الولايات المتحدة الأمريكية .

(٤) نقص التأكسد : وذلك أنه فى الظروف العادية ينظف الغلاف الجوى نفسه ـ بسنة الله فى الطبيعة ـ من الملوثات من خلال عملية تعرف بالتأكسد ، حيث تتفاعل المواد والغازات الضارة مثل الميثان وأول أكسيد الكربون مع منظف طبيعى إلهى يعرف باسم الهيدروكسيل ، واليوم فى ظل الحضارة الصناعية فإن الانسان يدفع بكميات هائلة من غاز أول أكسيد الكربون فى الطبقات العليا من الجو ـ من خلال عمليات حرق الوقود وحرق الغابات ـ لدرجة أن حجمه أصبح طاغياً بالقياس إلى الكمية المتاحة فى الطبيعة من الهيدروكسيل ، وبهذا تتزايد كميات أول أكسيد الكربون وغاز الميثان فى الغلاف الجوى بسرعة كبيرة ، وأصبح له دوره الفعال بين الغازات الأخرى المسببة لظاهرة الاحترار ، وهنا يأتى الخطر الاستراتيجى العالمى ، ألا وهو ظاهرة الاحترار وهو الأشد خطورة على الإطلاق ، على مستوى الكرة الأرضية كلها .

(٥) ولب المشكلة فى ظاهرة الاحترار هو أن الحضارة الحديثة ـ طبقا لخطوات التقدم الصناعى ـ تضيف إلى الغلاف الجوى العديد من

---

(١) الأرض فى الميزان ص ٨٩ ـ ٩٠ .

الغازات التى تجعل الغلاف الجوى أكثر سُمكاً بدرجة كبيرة ونتيجة لذلك فإنه يحتجز المزيد من الحرارة ، التى كان من المفروض ـ فى ظل موازين الله ـ أن تخرج من جو الأرض فى الأحوال العادية السابقة .

فى السابق كانت تحدث تغيرات فى حرارة الأرض على مدى عصور جيولوجية طويلة ، فعلى سبيل المثال كان ما يعرف الآن بمدينة نيويورك يقع فى العصور الجليدية تحت ارتفاع كيلو متر كامل من الجليد ، كانت هذه التغييرات تحدث بحكمة الله وعنايته وقدرته ورعايته على مدى آلاف السنين .

أما التغيرات التى يتوقعها الخبراء بفعل الإنسان المعاصر فإنها من المنتظر أن تحدث خلال عمر فرد واحد ، ومعنى هذا أنه عندما كانت التغيرات تحدث بسنة الله ، ودون تدخل الإنسان ، كانت الفرصة متاحة للإنسان للتكيف ، ولكنه لم يحدث فى تاريخ الإنسان أن أضطر للتكيف مع تغيرات هائلة فى عمر جيل واحد .

إن الإنسان منذ بداية الثورة الصناعية ينتج كميات متزايدة من ثانى أكسيد الكربون ويدفعه إلى الغلاف الجوى ، حيث ارتفعت نسبته فى الجو من : ٣٠٠ جزء من المليون فى تاريخ الأرض سابقاً إلى ٦٠٠ فى المليون منذ الحرب العالمية الثانية إلى اليوم ، وسوف تتضاعف هذه النسبة كما يتوقع الخبراء ... إذا سارت الأمور على ما هى عليه خلال أقل من الخمسين عاماً القادمة .

وذلك بسبب عمليات الاحتراق فى الفحم والبترول والغاز الطبيعى والبنزين والتدمير السريع للغابات [1] ، ومن المؤكد أن هذه الزيادة فى مستويات ثانى أكسيد الكربون ـ الذى سيظل محبوساً فى الغلاف الجوى للأرض ـ تؤدى إلى زيادة ملحوظة فى مستوى الحرارة للكرة الأرضية .

---

[1] الأرض فى الميزان لآل جور صـ ٩٥ ـ ٩٧ .

والخطر هنا لا يكمن فى ارتفاع درجة الحرارة بضع درجات قليلة ، ولكنه يكمن فى أن هذا الارتفاع سوف يؤدى إلى الإطاحة بالنظام المناخى للعالم كله دفعة واحدة .

لقد تعودنا أن نتقبل الطقس كحقيقة قدرية ، ولكن من هذه الحقيقة أيضاً أن المناخ يؤدى وظيفته فى إطار حالة من التوازن الإلهى على مستوى الفصول والأقاليم .

وهنا يأتى الاحترار العالمى الذى يتسبب فيه الإنسان المعاصر ليحمل من المخاطر ما يفوق كثيراً إضافة درجات قلية لمتوسط درجات الحرارة ، إنه يهدد بتدمير التوازن المناخى الذى عرفته الإنسانية من قبل .

وعندما يتغير النمط المناخى للعالم فإنه ستتغير أيضاً تحركات الرياح والأمطار ، ونوبات الفيضان ، والجفاف والمراعى والصحارى والحشرات والحشائش ، وفصول الرخاء والمجاعة ، ومواسم الحرب والسلام .

والخطر الذى يترتب على اختلال النظام المائى على ظهر الأرض لا يتوقف على الاضطراب الشديد فى إعادة توزيع الموارد المائية العذبة ، وإنما يتعداه إلى خطر استراتيجى ثان : هو ذوبان الجليد ، ومن ثم ارتفاع مستوى سطح البحر ، وغرق المناطق الساحلية الواطئة حول العالم كله ، وهذا يهدد دولاً مثل بنجلاديش ، والهند ، ومصر ، وجامبيا ، وإندونيسيا ، وموزمبيق ، وباكستان ، والسنغال ، وتايلاند ، والصين ، وجزر المالديف ، وهولندا ، وبلجيكا ، وسوف تكون الدول الفقيرة بالطبع هى الأكثر تضرراً ، لأنها الأضعف من حيث القدرة على مواجهة هذه الأخطار [1] .

(٦) اقتلاع الغابات : وهناك خطراً استراتيجى يمارسه الإنسان المعاصر ، ويهدد النظام المائى لكوكب الأرض .

---

[1] الأرض فى الميزان لآل جور صـ ١٠٢ وما بعدها .

وهو يختص باقتلاع الغابات على نطاق واسع ، حيث أن تدمير غابة يمكنه أن يؤثر فى النظام الطبيعى لتوزيع المياه بما يمثل اختفاء بحر كبير مغلق .

ونجد مثالاً مأساوياً بذلك فى أثيوبيا ـ لفقدان الغابات ثم فقدان المياه ، فقد تقلصت مساحة الأراضى التى كانت تغطيها الغابات فى أثيوبيا من ٤٠ ٪ إلى ١ ٪ خلال الأربعين سنة الماضية ، وبالتوازى مع ذلك تراجعت كميات الأمطار المتساقطة ، إلى درجة جعلت الأراضى ، تتحول بسرعة إلى أرض بور ، ثم دخلت البلاد بعد ذلك ـــ مع تضافر أسباب أخرى ـــ فى مأساة المجاعة والحرب الأهلية ، وفى جنوب أمريكا هناك خطر مماثل ، بسبب تدمير الغابات [1] .

(٧) ويتعرض النظام المائى العالمى لخطر آخر بسبب تلوث مصادر المياه على مستوى العالم بالملوثات الكيماوية التى تنتجها الحضارة المعاصرة، ويأتى انسكاب البترول كواحد من أكثر الملوثات وضوحاً فى المحيطات ، وفى بعض الأنهار الداخلية .

وهل سمعتم من قبل عن أنهار تشتعل فيها النيران ؟ لقد حدث ذلك فى نهر كياهوجا فى ولاية كليفلاند ، وفى الاتحاد السوفيتى فإن الأنهار ـــ كما يقول آل جور ـ ما زالت يمكن أن تشتعل فيها النيران .

وقد حدث فى شهر يوليو عام ١٩٨٩ عندما كان أحد عمال الزراعة فى أوكرانيا يسير بجوار نهر فورين ، وهو يجمع نبات عيش الغراب أن ألقى بعقب سيجارة فى مياه النهر ، فما لبث النهر أن أحدث فرقعة شديدة ، واشتعلت فيه النار لمدة خمس ساعات بسبب البترول الذى كان قد سكب عليه مؤخراً .

---

[1] الأرض فى الميزان صـ ١١٠ .

وبصفة عامة ، فإن تلوث مصادر مياه كوكب الأرض آخذ فى الزيادة بصفة مستمرة ، ويزداد سوءاً بصورة مفزعة ، وطبقاً لعملية مسح قـامت بها وكالة متخصصة فى حماية البيئة فإن حوالى نصف أنهار وبحيرات وجداول أمريكا إما أنه يعانى بالفعل من تلوث مياهه أو فى طريقه إلى ذلك .

ومع ذلك فإن تلوث المياه وتأثيراته الرهيبة المؤلمة يمكن الاحساس بها بوجه خاص فى العالم الثالث ، حيث زاد معدل الوفيات الناتج عن الإصابة بالكوليرا والتيفود والدوسنتاريا والإسهال .

وإن ما يزيد عن ١,٧ مليار نسمة ليس لديهم مورد كاف من مياه الشرب الآمنة النظيفة ، وأكثر من ثلاثة مليارات نسمة لا تتوافر لهم وسائل الصرف الصحى المناسب ، وإن الأمراض التى تحملها المياه تتسبب فى المتوسط فى وفاة ٢٥ ألف شخص يومياً فى العالم الثالث [1] .

(٨) سوق النفايات : تتمركز سياسة الدول الغربية والأوربية ــ كما يقول مسئول بمنظمة الصحة العالمية ـ حول إدراك سياسى واقتصادى بأن العالم الثالث هو سوق كبير للنفايات الأوربية التكنولوجية ، الملوثة والمدمرة للبيئة ولبيع المبيدات والبذور الفاسدة المؤثرة على صلاحية التربة الزراعية ، وإجراء التجارب على البشر والزراعة ، فضلاً عن الأغذية الفاسدة والأدوية التى تجعل من البشر فى العالم الثالث حقلاً لتجاربها ، وقد أعلن فى تقارير رسمية نشرتها الصحف فى أمريكا أن لديها ٢٦٥ مليون طن من هذه النفايات سنوياً تحتاج إلى التخلص منها ، وأن مجموعة دول السوق الأوربية لديها سنوياً ٣٥ مليون طن سنوياً .

ويقول بعض المعلقين إن تجارة النفايات الكيمائية أصبحت كبيرة جداً، وتعمل فيها شبكة من المافيا والسماسرة والمهربين .

---

[1] الأرض فى الميزان ١١٣ ـ ١١٤ .

حتى فيما يتعلق بالسجاير ، فإن دول المجموعة الأوربية تقوم بالتخلص من التبغ الثقيل الذى يحتوى على نسبة عالية من النيكوتين عن طريق تصديره إلى العالم الثالث بأسعار رخيصة .

وابتداء من عام ١٩٩٣ تتضاعف صادرات المجموعة ثلاث مرات بعد تطبيق القوانين الجديدة التى تحد من كمية النيكوتين فى السجاير المباعة فى أوربا ، وذلك بعد ارتفاع معدل وفيات المدخنين للتبغ بدرجة تهدد الصحة العامة للمواطنين فى هذه الدول [١] .

(٩) احتمالات الكوارث النووية : ما الذى يمكن أن تحدثه حرب ذرية فى البيئة ؟

سؤال طرحته منظمة الأمم المتحدة على عشرة من كبار علماء العالم واستغرقت الدراسة حوالى عام كامل ، وتم تسليمها إلى بيريزدى كويلار السكرتير العام للأمم المتحدة آنذاك :

وقد قدمنا نتائج هذه الدراسة فى الصفحات السابقة [٢] .

منشأ الكارثة :

ذلكم تلخيص موجز عن حجم المشكلة التى تهدد البيئة على مستوى الأرض كلها .. والحق أننا ونحن نتحدث عن مشكلة الأرض والإنسان فى العصر الحديث على هذا النحو ، يجب أن نعلم أننا نتحدث عن نوع " جديد " من الإنسان غير الذى يعرف على وجه التاريخ الإنسانى من قبل ، كذلك ونحن نتحدث عن وضعية الأرض فإننا نتحدث عن وضعية غير التى عرفها الإنسان على وجه التاريخ الطبيعى من قبل ، فالإنسان الجديد هو نوع جديد لم يعد يشرك بالله آلهة أخرى تنتسب إلى كائنات علوية ، أو سفلية مجردة أو غير مجردة ، يحصل عليها من مصدر الحكايات والأساطير والأصنام ، أو التراث الشعبى ، ولكنه أصبح يضع نفسه ــ حسب زعمه ــ فى موضع

---

[١] أنظر جريدة الأهرام صـ ٧ فى ١٩٨٨/٩/١٧ ، ونفس الجريدة فى ١٩٩٠/٥/٢٦ م .

[٢] أنظر صـ ٩٣ من هذا الكتاب .

الألـوهية مـنذ أمـكنـه ـ حسب وهمه ـ أن يسيطر على الطبيعة بأداة العلم ﴿ **أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، فتشابه الخلق عليهم** ﴾ .

كذلك فالأرض ليست هى الأرض الموكول أمرها إلى قدرة الله وعنايته ورحمته وموازنته ، ولكنها الأرض المتروكة بسخط الله ـ وإلى أمد ـ إلى قدرة الإنسان فى السيطرة على الطبيعة حسب زعم هذه الحضارة منذ وضع الإنسان أركانها فى عصر النهضة .

إن الصانع لمأساة البيئة ـ مأساة الأرض ، هو وجهة النظر الفلسفية التى قامت عليها الحضارة المعاصرة .

يقرر أرنولد توينبى(أن وجود الإنسان يهدد الآن صلاحية المحيط الحيوى للعيش فيه لكل أشكال الحياة بما فى ذلك الحياة البشرية نفسها .) [1].

ويقول (فى حداثتى ـ أنا مولود سنة ١٨٨٩ م ـ كان يعتبر من الوهم أن يتخيل المرء أن الإنسان قد يملك من القدرة ما يمكنه من تلويث كل الجو المغلف للمحيط الحيوى .... وفى حقيقة الأمر فإن البشرية كانت إلى الربع الثالث من القرن العشرين الميلادى تقلل من أهمية التزايد الحديث فى قدرتها على التأثير على المحيط الحيوى ، وقد نتج هذا التزايد من تحولين جديدين : أولهما متابعة البحث العلمى المنظم الهادف وتطبيق هذا على تقدم التكنولوجيا .. وثانيهما : تسخير الطاقة الطبيعية الموجودة فى المحيط الحيوى لخدمة الأغراض البشرية ..) .

ثم يتحدث عن خطر هذا التحول فى المحيط البشرى فيقول : (هذا النجاح المنذر بالشر للتكنولوجيا العلمية البشرية ، إضافة إلى النتائج الأصغر للانجازات السابقة التى قامت بها الثورة الصناعية هى التى تهدد بجعل المحيط الحيوى مكاناً غير صالح للعيش .) [2] .

---

[1] تاريخ البشرية صـ ٢٦ جـ ١ ، ترجمة " نيقولا زيادة " .

[2] المصدر السابق صـ ٢٨ ، ٢٩

وهو يقول (فى عصرنا نجد أن سيادة الإنسان التامة على المحيط الحيوى بأكمله تهدد بإحباط نوايا الإنسان ، وذلك بتحطيم المحيط الحيوى والقضاء على الحياة بما فى ذلك الحياة البشرية كلها .) [1] .

يذكرنا أرنولد توينبى بوجود هذا التوجه ــ السيطرة على الطبيعة ــ فى الثقافة اليهودية القديمة ، فى العدد الثامن والعشرين من الاصحاح الأول من سفر التكوين القائل : " وباركهم الله ، وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر ، وعلى طير السماء ، وعلى كل حيوان يدب على الأرض [2] " .

ثم يشير إلى مخالفة هذا التوجه لما جاء فى ثقافات أخرى إذ يحكى على لسان تاوتى تشينج قوله : (كلما ازدادت الأسلحة الحادة تزداد الأرض كلها انغماساً فى الظلام ، وكلما ازداد عدد الصناع الحاذقين تزداد الآلات المتلفة التى تخترع ، وكلما ازدادت القوانين التى تشرع يزداد عدد اللصوص وقطاع الطرق .

شد القوس إلى النهاية وستتمنى لو أنك توقفت فى الوقت المناسب .

وإنه مع وجود آلات مع الناس تقتضى عملاً عشر مرات أو مائة مرة فإنهم لن يستعملوها [3] .

وقد يكون هناك بعد قوارب وعربات ، ولكن أحداً لن يدخلها ، وقد يكون هناك أسلحة للقتال ، ولكن لن يتدرب عليها أحد .) [4] .

ويتفق آل جور ــ وهو أحد كبار القيادات المسئولة فى هذه الحضارة مع التحليل الذى وصل إليه أرنولد توينى للمشكلة يقول آل جور :

---

(1) المصدر السابق صـ ٣١ .

(2) تاريخ البشرية صـ ٣٠ ، جـ ١ .

(3) من الذى سيستعمل ألف قناة تليفزيونية يتيحها له جهاز واحد ؟ !

(4) المصدر السابق صـ ٣٠ ، جـ ١ .

(إن الثقافة الغربية المعاصرة تقوم على افتراضـات متعلقة بالحياة ، يتم تلقينها للأطفال ، ألا وهى : إن الطبيعة يتعين إخضاعها) .

(وهى افتراضـات انتقلت من جيل إلى جيل ، منذ زمن ديكارت وبيكون ، ورواد الثورة العلمية الآخرين ، أى منذ ٣٧٥ عاماً مضت ، وقد استوعبت هذه الحضارة تلك القواعد ، وتعايشت معها قروناً دون أن يراجعها أحد بجدية) ، وهو يربط بين هذه العقيدة الحضارية وبين أزمة البيئة المعاصرة ، ثم يقول :

(إن الأزمة البيئية بلغت اليوم حداً من الخطورة يجعلنا نعتقد أن حضارتنا يجب أن تعتبر بطريقة أساسية مختلة الوظائف ، وأن إحدى القواعد التى تقوم عليها الحضارة مختلة الوظائف هى أنك لا يمكنك مراجعة هذه القواعد أو مناقشتها) .

كأنه يتطابق فى ذلك مع قوله تعالى : **﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾** ٧ البقرة .

ثم يقول شرحاً لهذا الختم : (إن رجال البوليس والأطباء ، وعلماء النفس يعجبون كثيراً كيف يستطيع أى شخص أن يصم أذنيه فلا يسمع صرخات القتيل الذى يذبحه ، ولا يرى أحزان الطفل الذى يعتدى عليه ، وكيف يخدر حواسه فلا يشعر بالآلام الشنعاء ... ؟

إننا نعرف الآن الإجابة على هذه الأسئلة : ذلك أن هناك نوعاً من الخدر النفسى الناتج عن تكيف الأشخاص البالغين مع النمط مختل الوظائف الذى شبوا عليه ، إن حضارتنا مختلة الوظائف قد طورت نوعاً من الخدر ، ليمنعنا من الشعور بالألم نتيجة أفعالنا ، إن حضارتنا تستطيع أن تتغير ، وينبغى لها أن تفعل ، بأن تواجه القواعد المسلمة غير المدونة ، التى تدفعنا لتدمير الأرض) .

ثم يقول فى تشخيص أمراض الحضارة التى أدت إلى أمراض هذه البيئة ـ يقول فيما يعتبر مصداقاً لقوله ﷺ عن الكافر أنه يأكل فى سبعة أمعاء ....

يقول : (كل جيل جديد فى حضارتنا المعاصرة يشعر الآن بالاعتماد الكامل على تلك الحضارة نفسها . ذلك أن حضارتنا هى التى تزودنا بأنواع الطعام فوق أرفف السوبر ماركت ، والماء المتدفق من الصنابير داخل بيوتنا والمأوى ، والمأكل ، والملبس ، والعمل ، ووسائل التسلية .... إن أحداً لا يجرؤ على مجرد التفكير فى حرمان أنفسنا من هذه العطايا الكثيرة [1]) وهى وإن كانت أمعاءً سبعة ، إلا أنها أمعاء زائفة ، يقول : (إننا شيدنا فى حضارتنا عالماً زائفاً من الزهور البلاستيكية وحليات السباق الفلكية ، وأجهزة التكييف ، وأنوار الفلورسنت ، والنوافذ الشكلية التى لا تفتح ، والموسيقى الخلفية التى لا تتوقف ، والليالى الوهاجة بالبريق ، ومواخير التسلية وأوكارها، والطعام المجمد لأفران المكروييف ، والقدرات الذهنية التى تعتمد على الكافيين ، والكحول ، والمخدرات ، والأوهام والخيالات ....

إن العديد من القواعد غير المدونة لحضارتنا مختلة الوظائف يشجع على الإذعان الصامت فيما يختص بأنماط السلوك المدمر التى نتعامل بها مع عالم الطبيعة .. [2])، ثم يقول : (إن المرء يكاد يصيبه الهلع من جراء اندفاعنا المسعور والقسرى الواضح ، لكى نفرض سيطرتنا على كل بقعة فوق ظهر الأرض) ودائماً فإن حاجات الحضارة التى لا يتم إشباعها تزيد نيران العدوان اشتعالاً ، والوصول إلى اشباع حقيقى لهذه الحاجات هو أمر بعيد المنال تماماً) . ثم يقول فيما يعتبر مصداقاً لتحذير الرسول ﷺ جماعة استهمت على سفينة ، فيذهب من فى اسفلها يخرق فيها خرقاً ليحصل على الماء .. فإذا تركهم من فى أعلاها يفعلون غرقوا جميعاً ، وإذا منعوهم نجوا جميعاً .. يقول (إن الأراضى التى يتم غزوها – يقصد بالتكنولوجيا الحديثة – لا تلبث أن تصبح أرضاً جدباء خربة ، وقد انتزعت منها خصوبتها ، وسلبت مواردها الطبيعية ، واستهلكت على وجه السرعة ، وكل هذا التدمير لا يؤدى

---

[1] الأرض فى الميزان صـ ٢٣٣ .

[2] الأرض فى الميزان صـ ٢٣٤ .

إلى شئ سوى إذكاء شهيتنا للمزيد ، إننا نقوم بشكل منتظم بالاعتداء على أكثر مناطق عالم الطبيعة تعرضاً للخطر وأقلها قدرة على الدفاع عن نفسها : تلك هى الأرض المطيرة والمحيطات ..) ثم يقول : (ونحن أيضاً نعتدى على أعضاء آخرين من الأسرة الإنسانية ، وبخاصة أولئك الذين لا يستطيعون التعبير عن أنفسهم ، لقد سمحنا بسرقة الأرض من السكان الأصليين ، وباستغلال المناطق التى يسكنها أشد الناس فقراً .

والأسوأ من ذلك كله أننا قمنا بالعدوان على حقوق الأجيال التى سوف تأتى بعدنا ، فعندما نقوم بتجريف الأرض بمعدلات تفوق قدرتها على الاحتمال تماماً فإننا نجعل من المستحيل على أحفادنا أن ينعموا حتى بمستوى معيشة يقل كثيراً عما ننعم به نحن .

إننا الآن نفرض نموذجنا مختل الوظائف وإيقاعنا المتنافر على أجيال المستقبل ، ، وذلك بطريقة فاسدة [1] .)

الحل الغربى للمأساة : من الغريب أن بعض المفكرين والمخططين من أبناء الحضارة الغربية المعاصرة يدعون إلى علاج الكارثة عنصرياً فيقترح بعضهم :

١ – تبنى مسلسل " الكوارث المحسوبة " بالنسبة للبيئات الخاصة بالسكان بلا إنتاج (!!) ، يعنون بذلك " العالم الثالث " .

٢ – أو دفع هذا العالم ــ بالذات ــ إلى تحديد النسل بكل الوسائل والسُبل .

٣ – أو تشجيع الحروب المحلية فى العالم المذكور .

٤ – أو بتعميم الجفاف على أرضه وفق تخطيط معين .

---

[1] الأرض فى الميزان لآل جور صـ ٢٣٤ وما بعدها .

٥ - أو بنشر التلوث المقنن فيه [1] .

وهناك فئة من العلماء تكتسب أهمية يوماً بعد يوم يطلق عليهم علماء " الأيكولوجيا العميقة " يبنون تصورهم للحل على أساس نظرتهم للإنسان باعتباره نوعاً من أنواع الفيروس ، أصاب الأرض بالطفح الجلدى والحمى ، وينسبون إليه القيام بدور سرطان يهدد الكرة الأرضية وينتشر فيها على نحو لا يمكن التحكم فيه ، واستمراراً لهذه الرؤية فإن العلاج الممكن الوحيد لأمراض الأرض التى أصابتها هى (استئصال الناس من على وجه الأرض) باستثناء فئة محدودة ينتسبون هم إليها ، باعتبار أنهم يقومون عندئذ بدور الأجسام المضادة للحد من انتشار المرض [2] .

وهناك فئة أخرى تشير إلى أن البداية الصحيحة تأتى من خلال تغيير النفس ، ومن ثم تغيير القواعد التى بُنيت عليها هذه الحضارة المعاصرة .

يقول أرنولد توينبى (يظهر أن الإنسان لن يستطيع إنقاذ نفسه من الدمار الذى تسببه قوته المادية وطمعه الشيطانيان ما لم يسمح لنفسه بأن تتغير نفسه كلياً ، بحيث يحفزه ذلك إلى أن يتخلى عن غايته الحالية ، ويعتنق المثل الأعلى المخالف لذلك تماماً .... فهل باستطاعته أن يقبل .. ؟؟

إن المناظرة حول هذه القضية التى طال عليها الزمن والتى يبدو وكأنها تكاد تبلغ نهاية تصعيدها فى يومنا هذا هى الموضوع الذى يتناوله التأريخ للصدام بين البشرية والأرض الأم ...) [3] .

إنه فى نظر كثير من الخبراء والباحثين لا أمل فى مواجهة كارثة البيئة المتفاقمة ما لم يُعدّل الإنسانُ من سلوكه بالنسبة للأرض ، وجهاز

---

[1] أنظر " نهاية عمالقة " للأستاذ الدكتور / رشدى فكار صـ ١٣١ .

[2] الأرض فى الميزان صـ ٢١٩ ـ ٢١٠ ، وهم بذلك يدفعون منطق التطور إلى نتائجه الحقيقية .

[3] تاريخ البشرية صـ ٣٢ جـ ١ .

الضبط الحرارى [1] الوحيد القادر علـى منـع هـذه الكارثـة ، كمـا يقـول ــ آل جور نائب رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكيـة ــ هـو مـا يكـون فـى داخل رءوسنا وقلوبنا وعقيدتنا [2] يقول آل جور : (إنه إذا كانت أزمة البيئـة العالمية ضاربة الجذور فى النمط مختل الوظـائف ، المميز لعلاقـة حضارتنـا بعالم الطبيعة ، فإن الخطوة الأولى فى الحل تتمثل فى مواجهـة هذا النمـط .. وفهمه بالكامل وإدراك أثره المدمر على البيئة ، وعلينـا أن ننتقل مـن مفهـوم السيطرة على الأرض إلى مفهوم آخر) [3] .

إننا نزكى هذه البادرة المضيئة والتى تشير إلـى بدايـة الحـل الصحيـح للمشكلة فى رحاب قوله تعـالى ﴿ **إن اللـه لا يغير مـا بقـوم حتـى يغيروا مـا بأنفسهم** ﴾ .

إن العـلاج لا مفر لـه مـن أن يعـود إلـى تفكير الإنسـان فـى طريقـة معيشته ، إن أزمة التخلص من الفضـلات مثـلاً وهـى أزمـة عالميـة ــ وهـى أهون مشـاكل أزمـة البيئـة المعـاصرة ــ هـذه الأزمـة تـنبع مـن أسلوب هـذا الإنسان فى الإنتاج والاستهلاك ، إنها تـنبع مـن فهمـه للاقتصـاد ، تـنبع مـن فهمه لعلاقتـه بالحيـاة الدنيـا . تنبـع مـن تكوينـه العقـدى الـذى يصـوغ علاقتـه بالطبيعة ، وعلاقته بالله . إن كل الأنواع الحية تنتج فضـلات وجميعهـا بغـير استثـنـاء يمر بعمليات " إعادة التدوير " ليس بواسطة تلك الأنواع الحية نفسها، ولكن بأشكال أخرى من الحياة ترتبط معها بعلاقات التكامل والتوازن . وتقـوم سُنن الله فى الطبيعة بفصل العناصر ذات السمية لتدخلها فـى عمليـات بطيئـة لتحولها إلى مواد غير سامة ، وهذا بالطبع يفـترض المحافظـة علـى علاقـات التوازن التى وضعها الله بين الأنواع الحية .

---

[1] " الترموستات " .

[2] الأرض فى الميزان صــ ٩٥ .

[3] أنظر الأرض فى الميزان من صــ ٢٣٢ إلى صــ ٢٣٩ .

وإذا حدث أن تخطى أحد هذه الأنواع حدوده المرسومة له في هذا النظام ـ كشأن الإنسان المعاصر في طموحه للسيطرة على الطبيعة بواسطة العلم ـ فإن هذا النوع يتعرض لخطر أن يصبح عاجزاً عن الهرب من النتائج المترتبة على زيادة فضلاته ، فضلاً عن ذلك فإن احترام سُنن الله في الطبيعة من شأنه أن يساعد على عدم إنتاج مشكلة الفضلات أصلاً ، ذلك لأن فضلات أحد الأنواع الحية تصبح مادة نافعة لنوع حي آخر ، هذا ولأننا نحن البشر في ظل قيمة السيطرة على الطبيعة من قيم الحضارة المعاصرة ـ قد اكتسبنا ـ كما نتوهم ـ زيادة في قدرتنا على تشكيل العالم ، فقد بدأنا في إنتاج فضلات خرجت من ناحية كميتها واحتمالاتها السمية ، على الميزان الإلهي الموضوع لامتصاص هذه الفضلات ، ونتيجة لذلك فإن هذا الإنسان الذى استبعد عقيدة الألوهية ، وتعامل معها من موقف حيادى ، أو على الأقل أنكر عقيدة العناية الإلهية .. هذا الإنسان أصبح ـ وفقاً للنواميس الإلهية نفسها " متروكاً لنفسه " وكان عليه أن يبحث عن طريق مستقل عن الله ﴿ **قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم ، فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً** ﴾ ، ويقول تعالى ﴿ **نسوا الله فنسيهم، إن المنافقين هم الفاسقون** ﴾ ١٦٧ التوبة .

إن المطلوب هو تغيير يتناول أعماق النفس .

إن المطلوب هو طريقة جديدة في إنتاج السلع الاستهلاكية والتعامل معها .

لقد يسر الإنتاج الضخم للناس أن يمتلكوا منتجات الحضارة الصناعية المرغوبة بدرجة أكبر ، وينظر إلى هذا التطور على مستوى العالم كله تقريباً باعتباره خطوة كبرى إلى الأمام .

والحقيقة أنه حقق فعلاً تقدماً هائلاً في مستوى المعيشة ونوعية الحياة، لمئات الملايين من البشر ، ومع ذلك فمن خلال تلك العملية لم تصبح المنتجات متاحة فقط ، ولكنها أصبحت رخيصة أيضاً ، ولما كان في الإمكان استبدال منتجات أخرى بها مماثلة لها وأرقى منها ، فلم يعد هناك لدى الإنسان

المتحضر المعاصر ، ما يدعوه لحمايتها أو إدخارها ، أو العناية بها كما كان الحال فى الماضى .

وإذا ما واظب هذا الإنسان على عاداته الاستهلاكية فسوف تنتصر القمامة فى نهاية الأمر وفقاً لما يقوله المفوض العام السابق للشئون الصحية بولاية نيويورك (يستطيع الناس التذمر من أفران حرق القمامة كما يحلو لهم، بل إنهم يستطيعون أن يثيروا الجدل حولها ، أو يرسلوا شكواهم بشأنها للصحف ، لكن فى النهاية يكون النصر للقمامة) .

إن المشكلة ترجع إلى صميم التكوين النفسى ، ومن ثم الفكرى ، والعقدى لإنسان هذه الحضارة الذى تم صياغته فى نسيج حضارة زعمت أنها محايدة فيما يتعلق بالله ، فهى منفصلة عنه ، واتجهت إلى تأليه الإنسان ، وتأليه العلم ، ورفعت شعار السيطرة على الطبيعة ، منذ بدء عصر النهضة ، بدلاً من شعار " الانسجام " مع هذه الطبيعة ، ضمن منظومة العناية الإلهية التى يقررها الدين .

إنه كما يقول آل جور : (ما لم نعثر على طريقة نغير بها على نحو جذرى حضارتنا وطريقتنا فى التفكير فيما يتصل بالعلاقة بين الجنس البشرى وكوكب الأرض فإن أولادنا سيرثون أرضاً خراباً) . إنه كما جاء فى بعض المؤتمرات الإسلامية التى عقدت فى أوربا : (إن السبب الحقيقى لما آلت إليه البيئة من وضع متدهور وخيم العاقبة تجاوز حدود التحمل الطبيعى إنما هو اعتزاز الإنسان ـ غير المؤمن بوجود الله ـ اعتزازه بجبروته ، حيث سولت له نفسه بأنه السيد المسيطر على الطبيعة والبيئة ، فاعتقد ذلك يقيناً ، وسغبه الاستهلاكى النهم بلا حدود ، لكل ما يشبع ملذاته على حساب الطبيعة ، سادراً فيها ، لا يرعوى ولا يرعى لها حقاً ، كأنما ليس لغيره حق مستقل فى الوجود السليم الذى لا يضار فيه) [1] .

[1] مؤتمر مرور ربع قرن على إنشاء المركز الإسلامى فى آخن بألمانيا فى يوم ١٧مايو١٩٨٩ ، أنظر كتاب (الإسلام كبديل لمراد هوفمان) .

إننا نصل من ذلك إلى أن الصانع الرئيسى لكارثة البيئة المعاصرة ، هو مشروع الحضارة الغربية الذى قام بتصميمه المهندسون " المحايدون فى العقيدة الإلهية " ولا يزالون يشرفون على مساره ويدفعون خطواته حتى الخطوة الأخيرة ، فى أعماق الهاوية ، ولن يتراجعوا لأنهم اجتازوا نفسياً وتاريخياً نقطة الرجوع ، ما لم يبادر صاحب المصلحة وهو الإنسان ــ إلى تغيير نقطة البدء فى صناعة الحضارة ﴿ **إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً** ﴾ ٦٨ النساء .

إن نقطة البدء فى الحل لن تكون بمزيد من الارتباط بمنطلقات هذه الحضارة (السيطرة ـ الاستهلاك ـ العلم وحده) .

ذلك لأن الكارثة إنما تقبل علينا من واقع تقدم هذه الحضارة ، فهل يمكن لهذه الحضارة أن تقدم الحل ؟ إذن لا تكون هذه الحضارة هى نفسها ، إن الحل لا يتصور مجيئه من هذه الحضارة بتركيبتها التى بدأت وآلتها التى انطلقت منذ عصر النهضة لأنها إنما قامت على استبعاد الدين .

يقول هارولد لاسكى المفكر السياسى الشهير : (إن منهج الغرب فى الحياة قد وضع فى بوتقة الانصهار وصارت العلوم ـ سواء علوم الطبيعة أو علوم الحياة ـ جزءا من رد الفعل شبه التلقائى ، وتفتقر إلى الهدف ، فهى لا تقدم لنا شيئاً غير تلك القيم التى تشيع الفوضى ، وفى مقدور هذه العلوم أن تتيح شيئاً من الرفاهية المادية ، ولكن يبدو أنها عاجزة عن اكتشاف مبادئ الرضا الروحى) [1] .

ونضيف : إنه حتى فى مجال الحياة المادية فقد وصلت هذه الحضارة إلى نقطة الانحدار الرهيب بيئياً ، إن كثيراً من فلاسفة العلم المعاصر يتحدثون عن (التقدم الفكرى والعلمى ـ وهو أكبر مفخرة لما أتاه الإنسان الحديث ـ على أنه مجرد أحبولة وخداع ، وأن هذا العالم الحديث قد أعطى

---

[1] أنظر كتابه (محنة الديمقراطية ، جـ ١ ، صـ ١٢٢ ـ ١٣ مترجم) .

مكاناً مركزياً فى الحضارة لجزء من الحياة البشرية ، ليس سوء جزء صغير بالنسبة إلى تلك الأجزاء التى تعمل على التقدم الإنسانى) .

إن حماسة كوندرسيه ، وجون ستيورات مل للعلم الحديث وإيمانهما بالعلم ، وأملهما فى المستقبل تنبذ جانباً الآن على أنها أوهام قوم معرفتهم بالطبيعة البشرية سطحية جداً مثل مفهومهم لإمكانات الحياة البشرية ومعضلاتها) [1] .

ونحن نقول : العيب ليس فى العلم ولكن فى وضعه بعيداً عن الله .

ثم يقول تشارلز فرانكل : (لن نفلح فى بناء حضارتنا على أساس ثابت وطيد إلا إذا تخلصنا نهائيا من الفكرة السطحية عن الحضارة ، هذه الفكرة التى نتشبث بها ، وتملك علينا أنفسنا ، ثم نأخذ من جديد بالنظرة الأخلاقية ويقول (يجب أولاً أن نكون متأهبين للعمل الإيجابى فى العالم وفى الحياة ، ويجب ثانياً أن نكون أخلاقيين) [1] .

فهل هناك أمل فى أن تقوم حضارة بُنيت على مبادئ ثابتة ظلت تعمل وفقاً لآليتها مدة قرون أن تقوم بدور فى تغيير جلدها ؟ مرة أخرى إنه لابد لهذه الحضارة كما يقول تشارلز فرانكل أيضاً من أن تقوم بالتغيير لا عن طريق الوعظ....ولكن لابد من أن تنشأ العقلية الإيجابية الأخلاقية التى تنبع من نظرة عقدية تشمل الكون والحياة ، ثم يقول بما يشبه اليأس (هذا هو المصير الذى انتهينا إليه : لقد فقدنا كل نظرية فى الكون) [2] .

إن حل المشكلة يتطلب إعادة نظر الإنسان المعاصر فى موقفه من كيانه الروحى .. يحلل أرنولد توينى المشكلة فيرجعها إلى غفلة الإنسان عن تكوينه المزدوج بين المادة والروح ، فيقول : (إذا فقد الكائن البشرى روحه

---

[1] أنظر كتاب أزمة الإنسان الحديث لتشارلز فرانكل مترجم صـ ١٥٢ ـ ١٥٣ .

[1] المصدر السابق صـ ٤ .

[2] المصدر السابق صـ ٦ .

فإنه يفقد إنسانيته ، وذلك بأن جوهر الكيان البشرى هو إدراك لوجـود روحـى خلف المظاهر الطبيعية .. ، .

وبسبب أنه يعيش فـى وقـت واحـد فـى المحيـط الحيـوى وفـى العـالم الروحى فهو كما وصفه السير توماس براون بدقة : حيوان برمائى ! وفى كل من الوضعين حيث يشعر أنه منسجم مع الوضع يكون له غاية خاصة ، ولكنه لن يتمكن من متابعة كل من الغايتين ، أو أن يخدم كلا من السـيدين بـإخلاص تام .... فأى البديلين يختار .... ؟) .

ثم يقول (وفى عصرنا فقط أصبح الاختيار أمراً لا مفر منه للبشـرية ككل .) [٣] .

وهذا بالضرورة يشير إلى ضرورة تحديد موقف الإنسـان مـن الحيـاة الدنيا والآخرة .

فلن يكون الحل فى (إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، وإعمل لآخرتـك كأنك تموت غداً .) .

ولكنه فى الحديث الصحيح لرسول الله ﷺ (مـن جعـل الآخـرة همـه جمع الله عليه شمله وجعل غناه فى قلبه وآتته الدنيا وهى راغمة .) .

وهذا الحل هو ما تقدمه الحضارة الإسلامية .

---

[٣] تاريخ البشرية صـ ٣١ ، جـ ١ .

بين الصراع والتعدد

يخطئ الفكر الإسلامى المعاصر خطأ جوهرياً عندما يناقش موضوعاته ومشاكله [1] بعيداً عن الإطار العام لها ألا وهو الذاتية الإسلامية وصراع الحضارات .

إن ما يحكى عنه بعض الكتاب عن اعتراف الإسلام بتعددية الأديان أو تعددية الحضارات ، إنما هو نوع من الخلط أو الإبهام .

فالتعددية التى جاء الاعتراف بها فى الإسلام إنما هى تعددية الأمر الواقع ، وليست تعددية الأمر التكليفى ، أو ما ينبغى أن يكون .

تعددية الأمر الواقع فى الأديان كما فى قوله تعالى ﴿ **لكم دينكم ولى دين** . ﴾ .

تعددية الأمر الواقع فى الشرائع كما فى قوله تعالى — وهو بصدد توجيه الرسول ﷺ فى التعامل مع أهل الكتاب : ــ ﴿ **فأحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ، ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فأستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعاً ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** . ﴾ .

وهى تعددية الأمر الواقع فى الحضارات فى قوله تعالى ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز** . ﴾ .

تعددية الأمر الواقع بين إيمان وإسلام وإحسان فى جهة ، وكفر ونفاق وفساد ومعصية فى جهة أخرى ، وليست تعددية الأمر التكليفى المطلوب ولا تعددية الأمر الذى ينبغى أن يكون .

ففى الإسلام ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ ، ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه** . ﴾ .

---

[1] كمشكلة الاقتصاد والتربية والاعلام والجهاد ... ألخ .

﴿ **قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا .** ﴾ ٢٩ الكهف ، ﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرنٍ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا .** ﴾ ٩٨ مريم .

وفى الأمر الذى ينبغى أن يكون ليس إلا شريعة واحدة بين الأنبياء جميعاً .

ولا تختلف بين نبى ونبى ، ورسالة هنا ورسالة هناك إلا اختلافاً عارضاً ــ بحسب الاختلاف فيها بين عالمية ومحلية ، وخالدة ومؤقتة ــ اختلافاً لا يستحق الخلاف " كما يفيد ذلك قوله تعالى ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه .** ﴾ .

وفى الأمر الذى ينبغى أن يكون ليس إلا حكم الله وحده ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .** ﴾ ... ﴿ **فأولئك هم الفاسقون** ﴾ ... { **فأولئك هم الظالمون .** ﴾ .

وفى الأمر الذى ينبغى أن يكون ليس إلا حضارة واحدة ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ ... ﴿ **ولينصرن الله من ينصره .** ﴾ .. ﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون .** ﴾ .

الاختلاف الموضوعى بين الحضارتين :

وعلى هذا الأساس ــ من الاعتراف بذاتية الإسلام ــ علينا أن نعترف بأن هناك تناقضاً بين النسق الإسلامى ــ أو بتعبير آخر بين الحضارة الإسلامية ــ والحضارة التى تسمى " غربية تارة ، وأوربية تارة ، وعالمية تارة أخرى " .

وهو إذن تناقض موضوعى : تماماً كما يكون التناقض بين المحافظة على " ذات " فى مقابل المحافظة على " ذات " أخرى .

ويخطئ من يظنّ أن هذا التناقض ـ أو الصراع ـ يرجع ـ فحسب ـ إلى ثأر تاريخى ، أو كراهية انفعالية متبادلة أو إلى سوء الفهم [1] بين الجانبين .

كلا ليس الأمر كذلك .

ليست القضية أننا طردناهم من الشرق الأوسط قديماً ، حيث هو فى نظرهم قد كان مستعمرة أوربية : يونانية ، ثم رومانية ، لقرون طويلة ، ثم قضى عليها الإسلام .

وليست القضية أننا طردناهم ـ كما يعتقدون ـ من الجزيرة العربية ، تلك التى يقول عنها القس الشهير " زويمر " ؛ : إن للمسيح الحق فى استرجاع الجزيرة العربية ؛ ـ نعم هكذا ـ أو طبقاً لقول القس جيمس كانتين مؤسس الإرسالية الأمريكية عام ١٨٨٩ (إن من واجبنا أن نعيد (!!) هذه المنطقة إلى أحضان المسيحية) .

ليست القضية أننا أنزلنا المسيح إلى منصب النبوة ، وحرمناه مجد الألوهية .

وليست القضية أنهم ضربونا بقبضات شديدة استمرت قرنين فيما يسمى الحروب الصليبية .

وليست القضية أنهم افتروا على الله الكذب وشتموا رسول الله ، وهتكوا مقدساتنا ، وقذفوا أمهاتنا وكتبوا فى أعراضنا ما لم يكتبه " اليهود " عن " مريم " .

وليست القضية أنهم طردونا من الأندلس ، أو أزاحونا من على حدود فرنسا ، أو أزهقوا وجودنا فى مناطق من أوربا الشرقية وشمال البحر الأبيض المتوسط ..

---

[1] بل الأمر على العكس .. وسنبين فى هذا الفصل والذى يليه أن القضية ليست قضية سوء فهم منهم أو سوء عرض منا ...

وليست القضية أنهم يسفحون دماءنا فى افريقيا ، وأوربا ، ويقطعون شراييننا فى آسيا ، ويتركونها تسفح أنهاراً وجداول ..

وليست القضية أنهم أخرجوا فلذات أكبادنا من فلسطين ويستوردون إليها من لا يكادون يعرفون أكثر من أسماء قبائلهم ممن يسمون " الفلاشا " ..

ليست القضية ذلك فحسب .

لو أن القضية كانت ذلك ــ فحسب ــ لجاز لبعض أبواقهم أن يخدروا وعينا بكلام عن نسيان الماضى ، وتصفية الأحقاد ، واستقبال النظام العالمى الجديد " بأيد متشابكة وقلوب مفتوحة " ..

كـــلا ...

إن التناقض بين ذاتية الحضارة الإسلامية ، وذاتية تلكم الحضارة الغربية ، أو " الأوربية ، أو " العالمية " تناقض موضوعى تحركه النظرة إلى المستقبل ، أكثر مما تحركه مواريث التاريخ ، أو عقم الحاضر ...

تناقض يتحرك بطبيعته من كونهما حضارتين متنافستين على "المستقبل " .

حضارتين تتصف كل منهما " بالعالمية " ...

فالإسلام دين " عالمى " وحضارة عالمية .

وهذه الحضارة ــ الغربية ــ تعلن على الأشهاد أنها حضارة " إنسانية"

وتصدر إلى أنحاء العالم قيمها ومفاهيمها فيما تسميه " الديموقراطية " و"حقوق الإنسان " و" قرارات مجلس الأمن " .

حضارة أخذت تدس أنفها فى كل دولة ، ومدينة ، وشارع ، وزقاق ، وبيت ... "

أخذت تقول : نعم ، وتقول : لا ، فى شئون السياسة والاقتصاد ، والتربية ، والاعلام ، والحرب ، والثقافة والرياضة ، وأوقات العمل ، وأوقات الفراغ ..

وهى تتسرب بكلمتها تلك تحت شعار " العالم الذى أصبح كقرية " عن طريق : الخبر ، والجندى ، والكمبيوتر ، والقروض ، والمنتديات ، والمؤتمرات [1] ، ومراكز البحوث ، والسلام الزائف ... " .

وهى مستعدة لإدخال كلمتها عن طريق النظريات المزيفة عن " نهاية التاريخ " ، وفوكوياما ، أو عن طريق كلمة وقحة لمأجور مؤتمرات يقول لك: أنت تأكل خبزهم فيكف ترفض " هُمْ " !

نـــعـم

نعم ، حضارة تزعم أنها إنسانية ، عالمية ، والإسلام رسالة عالمية أيضاً .

ومن هنا كان التناقض شيئاً غير قابل للنسيان .

كان التناقض بين حضارتهم وبين الإسلام ـ كدين وحضارة ـ تناقضاً موضوعياً ، ومعركة على " المستقبل " .

وللاسف فإنهم يدركون هذه الحقيقة أكثر مما ندركها نحن ...

فهم أساتذة " تاريخنا " الذى نتعلمه منهم ...

وهم أساتذة الاجتماع والنفس ..

وهم أساتذة الاقتصاد ...

وأساتذة الفلك والفضاء ...

وهم أساتذة الاستراتيجية ، والسياسة ، والحضارة ...

هم يدركون بمقتضى استاذيتهم لعلم الحضارة : أنه لا مكان فى العالم لحضارتين " عالميتين " ... إلا أن يقع بينهما تنافس ، وتزاحم ، وتدافع ، وتآكل فى الحدود ، وصراع على محل " القلب " ..

---

[1] أنظر مقال محمد حسنين هيكل الذى تضمن بياناً عن معركة تطويع العقل المصرى لقبول الصلح مع إسرائيل ، وكيف انفق الغرب على هذه المؤتمرات فى مدى عامين أو ثلاثة ما يساوى " تكاليف حرب كبرى : جريدة الخليج ١٩٩٦/٥/٢١ .

وإذن فسيلعنهم تاريخهم إن تركوا فريستهم ـ نحن ـ بعد أن اصطكت الركب ، وناخت الأقدام ...

إنهم يدركون هذه الحقيقة ويحسبون أنهم يلعبون " الآن " الدور الأخير فى معركتهم مع هذه الحضارة " الإسلامية " ليقذفوا بها إلى مكان سبق أن قذفوا إليه " الهنود الحمر " !!

هم يدركون هذه الحقيقة ويعلمون ــ أكثر مما علموا عن الهنود الحمر ـ أنهم يتعاملون مع حضارة " عاتية " دوختهم واستعصت عليهم ــ فى وقت أصبح فيه وُرّاث هذه الحضارة فى أضعف حالاتهم وأحط أحوالهم ..

ولذا فإن ضعفنا لا ينسيهم خطورة حضارتنا ، ولا ينسيهم خطورة انبعاث هذه الحضارة مرة أخرى .

إن ضعفنا ـ الذى يعيرنا به أفراد منا يسيلون بكلماتهم كما يسيل الحوض بالماء النازل فيه ـ هذا الضعف لا ينسيهم قصوائية المعركة التى تدور ، ولكنه يُسيّل لعابهم لضربتنا الضربة الأخيرة ، وللقضاء علينا القضاء النهائى .

إنهم يعتقدون أنهم أمام الفرصة التاريخية التى إن أضاعوها فسوف تدور الدائرة عليهم من جديد .

لـــذا

فإنهم يصفّوننا جغرافياً ، ويصفّوننا جسدياً ، ويصفّوننا تاريخياً ، ويصفّوننا حضارياً ..

يزهقون قطرات الدم الأخيرة من عروق حضارتنا من حقيقة ذاتنا .

من جوهر وجودنا .

إنهم يدركون أن المعركة معركة حضارية موضوعية بين حضارتين عالميتين تتقاتلان على " المستقبل " .

ومن هنا فإنهم يلعبون معنا اللعبة بوجه جامد ، وعصب بارد ، وبسمة " المشفق " على " الذبيح " .

كأنه يقول : لماذا تتعب نفسك ، وتتعبنا معك ، فأنت قدرنا ، ونحن لا نتركك .. فتعال ساعدنا على أن ندخلك أحضان الفناء .

إنهم يقتلوننا ، نعم .

وهم يقتلوننا بإشفاق ؟

نــعـــم !!

لأن نظرتهم إلى القضاء علينا نظرة موضوعية !!

تماماً كالذى يذبح شاة ..

ويربت على وجهها ، وربما ... يقبلها ، ثم يذبح !!

هكذا حالهم معنا ، وهكذا حالنا معهم !!

يقتلوننا بالمذاهب الفلسفية ، وبالروح العلمية ، ومناهج البحث .

يقتلوننا ويستغربون : لماذا لا نُقتَل ؟ !

وللأسف – الذى يصل إلى حد الكارثة – ينخدع البعض منا ببسمة القاتل ، فينهضون إلى مساعدته بهدهدة الذبيح .

نعم ؛ ولقد ساعدناهم ، وساعدناهم من قبل كثيراً .

ساعدناهم بالاعتداء على ذاتية الإسلام .

ساعدناهم بتفكيك النسق الإسلامى .

وساعدناهم بتزييف " الكلمات " و " المصطلحات " الإسلامية .

أفهمونا أن الغرب قد جاء إلينا من أجل " الاستعمار " .

وابتلعنا الكلمة ، وقد كان الصحيح أن يقولوا إنه جاء إلينا من أجل "الاستخراب "

وأفهمونا أن استعمارهم – أو استخرابهم – هو من أجل " القطن " ، لتشغيل مصانع النسيج فى يوركشاير ؟

والآن ماذا بعد " القطن " ؟

وأفهمونا أن استعمارهم – أو استخرابهم – هو من أجل قناة السويس .

والآن ماذا بعد قناة السويس .. ؟

وأفهمونا أن استعمارهم – أو استخرابهم – قد جاء من أجل البترول .

والآن – أو بعد الآن – ماذا يكون بعد البترول ؟ !

" تعمية " على الهدف فى عملية الصراع الحضارى ؟!

ذلك أنه قد كان لنا – وما يزال – زعماء فكرهم خريجو كلية فكتوريا، والميردى دييه ، وقهاوى باريس ، وشارع الشانزلزييه ، وقبعات التخرج فى عقر جامعاتنا !!

فلم يكن لفمهم – وهو ممتلئ بشرابهم – أن ينطق بأن القضية صراع حضارات .

وعندما ظهرت الكلمة بعد أن انكشف الغطاء – فى صراعنا معهم – عن التأخر الحضارى الذى " نتمتع " به ، ... بعد أن ظهرت الكلمة وأنها " صراع الحضارات " ، جرى تزييفها مرة أخرى فقالوا : هو صراع حضارى ؛ ولكنه يعنى أن " نتحضر " مثلهم .

أن نعيش كما يعيشون .

ونلبس البذلة كما يلبسون .

ونحلق الذقن كما يحلقون .

ونأكل بالشوكة كما يأكلون .

أن نتحضر بمثل ما يتحضرون .

وليتهم أرادوا من ذلك أن نأخذ من حضارتهم " الوسائل " التى تعيد الحياة إلى حضارتنا ، والقوة إلى " وجودنا " ؛ والسلامة إلى " نسقنا " !!

لا

ولكنهم يهدفون إلى أن نخسر حضارتنا ، ونعيش بحضارتهم .

أزاحوا الفهم الصحيح لحقيقة صراع الحضارات وأنه صراع يدور بين حضارتين تتمتع إحداهما – اليوم – بالسيادة على العالم ، وتنزوى أخراهما فى جمود .

صراع بين حضارتين ، إحداهما يمكن أن نسميها " إنسانية " بحق !! أى يستقل بها الإنسان فلسفة وتوجهاً ، وتطبيقاً ، وأخرى " إسلامية " إلهية !!

نعم : فالإسلام دين حضارة ؛ وقد وضع حجر الحضارة الإسلامية على الأرض فى تلك الزاوية التى كتب عليها قوله تعالى ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** . ﴾ .

فالحضارة وفقاً للمفهوم الإسلامى مراد إلهى ، يصنع وفق التكليف الإلهى ، وقيام حضارة مقابلة تتصف بالإنسانية دون " الإلهية " ، هو إعلان لمعركة حضارية موضوعية بالمفهوم الصحيح لهذه الكلمة .

لن تنتهى هذه المعركة فى تصورهم إلا بإبادة الإسلام وحضارة الإسلام .

ولن تنتهى فى تصورنا إلا بصنع الحضارة وفقاً للتكليف الشرعى .

رؤية تاريخية للصراع :

فى ظل هذا التصور عن الصراع الموضوعى المستقبلى بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية يصبح من الطبيعى أن تستحضر النظرة الماضوية عن هذا الصراع من أجل تجنيدها فى معركة لا مفر منها .

الحروب الصليبية :

سقوط الأندلس ...

سقوط الدولة العثمانية ...

تفكك القوميات ...

هجوم الاستعمار ..

زرع العلمانية فى قلب الأمة وأحشائها .

الهجوم الصريح على الإسلام ...

تزييف الإسلام ومحاولة صنع " الإسلام الجديد " الذى أوصت به مؤتمرات التبشير .

تزييف فى الاقتصاد . ، فى التربية فى اللغة ، فى الأدب ، فى الفن فى الأخلاق ...

وصولاً إلى تشويه الذاتية الإسلامية ثم القضاء عليها فى معركتها الأخيرة :

زحفاً من الشمال بكتيبة إسرائيلية ... أو صربية ..

وزحفاً من الجنوب بكتيبة تنصيرية... أو وثنية ...

وإطباقاً فى النهاية على مصر .

ثم الجزيرة !!

وهنا تنتهى – فى حسبانهم – الحروب الصليبية !

لكن هل ينتهى التاريخ ؟!

قائمة سوداء غليظة السواد ، منقوعة فى السم ، ملطخة بالدم ، مصنوعة من الأشلاء ...

والحق أن عداءهم لنا لم ينشأ مع ظهور الإسلام – وإن كان قد تضاعف معه – ولكنه كان قبل الإسلام ، ومع قوة الإسلام والآن ..

أتعرفون ماذا قال هيرودت عن طريقة جمع أحجار الأهرامات ؟

أتعرفون كيف اغتصب اسم " مصر " على أيديهم فصار إيجبت بينما إسم مصر هو هو منذ وجود الهيروغليفية والعبرية والفينيقية والآرامية والأشورية ؟

أتعرفون كيف أطلقت أكذوبة " مصر هبة النيل " لتحرم المصريين من شرف العمل والكفاح والجهد الذى كان وسيلة ترويض هذا النيل وتهذيبه والاستفادة منه ؟

كم من شعوب مر عليها النيل فلم يجعل منها هبته ؟

إنهم هم المصريون الذين اضطهدوا على يد الفتح الاسكندرى (اليونان – البطالمة) ثم على يد الرومان حتى تخلصت مصر من اضطهادهم على يد الإسلام ؟

وصل اضطهاد الرومان للمصريين والتنكيل بهم الذروة فى عصر الامبراطور ــ دقلديانوس (٢٨٤ م) فكانت أول سنة من حكمه مبدأ اتخذه المصريون لتقويمهم المعروف بتاريخ الشهداء أو التقويم القبطى ؟

ثم استمر الاضطهاد بعد ذلك أربعة قرون تقريباً كانت حصيلتها نشأة الرهبانية وفرارها إلى جبل المقطم وغيره من الصحارى وإنشاء الأديرة ؟

وجاء الإسلام فأرجع إلى مصر اسمها وأمنها وسلامها وحرمتها ؟

ولم يكن العرب غرباء على مصر قبل الإسلام : اسألوا الجيولوجيا يقول لكم إن صحراء مصر الشرقية جزء من التكوين الخاص بالبلاد العربية، والبحر الأحمر ليس إلا أخدوداً أو شقا بين الجانبين .

واقرءوا سورة الفجر لتروا كيف جمع القرآن الكريم بين العرب البائدة ومصر (عاد وثمود ... ومصر) .

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد . ﴾.

عداؤهم لنا بين سوء العرض وسوء الفهم :

ليست القضية أن المسلمين هم المسئولون عن عداء الغرب لهم ، حيث يسيئون عرضهم للإسلام ...

ولكنها على العكس من ذلك ، أنهم فى الغرب يتجاوزون سوء العرض هذا ويذهبون إلى عمق علاقتهم بالحضارة الإسلايمة ؛ باعتبارها خطراً موضوعياً على حضارتهم . إنه من السطحية والسذاجة ــ إن لم يكن من التآمر ــ أن يظن البعض منا أن المسألة ترجع إلى طريقة عرض الإسلام... وتنتهى المشكلة .

وإلا فإنه فى كل دين ، وفى كل مذهب ، وفى كل نظرية ، وفى كل أيديولوجية هناك من يسئ العرض ، ولا أحد من الجادين يتوقف عند أولئك

الذين ينبتون على هامش هذه الأديان والمذاهب ممن يسئون العرض ؛ جهلاً أو قصداً ....

فى المسيحية هناك من يسئ العرض .

وفى الديموقراطية هناك من يسئ العرض .

وفى الليبرالية هناك من يسئ العرض .

وفى الاشتراكية هناك من يسئ العرض .

ولا تكون هناك نهاية المطاف .

ويبتلى الإسلام بمن يسئ العرض من المبشرين والمستشرقين والجهلاء ..

تماماً كما هو الحال مع غيره ، لكنه هو وحده الذى يقولون عنه : لولا سوء العرض ...

يا سادة : لا تضيفوا إلى سوء العرض سوء الظن ...

يا سادة : إن فى الغرب رجالاً يحققون ، ويدققون ويذهبون إلى المصادر الأصلية ، كعلماء وخبراء وفلاسفة ، واعلاميين ....

فما هى القضية إذن ..

ليست القضية إذن قضية سوء فهم ، أو سوء عرض ..

فما هى القضية إذن : ؟

القضية أنهم هناك يدركون الخطر الموضوعى الذى يأتيهم من انبعاث الحضارة الإسلامية مرة أخرى ، ثم يذهبون يشوشون على منطلقاتهم وأهدافهم ويستأجرون العملاء من سماسرة الثقافة والاعلام ليشيعوا مقولات ساذجة تبعدنا عن أصل المشكلة وتضللنا عن جوهر القضية .

وإلا فقولوا لنا هل كان أرنست رينان متأثراً بسوء عرض الجهلاء منا للإسلام وهو يقدم كراهيته للإسلام فى ذورته الأكاديمية :

إذ يقول فى خطاب افتتاحى فى الكوليج دوفرانس حول تصنيف الشعوب السامية فى تاريخ الحضارة ... الشرط الأساسى لتمكين الحضارة

الأوربية من الانتشار هو تدمير كل ماله صلة بالسامية الحقة : تدمير سلطة الإسلام الثيروقراطية ، لأن الإسلام لا يستطيع البقاء إلا كدين رسمى ، وعندما يختزل إلى وضع دين حر وفردى فإنه سينقرض . هذه الحرب الدائمة، الحرب التى لن تتوقف إلا عندما يموت آخر أولاد إسماعيل بؤسا ، أو يرغمه الارهاب (!!) على أن ينتبذ فى الصحراء مكاناً قصيا .

الاسلام هو النفى الكامل لأوربا ، الإسلام هو التعصب ، الإسلام هو احتقار العلم ، القضاء على المجتمع المدنى ، إنه سذاجة الفكر السامى المرعبة ، يضيّق الفكر الإنسانى ، يغلقه دون كل فكرة دقيقة دون كل عاطفة لطيفة ، دون كل بحث عقلانى ، ليضعه أمام حشو سرمدى : " الله هو الله "

المستقبل هو إذن لأوربا ولأوربا وحدها ، ستفتح أوربا العالم ، وتنشر فيه الدين الذى هو الحق، الحرية ، احترام البشر ، هذا الاعتقاد القائل بأن ثمة شيئاً ما إلهياً فى صلب الإنسانية .) [1] .

أو فقولوا لنا لماذا يكتب " باول شمتز " مثلاً فى كتابه " الإسلام قوة الغد العالمية " ـ قبيل الحرب العالمية الثانية ـ ليُحذر من تواكب الحركة الإسلامية مع الحركة القومية الإسلامية " وما يمثله ذلك من خطر محدق بالغرب !!

يقول المؤلف (إن انتفاضة العالم الإسلامى صوت نذير لأوربا ، وهتاف يجوب آفاقها يدعو إلى التجمع والتساند الأوربى لمواجهة هذا العملاق الذى بدأ يصحو ويزيل النوم عن عينيه . هل يسمع الهتاف أحد ؟ ألا من يجيب [2] .)

حتى أنه يقلل من أهمية افتقاد العالم الإسلامى للتقدم التكنولوجى فى هذه المعركة التى ينذر قومه بها ، إذ يقول (من الممكن أن يعارض المرء

---

[1] كتاب " الإسلام اليوم لمارسيل بوازار " بحث الحبيب الشطى الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامى ووزير خارجية تونس الأسبق صـ ٣٤ ـ ٣٥ طبعة ١٩٨٦ ـ اليونسكو .

[2] " الإسلام قوة الغد " ترجمة د. محمد عبد الغنى شامة صـ ٣٥٦ .

هذا الرأى .. فإن الإسلام فقد سيطرته على بعض الأشـياء الماديـة ، وخاصـة ما يتصل بالحرب ، فهو لم يلحق بالتقدم التكنولوجى الحديث . ولا أستيطع أن أدرك لماذا لم يعوض الشرق الإسلامى ما فاته فى هذا الميدان ، إذ لا تحتاج العلوم الحديثة إلى طبيعة عقلية خاصة ، بل يتطلب الالمـام بهـا والتفوق فيهـا الخبرة وتوجيه الخبراء ، ومن المؤكد أنه غالبـاً مـا يحدث أن تكـون حضـارة ذات منزلة عالية فى التقدم التكنولوجى .. هى أقل درجة من حضـارة أخـرى لم تبلغ تطورها بعد فى هذا المجال ما بلغته الأولى ، إذن فهناك احتمال كبير فى أن يصبح شعب ظهر حتى الآن أن مواهبه فى الناحية التكنولوجية ضعيفة سيداً على شعب آخر استولت التكنولوجيا على حواسـه ومشـاعره ، فلم ينقذه أحد .. لماذا لا يتعلم العالم الإسلامى ما تعلمناه فى مجـال التكنولوجيـا ، وفـى مقابل هذا : سـوف يكـون مـن الصعب علينـا استعادة التعـاليم الروحيـة التـى فقدتها المسيحية ، بينما لم يزل الإسلام يحافظ عليها .) [1] .

ويبنى المؤلف تحذيره على ما يلمسه مـن مصـادر القـوة التـى يملكهـا العالم الإسلامى ؛ وهى : الموقع الجغرافى ، والخصوبة البشـرية ، والـثروات والمواد الخام والدين الإسلامى (الذى له قـوة سـحرية علـى تجميـع الأجنـاس البشرية تحت راية واحدة بعد إزالة الشعور بالتفرقة العنصرية مـن نفوسـهم ، وله من الطاقة الروحية ما يدفع المؤمن به على الدفاع عن أرضـه وثرواتـه ، بكل ما يملك مسترخصاً فى سبيل ذلك كل شئ حتى روحـه .. يحـرص علـى التضحية بها فداء لأوطان الإسلام .) .

ثم يتساءل : (أى قوة وجدانية بعثت هذه الإرادة اليوم فى الشرق ؟) ثـم يجيـب (قـوة الوحـدة الفكريـة للإسـلام ، ووجـود الإحسـاس الحـى للديـن الإسلامى ، فهو ينتصر فى كـل مكـان يـنزل فيـه الميدان مـع الأيديولوجيـات الأخرى) .

---

[1] المصدر السابق صـ ٣٥٦ .

بل إنه ليستشعر الخطر من مجرد آداء المسلمين لفريضة الحج واتجاههم إلى القبلة فى صلواتهم .. إذ يقول (إن اتجاه المسلمين نحو مكة ـ وطن الإسلام ـ عامل من أهم العوامل فى تقوية وحدة الإتجاه الداخلى بين المسلمين ، وأسلوب يضفى على جميع نظم الحياة فى المجتمع الإسلامى طابع الوحدة ، وصفة التمسك .) [1] .

بل إن ناشر الكتاب الألمانى يقدم له بهذه العبارة (باول شمتز عاش فى القاهرة عدة سنوات ويعرف جيداً الأسس التى ينبثق عنها تطلع الشعوب الإسلامية إلى الاستقلال ، الذى يعد أهم مشكلة سياسية فى الوقت الحاضر ، وهذا الكتاب يوضح الخطر المتوهج الذى يمر عليه الإنسان فى أوربا بكل بساطة ، وفى غير اكتراث ، فأصحاب الإيمان بالإسلام يقفون اليوم (قبيل الحرب العالمية الثانية) فى جبهة موحدة معادية للغرب ... وهذا الكتاب هو نداء وتحذير يجب أن يلقى الاحترام الجدى من أجل مصالح الغرب وحدها [2] .) .

هكـــذا

فهل كتب باول شمتز ما كتب لما وجده من سوء عرض للإسلام يرتكبه بعض الجهلاء من هنا أو من هناك ؟ !!!

أو فقولوا لماذ نشر المفكر الأمريكى " صامويل هانتنجتون " الأستاذ بجامعة هارفارد كتابة المعروف باسم (صدام الحضارات) وفيه يبشر لصدام مستقبلى هائل بين الديانات والثقافات الحديثة ممثلة فى الثقافة الأوربية الأمريكية الغربية من ناحية ، وبين الديانات والثقافات القديمة .. لكنه خص الحضارة العربية الإسلامية بأكثر قدر من التركيز لأنها ـ كما يعتقد ـ ستكون أولى تلك الحضارات القديمة وأقدرها على الازدهار وتحدى الغرب قريباً .. ولذلك يقول الرجل : يجب على الغرب الاستعداد من الآن لصدام المستقبل

---

[1] المصدر السابق صـ ٩٢ .

[2] المصدر السابق صـ ١١ .

هذا ، بل العمل على إجهاض قوة الحضارات الأخرى ، خاصة الإسلامية قبل أن تكتمل .) .

وهناك دراسة أخرى نشرتها مجلة الايكونومست البريطانية فى ٨ يناير عام ١٩٩٤ ، ركزت على أن مستقبل العالم مهدد بقوتين كامنتين أمامهما فرصة البزوغ ، بل الصدام مع الآخرين : هما اليابان والقوة الإسلامية المنتظرة [١] !

وها هو الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية ـــ ريتشارد نيكسون : يدرك السمة الحضارية للإسلام ، حيث يقول (إن الإسلام ليس ديناً فقط ، وإنما هو أساس حضارة رئيسية ، إننا نتحدث عن العالم الإسلامى بصفته كياناً واحداً ـ ليس لأن هناك مكتباً إسلامياً يوجه سياساته ، ولكن لأن الدول منفردة تشترك فى اتجاهات سياسية وثقافية مشتركة مع الحضارة الإسلامية ككل .) [٢] .

فهل فهم نيكسون ذلك من سوء العرض للإسلام ؟

ثم يقول ريتشارد نيكسون : (للعمل فى العالم الإسلامى فإن على صناع السياسة الأمريكية المناورة داخل وكر أفعى من سم النزاعات الأيديولوجية والصراعات الوطنية) [٣] .

والمدهش أنه يعترف بعد ذلك بأن بعض الأمريكيين (يتغاضون عن حقيقة أن الإسلام لا يشمل مبدأ ارهاب وأن ثلاثة قرون قد مرت منذ أن انشغل المسيحيون فى حروب دينية فى أوربا .) [٤] .

ثم يعترف بفضل الحضارة الإسلامية فيقول : (بينما ذبلت أوربا فى العصور الوسطى تمتعت الحضارة الإسلامية بعصرها الذهبى ، وقد أسهم الإسلام بمجهودات هائلة فى مجال العلوم والطب ، والفلسفة ، وفى كتابه

---

[١] مقال صلاح حافظ ـ الخليج ١٩٩٤/٢/٢٥ .

[٢] انتهزوا الفرصة ـ ترجمة حاتم غانم ، طبعة فبراير ١٩٩٢ صـــ ٤٠ .

[٣] انتهزوا الفرصة صـــ ٤٥ .

[٤] انتهزوا الفرصة صـــ ٤٣ .

"عصر الإيمان " لاحظ ول ديورانت أن الإنجازات الهامة فى كل الميـادين قد تحققت على يد مسلمين فى هذه الفترة ، وكـان ابـن سـينا أعظـم الكتـاب فـى الطب ، والرازى أعظم طبيب ، والبيرونى أعظم جغرافى ، وابن الهيثم أعظم صانع للآلات البصرية ، وجابر أعظم كيميائى .. وكان العلماء العرب فاعلين فى تطوير الفكرة العلمية .. وعندما دفع الرجـال العظـام مـن عصـر النهضـة الأوربية إلى الأمام حدود المعرفة .. فقد رأوا أكثر لأنهـم وقفـوا علـى أكتـاف العمالقة من العالم الإسلامى .) [1] .

ثـم يقــول ريتشــارد نيكســون (إن حضـارتنـا ليسـت متفوقـة علـى حضارتهم الموروثة ، إن شعوب العالم الإسلامى كانوا أكثر مقاومـة لجاذبيـة الشيوعية من مقاومة أولئك فى الغرب ، وإن رفضهـم الواسع للماديـة وثقافـة الغرب الأخلاقية المسموح بها ـ أى فى الغرب ـ رجعت عليهم بالفضل .) .

وطيلة خمسة قرون من ٧٠٠ إلى ١٢٠٠ م ـ كمـا يقـول نيكسـون ــ فـإن العـالم الإسـلامى تقـدم وتفـوق علـى العـالم المسـيحى فيمـا يتعلـق بـالقوة الجيوبوليتيكيـة ، ومسـتوى المعيشـة ، والمسـئولية الدينيـة ، وتقـدم القوانيـن ، ومستوى تعلم الفلسفة ، والعلوم والثقافة .

ثم يرجـع انحسـار الحضـارة الإسـلامية إلـى انتصـارهـا فـى الحـروب الصليبيـة ، كمـا يرجـع تفـوق الغـرب إلـى انهزامـه إذ يقـول (إن عقـوداً مـن الحـرب قلبت الطـاولات ، وكمـا كتب ديورانت : إن الغـرب خسـر الحـرب الصليبية ، لكنه ربح العقائد (!!) ، وتم طرد كل محارب مسيحى من أرض اليهودية والمسيحية المقدسة (كذا !!) . لكن الإسلام استنزف نتيجة انتصـاره المتأخر ، ودمر وخرب على يد المغول ــ بالمقـابل ــ فـى عصـر مـن ظـلام الغموض والفقر ، بينما المهزوم مدفوعاً بـالجهد ونسـيان الهزيمـة تعلـم كثيراً من عدوه ، ورفع الكاتدرائيات فى السماء ، وعبر بحور العقل ، وحوّل لغاتـه الجديدة إلى لغة دانتى وفيلون ، وتحرك بروح معنوية عالية إلى النهضة)[2].

---

[1] صـ ٤٣ .

[2] انتهزوا الفرصة صـ ٧٦ .

فهل كتب نيكسون ما كتب تحت سوء عرض منا للإسلام .

وحين أصدر جان بيرك ترجمته لمعانى القرآن عام ١٩٩٠ نجده يبرر اهتمامه بتقديم معانى القرآن للغرب بقوله (لأن الكثير من المفكرين والناس الآن ينبذون الصورة المادية للحياة المعاصرة ، ويرفضون مجتمع الاستهلاك ، هذا المجتمع المادى المحض .. ويفضلون على المدنية المعاصرة مدنية الإسلام الروحية وينادون بالعودة إليها) ، ولما كان قد قدم فى ترجمته للقرآن الكريم معانى القرآن مشوهة فكأنه أراد أن يقول للمفكرين الغربيين الذين أصبحوا يرفضون حضارة الغرب الآن ويرون أنها على وشك الانهيار، لأنها فقدت الأساس الروحى والأخلاقى .. يريد أن يقول لهم : وهذا هو الإسلام أيضاً ملئ بالخرافات والتناقضات ..) ألخ [1] .

أما جان بيرك نفسه فيكاد يلتمس لنفسه العذر فيما يكون قد حدث من مخالفة فى ترجمته للقرآن الكريم بالرجوع إلى وجوب الأخذ بالمنهج التاريخى إذ يقول : (يبقى صحيحاً القول بأن الديناميكية الدينية ذاتها تتطور عبر التاريخ – ليس فى مبادئها وأصولها بالطبع ، ولكن فى صياغتها وأشكالها وتطبيقاتها ؛ فتلك أشياء خاضعة للتأقلم والتطور وتختلف باختلاف العصور والأزمات) [2] .

ومن الواضح لدينا أن استثناءه (المبادئ والأصول) من عملية التأقلم.. الخ ، ليس إلا تغطية لفظية للهدف ، الذى هو أيصال الديناميكية الدينية التاريخية إلى (صياغة) المبادئ والأصول ، وما ذلك إلا صياغة كلمات الله تعالى ما دمنا بصدد ترجمة القرآن الكريم !

وهذا المنهج التاريخى هو المدخل " الحديث " لنسف آصالة المسلمات الإسلامية .

---

[1] مقال رجب البنا صـ ٩ ، الأهرام ١٩٩٤/٣/٦ .

[2] الأهرام ١٩٩٥/٧/٢٩ .

فهل ذهب جان بيرك إلى ذلك نتيجة سوء فهم أوسوء عرض .

أهو سوء عرض منا ذلك الذى جعل منصّراً مثل : بروس ج. نيكولز يدرك حقيقة الإسلام بدقة يغبط عليها حين يقول :

إن الإسلام هو أكثر من عقيدة دينية ، إنه نظام متكامل للحياة والدين. فالإسلام يدمج كل المؤسسات الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية على أسس الإيمان والاقتناع والالتزام بقبول الله رباً ، والاستسلام كلية لإرادته ، ثم يستمر قائلاً :

(إن مركز الابداع فى الإسلام هو التوحيد ، أى الشهادة بأن لا إله إلا الله ، والتوحيد يعنى أن الله هو الخالق أو السبب الجوهرى لكل الوجود والنشاط ، ويؤكد أن الإنسان هو المسئول عن تحقيق إرادة الله) .

ثم يستمر قائلاً (ففى المؤتمر الإسلامى الدولى الذى عقد فى لندن فى نيسان (أبريل) ١٩٧٦م حول " الإسلام وتحديات العصر " ، تم تقديم الإسلام كنظام متكامل من القيم ومصدر إلهام لكل منجزات العلم والدراسات الإنسانية والمصدر الوحيد الراسخ للإيمان والسلوك .) [1] .

كيف يمكن القول إذن بأنهم يحاربون الإسلام لأنهم لم يفهموه .

إنظروا مثلاً إلى الفهم الصحيح للإسلام الذى يقدمه المنصر كينيث أ . كراج عن الإسلام ، حيث يقول :

(دعونا نواصل الحديث عن الجسور ، إن للقرآن والإنجيل أرضية مشتركة من الإيمان بالخلق : " هو (الله) الذى يقول كن فيكون " ، إن الخلق المبدع هو لله والأرض الطيبة كذلك ، والتى ينظر إليها على أنها مسكن الإنسان ومجال نشاطه و"الأمانة" التى حملها ، والإنسان هو " خليفة " الرب فى "حكم" النظام الطبيعى ، وهو فى ذلك مسير بإرادة إلهية ، وتفهم الغاية الإلهية

---

[1] أنظر كتاب " التنصير : خطة لغزو العالم الإسلامى " وهى تضم مجموعة أعمال المؤتمر الذى عقد عام ١٩٧٨ بكولورادوا بالولايات المتحدة الأمريكية ، ونشرته دار MARK ، ونشر بالعربية .... صـ ٢١٤

بالنسبة للعالم من خلال تسخيره للإنسان الفلاح والزارع والتقنى والفنان والعالم الذى يمتلك ويستكشف ، ويستغل العالم بتفويض إلهى ، كما أنه يكون مسؤولاً عن أعماله هذه أمام الرب ، فالإنسان مخلوق أدنى من الرب ، وهو عبد للسلطة الإلهية ، وخليفة ومندوب فى مواجهة الطبيعة .

من هذا المنطلق توجد جوانب عديدة من الفهم المشترك تساعدنا على القيام باتخاذ الموقف الصحيح فى وجه كل ما من شأنه أن يتعدى على الكرامة الإنسانية والمجال الإلهى ، وليس فقط فيما يتعلق بالقضايا المعاصرة كالسلطة والبيئة ، والمسؤولية عن الموارد والعدل الاجتماعى والتراحم ، بل بأكثر من هذا ، والقرآن (سورة ٢ : ٣٣ وما بعدها) يرى أن الشيطان هو رأس الاتهام، فبعد أن اعترض على خلافة الإنسان ، ثم تمرد على الرب لنفس السبب ، فإن هدفه التاريخى هو إغواء البشر وتشتيت وإفساد العمل البشرى والثقافة حتى يستطيع أن يثبت للرب خطأ ما قام به بتكريمه للدور الإنسانى ، وهذه الموضوعات مثيرة جداً ، وإذا كان من الواجب " أن ندع الرب يكون رباً " يجب علينا كذلك " أن نجعل الإنسان يكون إنساناً " . ومن هنا بالطبع كانت ضرورة الهدى كما يطلق عليه الإسلام ، والذى يسترشد به الإنسان فى أزمة مصيره عبر التاريخ ، ومن هنا أيضاً جاء تعاقب الأنبياء المرسلين لتحذير وتوجيه الاستجابة البشرية ، إذن فالنظرة القرآنية إلى الأنبياء فى التاريخ لا تختلف كثيراً عن مرامى أمثلة المسيح عن الكرم والكرامين والرسل ، فخصوصية مهمة اليهود غير واردة ، ولكن مسؤولية الإنسان أمام الرب فى تسخير الطبيعة عبر التاريخ حقيقة هامة فى المفهوم الإسلامى للخلق، وفى مكانة النبوءة المتميزة فى التاريخ .

هنا تبرز بالطبع بعض العقبات ، ولكن قبل أن نتطرق إليها هنالك بعض السمات القرآنية الأخرى لمخلوقية الإنسان الأساسية ، والتى تساعدنا فى مهمتنا ، فالطبيعة تحت وصاية الإنسان هى بالنسبة للقرآن دنيا من الآيات، وهذا اللفظ موجود فى كل صفحة من صفحات القرآن تقريباً ، إن

الآيات تشد الانتباه ، وهذا هو أساس العلم كله فالإنسان يلاحظ ويراقب ويصنف ، ثم يسخر الظواهر الطبيعية ، والإسلام هنا يشعر بالفخر والاعتزاز فى تشجيعه السيادة الإنسانية من خلال اليقظة الماهرة والقيام بالجهد اللازم وبكل دقة ، ونحن ننحنى لننتصر ، فالطبيعة لم تعط العلوم من خلال طرح بيانات معينة ، بل حقق ذلك الإنسان من خلال التساؤلات التى طرحها على الطبيعة "والتى" قامت بالرد عليها .

غير أن اليقظة التى تتطلبها هذه الآيات هى أكثر بكثير من كونها عقلانية .) .

ثم يقول : (إن النفور الموروث لا يزول بسهولة ، وكثيراً ما يؤكد القرآن على أنه قدم بطريقة تسهل على الناس فهمه ، فالقرآن ليس طلمساً قصد به إخفاء الحقيقة من خلال التعبير والأخبار ، كما تدعى ذلك فئة من الأحبار ، ونحن لن نندم إذا درسنا وتتبعنا جدية القرآن ، ومن ثم اكتشفنا الوجهة التى يقودنا إليها ، وبتسخير كل ما لدينا من صدق ودهاء من أجل المسيح علينا أن نتنبه إلى جدية القرآن ، وهذا شئ كأن من المفروض أن نقوم به منذ زمن طويل جداً .) .

ثم يقول : (وهذه أمور بالطبع تتعلق بفهم الإنسان وفهم المسيح ، وهما مفهومان يكملان بعضهما بعضاً ، لقد رأينا كيف يشرع الإسلام فيما يخص الله ، والإنسان ، وإضافة إلى ذلك يرى القرآن أن هذا التشريع يلائم الطاعة فى وجود شروط معينة تمثلها بصورة عامة الدولة الإسلامية التى أنيط بها النظام السياسى منذ الهجرة ، ويأتى بعد ذلك نمط الحياة اليومى (الصلوات اليومية الخمس والصوم والحج والزكاة) ونظام التكافل الاجتماعى فى الأمة الإسلامية ، وعلى ضوء هذا وبالإضافة إلى فحوى التقاليد التى تدعمها وتعززها فقد نظر الإسلام إلى الإنسان على أنه يمكن أن يتحسن حتى يبلغ درجة الكمال ، فالإسلام واثق بأن التشريع فى القرآن والرحمة فى المجتمع والسنة التى يمكن أن تحتذى والانضباط فى الأنماط الاجتماعية

والرعاية التى يمكن أن يوفرها نظام الحكم الإسلامى ستكون كافية لتحقيق واجب الإنسان والدعوة الموجهة إليه لعبودية الله ....

إن الكتاب المقدس يركز بشكل كبير على مسألة الرحمة والغفران الكافية لأن نولد من جديد المسيح المصلوب ، وهنا فإن الكتاب المقدس الذى يدعو إلى أن عيسى هو المخلص يلزمه أن يواجه الحيرة الأساسية والكراهية الراسخة فى الإسلام لهذا المفهوم ، ولكن حتى هنا وبسبب صعوبة المهام التى نواجهها هنالك بعض الأمور اللاهوتية العقيدية التى ينبغى توضيحها .

انطلاقاً من مقطع هام فى القرآن (٤ : ١٥٧ وما يليها) ونتيجة لاعتبارات أخرى فى اللاهوت الإسلامى ، فإن الإسلام يرى :

أ - أن المسيح لم يصلب .

ب - أن الصلب ما كان من الواجب أن يحدث .

جـ - أن الصلب لا حاجة له أن يحدث .

فالإسلام ينكر حدوث الواقعة تاريخياً ويرفض احتمال حدوثها على أساس أخلاقى كما يرفض الضرورة لها على أساس عقائدى .) .

ثم يقول : (فالمسلمون يعتقدون أن يسوع ما كان ينبغى أن يتعذب بهذا المعنى الذى يتضمن عجز الرب فى الدفاع عن خادمه (بل وأكثر من هذا إن قلنا ابنه !) . ومن هذا المنطلق فإن الرب " يودع قدرته " فى حقيقة أن المسيح لم يمت علاوة على ذلك فإن تحمل عقاب الإثم نيابة عن الآخرين ليس من الأخلاق فى شئ . فالقرآن يقول ﴿ **ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ (سورة ٦ : ١٦٤) . إذ ليس من العدل معاقبة (أ) لذنب ارتكبه ، (ب) ، ولهذا فالمسلمون يشعرون بأن فكرة البديل النصرانية هى فكرة غير أخلاقية إلى حد بعيد .) .

ثم يقول : (ولكن هل هذه المعاناة التى تفتدى الإنسان ضرورية للقدرة الكلية الإلهية ، فالإسلام يقول أن رحمة الله تسع جميع مخلوقاته

والقرآن يؤكد : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾ (٨٢:٣٦) . وهذا يعنى أن المغفرة الإلهية عمل مهيب يحدث دون جهد ، ولهذا فإن فكرة " المخلص " الذى " مكن " الرب من أن يغفر لنا توحى بالعجز الربانى ، فهل يحتاج الرب أبداً " للمساعدة " من أجل تحقيق إرادته ؟ وهذا يوضح أننا نحتاج لأن نكون فطنين وحذرين جداً فيما نقوله أثناء الدعوة خشية الوقوع فى مفاهيم خاطئة ، ما هى الطريقة التى يمكن أن نوضح بها " ضرورة " الصليب باعتباره شكل ومضمون القدرة الربانية فى المغفرة ؟ هل يمكن لمغفرتنا ـ إذا جاز التعبير ـ أن تكون مشكلة الرب ؟ .) [1] .

إذن فالأمر فى دائرة التنصير لا يرجع إلى سوء الفهم ، أو سوء العرض ، ولكنه يرجع إلى ما يقول جورج بيترز فى بحثه بعنوان " نظرة شاملة عن إرساليات التنصير العاملة وسط المسلمين " .

(إننى أميل إلى الاتفاق مع فاندر وزويمر وفريتك وآخرين فيما ذهبوا إليه من الإسلام حركة دينية معادية للنصرانية ، مخططة تخطيطاً يفوق البشر لمقاومة إنجيل ربنا يسوع المسيح ، إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية ، وترفض بكل وضوح موثوقية وصحة الإنجيل وأبوة الرب ، وأن المسيح ابنه ، وضرورة موته وكفايته لمفهوم الخلاص ، وتبرير بعثه . إنه الخلاف الأكبر فى النصرانية وفى الكتاب المقدس أملنا فى الخلاص .

ولكن محرك هذا الخلاف هو الإسلام وليس النصرانية وفى ذات الوقت فالنظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعياً وسياسياً ، ويفوق فى ذلك النظام الشيوعى (!!) ، ولكن هذه الحقيقة يجب ألا تحبط عزم

---

[1] أنظر المصدر السابق .
من صـ ٢٧٤ إلى صـ ٢٨١ .

المنصرين ... (ثم يقول : (إن الإله الموجود فينا !! أعظم الإله الموجود فى العالم ، وأعظم حتى من الإله الذى يتحدث عنه الدين الإسلامى .) [1] .

*****

فأين القضية إذن ؟

هل ترجع كما يشيع البعض إلى سوء الفهم أو سوء العرض ؟

وأنظروا ما جاء عن العداوة المغرضة التى تصل إلى جذور البرامج الدراسية فى الغرب : وقولوا لنا : هل تقررت بدافع سوء عرض منا للإسلام.

يقول مارسل بوازار : (فى الولايات المتحدة الأمريكية تتهم لجنة من جميعة دراسات الشرق الأوسط الكتب المدرسية برداءة الاعلام عن الإسلام ، وبالأخطاء فيما يتعلق بالوقائع التى تتضمنها عن المسلمين ، نتائج التحقيق الذى قامت به اللجنة مفزعة .. كتب التاريخ العام المدرسية تخصص عموماً ٨ ٪ على أبعد تقدير من محتواها للشرق الأدنى والأوسط ، معظم هذه المادة غير كافية ، فضلاً عن أنها تعالج أساساً الحضارات القديمة ، حضارات بلاد الرافدين ووادى النيل ولا تتحدث عملياً عن تاريخ الثقافة الإسلامية ، ومن جهة أخرى : محررو هذه الكتب المدرسية يُظهرون مثل المدرسين مسبقات كامنة ، معززة بتحرير ناقص ، وببحث قليل الدقة وبتقديم غير سديد، وهكذا فإن التلاميذ الأمريكيين عندما سئلوا لم يجيبوا عن الإسلام إلا كدين وكثيراً منهم زعموا أنهم لا يعرفون المسلمين إلا فى منظور حركة المسلمين السود " بلاك مسلم " .

وأجريت مؤخراً دراسة أخرى محددة جغرافياً بمنطقة واشنطن استنتج منها أن ١٥ ٪ فقط من الكتب المدرسية المتوافرة يمكن أن ينصح بها كأدوات تربوية ، أما الانتقادات الرئيسية فهى الآتية : ـ

---

[1] المصدر السابق : التنصير خطة لغزو العالم الإسلامى من صـ ٥٤٩ إلى صـ ٥٦٨ .

– قلما قدم الإسلام كإحدى ديانات التوحيد الكبرى فى العالم .

– حوكم التاريخ والحضارة العربية بميزان المعايير العرقية الخالصة .

– استخدمت قوالب فظة ، مقدمة فى أسلوب تحقيرى لوصف حضارة العرب.[1] .

وفى الكتب المدرسية الفرنسية :

يخص الرسول ﷺ الذى مازال يكتب بطريقة مغلوطة : –

بنعوت قيمية محددة .

محمد الفقير يشعر بالأمن بفضل زواجه .

وخلال سفره التقى بيهود ونصارى .

وبتكريسه أوقات فراغه للتأمل حصلت له رؤي " على طريقة الأنبياء" وقرر التبشير : بـ " الرب – الله . " .

أخرج من مكة فظل مشغولاً باسترجاعها .

منذ البداية التجأ للعنف .

مكنه فئة فى قيادة الجموع (!!) من توحيد أنصاره الذين زرع فيهم روح التعصب ووعدهم بالجنة إذا ماتوا فى سبيل " الحرب المقدسة " .

أما تقديم الإسلام – فى تلك الكتب المدرسية فإنه يجمع جميع القوالب: التعصب ، الخضوع ، الاهمال ، الاستسلام .. إلخ .. الإيمان الإسلامى ليس جديداً – قلد واستعار كثيراً ، خاصة من اليهودية ، عقيدته هى من أكثر العقائد بساطة ، وممارساته الثقافية محدودة جداً .

---

[1] أنظر كتاب " الإسلام اليوم " لمارسيل بوازار ، ترجمة ونشر اليونسكو ، صـ ٢٢ إلى صـ ٣٠ .

الفتح العربى يوصف دائماً بـ " الصاعق " كتاب مدرسى واحد أشار إلى أن دوافع التوسع لم تكن دينية حصرا ، أما بالنسبة للكتب الأخرى فتفسير ذلك هو فى الجبلة الحربية للعرب الذين أعمتهم رغبتهم فى فرض الإيمان على الكفار .

تضيف إلى ذلك بعض الكتب : الضعف الداخلى للدول التى ستفتح ، ورغبة البدو فى الخروج من الصحراء الحارقة للاستيلاء على المدن .

أدت الحرب المقدسة إلى صراع رهيب بين الصليب والهلال ، سبب المسلمون (الذين يسمون سراسنة) خراباً مخيفاً فى حوض البحر الأبيض المتوسط .

وأخيراً عندما يعالج مؤلفو هذه الكتب الثقافة الإسلامية لا يخشون الوقوع فى التناقض : بينما الحرب المقدسة قضت بالاختفاء على كل فرد غير مسلم .. نجد أن اليهود والمسيحيين فى الأراضى المفتوحة هم الذين كان لهم نصيب الأسد فى ميلاد الحضارة الإسلامية ، هذه الأخيرة التى ليست سوى اقتباس : خليط وانتحال .. طابعها الجوهرى هو افتقاد الأصالة .. لدرجة أن بعض الكتب المدرسية فى تمارينها – التى من المفروض أن تشغل فكر التلميذ النقدى – تطلب فى سؤال إيحائى أن يشرح : (فى أى مجال تفتقد الحضارة الإسلامية الأصالة ؟) .

كل شئ فيها تقليد : العلوم الطبيعية والإنسانية ، الفن ، الأدب ، وحتى المعمار ، – وهو مجال يعترف فيه للمسلمين – عادة – بالتفوق – ليست حسب الكتب المدرسية سوى تقليد .

وفى التعديلات التربوية الأخيرة التى أعدت فى فرنسا يبدو الإسلام كثقافة ماض " مشرّحة " وكدين للفقراء ، تمت مماثلة مع العمال المهاجرين غير المتخصصين : لم تعد صورة المجتمع صورة قوة تناحرية خطيرة ، كما تستخلصها الكتب المدرسية القديمة ، بل هى بالأحرى شبيهة بصورة حضارة ميتة تصدّر يدها العاملة .

هل يعود السبب لتبرير إيديولوجى ؟ أم لتأثيرات عرقيـة ؟ أم لقصـور مؤلفى الكتب المدرسية ؟ يظل السؤال مطروحاً ، لكن مما لا شك فيه أن ظلماً دائماً انصب على الإسلام والمسلمين .) [(١)] .

إننا نؤكد أن هؤلاء عندما يختارون موقع العداء للإسلام وحضارتـه ، ويصفونه بوكر الأفعى ، كمـا فعـل نيكسـون ، فـإن ذلـك لا يرجـع فـى الأعـم الأغلب ـ كما يشيع البعض ـ إلى سوء عرض منا ، أو سوء فهم منهـم ، ولا يرجع إلى ما عليه حال المسلمين اليوم من تخلف ، أو ما عليـه حـال بعضهـم من تطرف ، ولكنه يرجع إلى اختلاف جذرى فى أصول كل من الحضـارتين، وفى الوقت الذى يدركون فيه ذلك يدركون تحرك كـل منهمـا نحـو العالميـة ، فيجعلهم ذلـك يفزعـون إلـى خططهـم المدروسـة فـى الإسـاءة إلـى الإسـلام ، وتشـويه صورتـه عمـداً ، وبكـل مـا يملكـون مـن وسـائل الدفـاع عـن الذاتيـة الخاصة .

وشهد شاهد فى جريدة عصرية ، يقول :

(لا أعتقد أن الأحداث سبق أن تدافعت وتراكمت على الأمـة العربيـة فى شكل سلسلة مـن التحديـات المعقدة والمرهقة بمثـل مـا جـرى فـى الآونـة الأخيرة .

حتى يبدو الأمر وكأننا قوم مستهدفون من الشـرق والغـرب علـى حـد سواء .

وأنه بينما يعم المجتمع الدولى بأسره موجة من التفاؤل ....

فى ظل الوفاق العالمى بين القوتين ... فإن الأمر يبـدو مغـايراً تمامـاً فـى عالمنـا العربـى [(٢)] الـذى هبت عليـه ريـاح التشـاؤم وتولـدت فـى ربوعـه

---

(١) مارسيل بوازار : " الإسلام اليوم " صـ ٢٦ ـ ٢٩ .

(٢) ولـو أدرك جوهـر القضيـة لقـال الإسـلامى : أنظـر أفغانسـتان ، وباكسـتان والفلبيـن ، وقبرص وأريتريا ، وجنوب السودان .. إلخ .

أحاسيس القلق ، من مجرد رصد ما هو قادم إلينا وما يجرى تصديره لأوطاننا، بدءاً من هجرة اليهود السوفيت ، ومروراً بمحاولات تغيير الأوضاع القانونية لمدينة القدس [١] ، ووصولاً إلى النوايا الرامية لإبقاء بؤر التوتر على حالها كأنها أشبه بسرطان ينخر فى جسد الأمة ، سواء فى لبنان أو فى الخليج ، إضافة إلى ما يجرى فى الضفة والقطاع من ممارسات بربرية يشيب لها الولدان [٢] .

ويشهد رئيس تحرير الجريدة فيقول .

(كان انزعاجنا شديداً ونحن نتحدث عن هجرة اليهود السوفيت إلى الأرض العربية المحتلة فى إسرائيل .

وكنا محقين فى انزعاجنا وتحسبنا للأخطار ، رغم أننا كنا نتخوف من هجرة عشرات أو بضع مئات الألوف ، وبحد أقصى نصف مليون مهاجر إلى إسرائيل خلال خمس سنوات .

الآن ماذا نقول وماذا نفعل وقد تكشفت الخيوط ، واتضحت معالم الصورة [٣] فإذا بما كنا نتخوف منه من قبل لا يمثل إلا أقل القليل مما تتوعدنا به من مخاطر هذه المؤامرة الكبرى [٤] .

إذن فهو خروج يهودى كبير آخر ، يذكرنا بالخروج اليهودى من أوربا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية الذى اتجه إلى فلسطين الجريحة عام ١٩٤٧ وساهم فى صنع نكبتها ..) .

(إن القضية ليست قضية مخاطر تهدد شعب الضفة وغزة فقط ، ولا الشعب الفلسطينى ككل ، وإنما قضية مخاطر تهدد الدول العربية كلها .. بعضها مهدد بالخطر عاجلاً والآخر لن يتأخر طويلاً .) [٥]

---

[١] يشير إلى قرار الكونجرس الأخير باعتبار القدس عاصمة موحدة لإسرائيل .

[٢] مقال بالأهرام ١٩٩٠/٤/٥ صـ ٨ .

[٣] معالم الصورة كانت واضحة منذ قيام إسرائيل فى خريطتها من النيل إلى الفرات !!

[٤] إنها كبرى منذ الأندلس إلى تركيا إلى إسرائيل ..

[٥] الأهرام ١٩٩٠/٤/٦ .

ويقول الصحفي الكبير صلاح الدين حافظ بعد رحلة إلى أمريكا : (إن الانحياز الأوربى الأمريكى للمسيحيين فى " الشرق " عامة ، وفى " مصر " خاصة ، ليس حباً لذواتهم ، ولكن تحت تصور أنهم سلاح تفكيك لوحدة الأمة وعنصر طعن ضد الأغلبية .

وبقدر ماهناك فى الغرب الأوربى الأمريكى من نقد أحياناً للإسلام والمسلمين ، فإن هناك أيضاً نقداً واضحاً لأقباط مصر على وجه الخصوص، وحين تساءلنا بعجب جاءت الإجابة أكثر عجباً .. ذلك أن أقباط مصر مازلوا يرفضون الانحياز " الأعمى " للمسيحيين " الأوربيين والأمريكيين ، ويفضلون بقاءهم كجزء من قوميتهم المصرية ، ومن حضارتهم العربية ..) .

ثم يقول صلاح الدين حافظ :

(علينا أن نستشرف المستقبل ونستعد له .

والمستقبل الذى أراه ــ بتواضع شديد ــ هو الذى سوف تعود فيه حركة التاريخ إلى الصدام التاريخى القديم .. صدام الغرب الأبيض مع الشرق الملون [1] .

خاصة إذا نجحت خطة تفكيك الاتحاد السوفيتى الجارية الآن ، لأنها تمثل التجربة الأولى وبعدها تتوالى المحاولات .

صراع المستقبل لن يتركز حول صراع الأيديولوجيات السياسية الذى ساد خلال نصف القرن الأخير بين الماركسية والرأسمالية .

ولكن صراع المستقبل سوف يكون صراع قوميات [2] ، وديانات [3] حيث الاستقطاب سيكون حاداً بين حضارات الغرب البيضاء الحديثة ، وبين

---

[1] عفواً ليست معركة ألوان فى جرعة تزييف أخرى .

[2] محشورة حشراً .

[3] صح النوم !

حضارات الشرق وديانته القديمة ، بما فيها حضارات اليابان والصين والهند ، والعرب والأفارقة ، مرة أخرى صراع ديانات وقوميات .) .

ويقول الكاتب السياسى الأستاذ محمد سيد أحمد عما يدور حالياً بيننا وبين الغرب (هل هى صيغة عصرية للحروب الصليبية ؟) معلقاً بذلك ــ فيما ينقله عنه الدكتور محمد عصفور على الأخطار الكامنة فى المخططات الأوربية ، لأنها تطرح صورة للمواجهات عن منطقة البحر المتوسط توحى بأنها بين أوربا المسيحية من جانب والصحوة الإسلامية من جانب آخر ، وأن أوربا المسيحية أصبحت تستخدم الدولة اليهودية درعاً لها فيما سوف يبدو لعرب عديدين صيغة عصرية للحروب الصليبية على مشارف القرن الواحد العشرين ، وأن هناك مشاعر مكبوتة عارمة وإحساساً طاغياً بالإحباط عم أمتنا العربية بأسرها وأن مخططات السلام لابد وأن تبدو فى مثل هذا السياق مؤامرة صليبية صهيونية تستهدف تجريد الأمة العربية من روحها ومن هويتها .

وقد نبه الأستاذ محمد سيد أحمد إلى أن المؤسسات الأوربية ليست فقط بصدد ضم إسرائيل إليها ، بل إنها فى الوقت نفسه تعمل من أجل حث الأقطار العربية على التسليم بدور متميز لإسرائيل فى المنطقة [1] .

فليقولها صريحة : صراع ديانات أو حضارات !! دماء مسفوحة فى قدس الذاتية ؟ صح !!

هكذا قلنا منذ مطلع هذا القرن !

وهكذا ندفع اليوم فاتورة الحساب !

آسف : لم نقلها نحن منذ مطلع هذا القرن ، ولكن قالها قوادهم ومخططوهم ، وسياسيوهم ، ومؤتمراتهم ... !!

---

[1] أنظر جريدة الوفد ١٩٩١/٨/٥ ، والأهالى ١٩٩١/٧/١٣ .

قالها القس زويمر ، والقس جيمس كانتين ، والقس ينغ ، والقس اكسنفلد ، والقس سيمون [1] .

وقالها ويليام جيفورد ويلجراف فى المؤتمر التبشيرى بلكنو (متى توارى القرآن ومكة عن بلاد العرب ، يمكننا أن نرى العربى يتدرج فى سبيل الحضارة (!!!) التى لم يبعدها عنه إلا محمد وكتابه .) .

وقالها اللورد هانوتو (إن الدين الإسلامى يبعث فى الإنسان الخمول والكسل ولا يوقظه منهما ، وإن تقدم المسلمين مستحيل ونجاحهم بعيد لأن الإسلام معتقدهم يحول دون ذلك ، وأن كل حكومة انفصلت عن الشرق وسارت على منهاج أوربا علماً ومدنية نجحت .) .

قالوها ثم جاءت سلسلة الأحداث لتصدق ما قالوا :

فى تركيا ، ومصر ، وفلسطين ، ولبنان ، وقبرص ، وفى شرق أوربا فى بلغاريا ، ويوغوسلافيا ..

وفى الجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى ، وفى الفلبين ، وكشمير ، وأندونيسيا ، وفى نيجيريا وأريتيريا وتنزانيا وجنوب السودان.. إلخ وفيما يحدث للمتحجبات فى فرنسا ، وبريطانيا (!!)

لكن هل وصلنا بهذا إلى القاع الذى لا قاع بعده ، وعندئذ لم يبق إلا الصعود كما يقول أصحاب التغيير المادى الميكانيكى للأحداث ؟ !

كلا ، فهناك فى اتجاه القاع ما هو أسفل منه ، إلى باطن الأرض .

إلى عملية الاستئصال .

لا تستغربوا .

واقرءوا مراسيم الملكية جوانا " عودة إلى الأندلس " !! مرة أخرى .

---

[1] أنظر سعيد حارب فى كتابه (الخليج العربى أمام التحدى العقدى .) والغارة على العالم الإسلامى ، والصفحات السابقة من هذا الكتاب .

شرقنة الإسلام

رفقاً بعقولنا أيها السادة ؟

كيف تريدون منا أن نرجع هذه العداوات جميعاً إلى سوء العرض منا ؟؟ أوسوء الفهم منهم ؟

أهو الاعلام الغربى ؟

فأنى لدعاة الإسلام أن يخترقوا سور الصين الاعلامى العظيم هذا ؟ بينما أن " الاعلام " فى بلادنا قد تم اختراقه من هناك ؟ إن القوم فى الغرب صنعوا لأنفسهم هذا السور ضد الإسلام بإرادة ووعى !!

فأين مسئولية البشر داخل هذا السور ؟؟

كيف يقال إنهم ضحايا هذا السور ؟؟

ألم يخترق جماهيرهم أسواراً ضربت عليها من قبل ؟

وإلا فقولوا لنا :

لماذا كانت إذن ثورة البروتستانت على وصاية الكاثوليكية ؟

ولماذا كانت إذن الثورة الفرنسية على الكنيسة والإقطاع ؟

ولماذا كانت إذن الثورة الروسية على الاقطاع والرأسمالية ؟

ولماذا كانت إذن المقاومة الدامية فى الحرب العالمية الثانية ضد النازية . ؟

أليس من الظلم الخبيث أن يجرى تبسيط القضية باغفال مرتكبها العاتى هذا ليشار بعد ذلك إلى المتهم بغير دفاع : سوء العرض منا ؟

وإذا كان من الحق أن سور " الصين " الاعلامى الغربى الحديث — مع توابعه من أبواق الاعلام الشرقى ....

هو ما يقطع الطريق بين الحضارتين إلى حسن الفهم أو حسن العرض ....

فإن جريمة " المؤسسة الاستشراقية " هى الرافد الأساسى لهذا السور ، وهى العامل الأساسى فى تشويه صورة الإسلام عمداً فى الغرب .

وأسألوا " ادوارد سعيد " عن ذلك ، عما أسماه " شرقنة الشرق " فى معسكر الاستشراق ، هذه الشرقنة التى وضعت الإسلام فى سجن التصور الاستشراقى منذ صلة أوربا بالشرق حتى اليوم .

فأنى لنا أن نخرجه من هذا التصور السجين بينما لا يزال كبار المثقفين منا يُحرّقون البخور تحت أقدام المستشرقين ؟

إنه بالرغم من ادعاء الغرب الموضوعية فى المنهج العلمى فقد أصبح من الواضح ـ طبقاً لدراسة " ادوارد سعيد " أنه فقد هذه المنهجية تماماً فى دراسته للشرق فى جميع أدواره ، إذ أصبح الشرق عنده هو الشرق الذى يصنعه لأغراض فى المعرفة والسلطة ، أو هو الشرق الذى يشرقنه " على حد تعبير إدوارد سعيد " .

وكما يقول نورمان دارييل ـ حسب الدراسة التى أشار إليها د.إدوارد سعيد [1] : ـ

لم يكن الغرب ليقبل أن ما يقول المسلمون إنهم يؤمنون به هو فعلاً ما يؤمنون به إلا بدرجة كبيرة من التقاعس .

فقد كان ثمة صورة مسيحية ـ أى عن الإسلام ـ لم يتخل الغرب عن تفاصيلها ـ حتى تحت ضغط الحقائق الواضحة ـ إلا إلى أدنى درجة ممكنة ، أما خطوطها العامة فإنه لم يتخل عنها أبداً .

وكانت جميع التصويبات التى أدخلت ... مجرد دفاع عما كان قد اتضح حديثاً أنه عرضة للنقد ، أى تدعيماً لبنية طرأ عليها الضعف ، فالرؤية المسيحية كان نُصُبًا عالياً لم يكن يمكن أن يقوض حتى من أجل إعادة بنائه .)

وقد ازدادت ـ كما يقول د . إدوارد سعيد ــ هذه الصورة المسيحية الصارمة للإسلام حدة وتوتراً بطرق لا تحصى .

كان بينها ـ خلال العصور الوسطى وأوائل عصر النهضة تشكيلة واسعة .. وبحلول هذا الوقت كان الشرق الأدنى قد أدغم تماماً فى التصور

---

[1] الاستشراق : الانشاء . المعرفة . السلطة . للدكتور : إدوارد سعيد

المسيحى اللاتينى للعالم ، على نحو ما حدث فى أغنية رولان ، حيث تصور عبادات العرب على أنها تشمل ماهومت ، وأبولو [١] .

وماهومت فى اللفظ الأوربى هو محمد ﷺ !!

يقول د. إدوارد سعيد : (لم يصبح الإسلام رمزاً للرعب والدمار والشيطان وأفواج من البرابرة الممقوتين بصورة اعتباطية ! فالبنسبة لأوربا كان الإسلام رجة مأساوية دائمة) ، والأهم من ذلك هو ما يذكره إدوارد سعيد من أن أوربا لكى تمتص هذا الخطر الكئيب بالنسبة لأوربا حولته (شيئاً منسوجاً فى لحمة الحياة الأوربية ، وفى انكلترا عصر النهضة وحدها كما يورد صموئيل تشو فى دراسته الكلاسيكية " الهلال والوردة " كان أى رجل متوسط التعليم والذكاء " يجد فى متناوله ويستطيع أن يرى على مسارح لندن عدداً كبيراً نسبياً من الأحداث المفصلة فى تاريخ الإسلام) ، والنقطة الهامة فى ذلك ـ كما يذكر إدوارد سعيد ـ هى أن ما ظل متداولاً حول الإسلام كان صورة معدولة مصغرة عن تلك القوى العظيمة الخطرة التى صار الإسلام رمزاً لها فى أوربا [٢] .

ومن تلك الصور المعدلة وبتعبير أدق المشوهة ـــ والتى أثرت على المفكرين المسيحين الذين حاولوا فهم الإسلام : قياسهم شخصية محمد ﷺ على شخصية المسيح (فقد افترض بطريقة خاطئة تماماً أن محمداً كان للإسلام ما كانه المسيح للمسيحية) ومن ذلك : (إطلاق التسمية التماحكية "المحمدية" على الإسلام) .

وأصبح التصور المسيحى للإسلام ليس هو الإسلام نفسه بقدر ما هو تمثيل الإسلام للمسيحى فى القرون الوسطى [٣] .

---

[١] المصدر السابق صـ ٩٠

[٢] الاستشراق : إدوارد سعيد صـ ٨٩

[٣] المصدر السابق صـ ٩٠

يقول د. إدوارد سعيد في عرضه لهذه القضية :

(إن الثقافات كانت دائماً تميل إلى إخضاع الثقافات الأخرى لتحولات كاملة ، متلقية إياها لا كما هي ، بل من أجل مصلحة المتلقي كما ينبغي أن تكون) ثم يؤكد أن المستشرق يفعل ذلك : (من أجل نفسه ، ومن أجل ثقافته، وفي بعض الحالات من أجل ما يظنه مصلحة الشرقي !!) [1] .

وإذ يذهب د. إدوارد سعيد إلى أن الإسلام – بفعل الاستشراق – قد مثل تمثيلاً سيئاً في الغرب فإنه يرجع الأمر إلى طبيعة أي تمثيل .

فهو بحكم طبيعتة متورط متشابك منسوج مع عدد كبير جداً من الأشياء الأخرى إلى جانب الحقيقة " [2] .

وتمثيل المستشرق هنا هو تمثيل لجوهر (لا يؤمن المستشرق بوجوده ذرة من إيمان ، بل إنه يفعل ما يفعل عادة لخدمة غرض ، وتبعاً لنزعة ما في وضعية إطارية تاريخية وفكرية ، بل حتى اقتصادية معينة) ثم يقول (والتمثيلات تشكيلات – أو كما قال رولان بارت .. التمثيلات إفساد لتشكيلات) . (والمستشرق إلى حد بعيد جداً ، يزود مجتمعه بتمثيلات للشرق: تحمل طابعه المميز الخاص ، وتوضح تصوره لما يمكن للشرق أو ينبغي له أن يكون ، وتتحدى تحدياً واعياً وجهة نظر إنسان آخر إلى الشرق ، وتستجيب لمتطلبات معينة : ثقافية ومهنية ، وقومية ، وسياسية ، واقتصادية تفرضها الحقبة التاريخية [3]) .

وتستمر عملية التزييف للإسلام – في الرؤية الغربية – منذ العصور الوسطى إلى اليوم .

---

[1] المصدر السابق صـ ٩٤-٩٦

[2] الاستشراق صـ ٢٧٤

[3] المصدر السابق صـ ٢٧٥

يقول د. إدورد سعيد (هكذا نجد فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر تصديقاً عاماً لكون الجزيرة العربية على حواشى العالم المسيحى ملجأ طبيعياً للهراطقة العصاة .... بينما يأتى مستشرق باحث ومختص ألمعى زلق فى القرن العشرين ليشير إلى أن الإسلام ليس فى الحقيقة إلا هرطقة آرية من الدرجة الثانية .

وفى كتاب هام " المكتبة الشرقية " لبارتلمى ديربيلو ـ كتب فى آخر القرن السابع عشر[1] وظل المرجع الرئيسى السائد فى أوربا حتى أوائل القرن التاسع عشر ، نجده يقول عن أشرف خلق الله : (هذا هو المنتحل المشهور ماهومت ، المؤلف والمؤسس لهرطقة اتخذت لها اسم الدين نسميها نحن "الماهومتية " ... وقد نسب مفسرو القرآن ، وفقهاء الشريعة الإسلامية أو الماهومتية إلى هذا النبى المزيف كل المدائح التى نسبها الآريون والبولسيون والهراطقة الآخرون إلى يسوع المسيح مجردين إياه فى الوقت نفسه من ألوهيته ...) [2] .

وهل يعرف القارئ ماذا فعل " دانتى " فى جحيمه الذى احتفل به نُخبة المثقفين فى البلاد الإسلامية فى العصر الحديث ، ورأوا فيه هرماً عالياً من أهرامات الثقافة الأوربية ، وقمة من قمم الأدب الأوربى ، وأخذوا يقارنون بينه وبين رسالة الغفران ، ويعقدون الصلة بينهما دون أن يشيروا ولو من طرف خفى إلى تشويهه للإسلام ؟

إنه وضع موميتو فى الدائرة الأعمق من الجحيم .. فقبل أن يبلغ دانتى إلى موميتو فى رحلته فى الجحيم يمر عبر دوائر تحتوى على أناس آثامهم من مرتبة أدنى " حتى إذا وصل إلى موميتو فإنه لا يبقى بعده فى

---

(١) المصدر السابق صـ ٩٣ .

(٢) المصدر السابق صـ ٩٤ .

الدائرة الأعمق غير يهوذا وبروتس ، ثم يصل إلى قعر الجحيم ، حيث يوجد الشيطان ذاته [١] .

ولا نحدثك عن العقاب الذى فصله تفصيلاً فى هذه الدائرة فهو مما لا يطاق ذكره فى هذه الإشارات [٢] .

وبالرغم من أن سيمون أوكلى فى كتابه " تاريخ العرب " الصادر عام١٧٠٨ قد أوضح دائماً (أن الإسلام كان هرطقة مستنكرة) فإن كشفه لحقيقة أن الأوربيين يدينون للمسلمين بأول ما عرفوه عن الفلسفة كان صدمة مؤلمة للجمهور الأوربى ، أدت إلى طرده من كمبردج عام ١٧٠٩ .

والحقد الأكبر لأوربا ضد الإسلام فيما يقوله هنرى بيرس .. يبدأ من ظهور الإسلام إلى اليوم إذ كانت نتيجة الغزو الإسلامى الذى بدأ فى القرن السابع إزاحة مركز الثقافة الأوربية بعيداً عن البحر الأبيض المتوسط الذى كان آنئذ منطقة غربية وباتجاه الشمال [٣] .

وقد كان الشرق الإسلامى بخاصة هو الذى تحدى حركة الاستعمار الأوربى فى العصر الحديث .

فـ (بالنسبة لأوربا كان الشرق ــ باستثناء الإسلام ــ حتى القرن التاسع عشر ميداناً ذا تاريخ مستمر من السيطرة الغربية التى لم تتحد .. إلا أن الشرق العربى والإسلامى بشكل عام كانا الوحيدين اللذين واجها أوربا بتحد لم تجد له حلاً على الأصعدة السياسية والفكرية ، ولزمن قصير : الاقتصادية أيضاً ...

لقد كان الإسلام دون شك استفزازاً حقيقياً بطرق عديدة . فقد كان قريباً من المسيحية قرباً مقلقاً جغرافياً وثقافياً .. وكان بمقدوره أن يفاخر بنجاحات لاتنافس عسكرياً وسياسياً ، بل إن ذلك لم يكن كل شئ ، فالأصقاع

---

[١] المصدر السابق صـ ٩٦ .

[٢] المصدر السابق صـ ١٠٣ .

[٣] المصدر السابق صـ ٩٨ .

الإسلامية مجاورة للأصبقاع التوراتية ، بل حتى فوقها ، وأكثر من ذلك فإن قلب المجال الإسلامي كان دائماً ولا يزال الاقليم الأكثر قرباً إلى أوربا ..

ومنذ نهاية القرن السابع حتى معركة ليبانتو عام ١٥٧١ كان الإسلام في شكله العربي والعثماني أو شمال الافريقي والأسباني قد طغى على المسيحية الأوربية أو هددها تهديداً فعالاً ، ولم يكن ممكناً أن يغيب عن ذهن أي أوربي ـ ماضياً أو حاضراً ـ كون الإسلام قد فاق روما اشعاعاً وسما عليها .

ولم يكن غيبون نفسه استثناء من هذه القاعدة ـ في كتابه الشهير انحدار الامبراطورية الرومانية وسقوطها ـ إذ يقول عن الفتح العربي الإسلامي : (غزا هؤلاء الخلفاءُ الإسلاميون ـ ... خلفاءَ أغسطس وارتاكسيركس ، وأصبح الملوك المتنافسون في الوقت نفسه فريسة لعدو كانوا لزمن طويل جداً قد اعتادوا أن يحتقروه ، وخلال عشر سنوات من حكم عُمر أخضع العرب لطاعته ٣٦ ألف مدينة وقلعة ، ودمروا أربعة آلاف كنيسة ومعبداً للكافرين وشيدوا ١٤٠٠ جامع لممارسة ديانة محمد (!!) وعبر مائة سنة من هربه من مكة (هكذا ...) امتد نفوذ خلفاء محمد (!!) وسلطانهم من الهند إلى المحيط الأطلسي عبر الأقاليم المختلفة والنائية ..) [١]

وفي العصر الحديث نجد نابليون يعتمد في حملته على مصر على دراسات كونت دوفولني ـ وهو رحالة فرنسي نشر كتابه " رحلة إلى مصر وسورية " في مجلدين عام ١٧٨٧ م ، وكان فولني يرى : أن ثمة ثلاثة حواجز في وجه السيطرة الفرنسية في الشرق ، وأن أية قوة فرنسية لابد أن تحارب لذلك ثلاثة حروب : الأولى ضد انكلترا ، والثانية ضد الباب العالي العثماني ، والثالثة : وهي أكثرها صعوبة : ضد المسلمين [٢] .

---

[١] نقلاً عن غيبون : الاستشراق لادوارد سعيد صـ ١٠١ ـ ١٠٢ .

[٢] الاستشراق صـ ١٠٧ ، صـ ١١١ .

ولقد آمن فيكتور هوجو بمجد نابليون التكتيكي في حملته الشرقية ، وجسده في قصيدة رآه فيها :

ابن المعجزة أذهل أرض المعجزات .
وملأ الناس خوفاً بجيوشه التي لم يكن لها سابق .
ونبيلاً جليلاً ظهر للقبائل المذهولة .
مثل ماهومت غربي [(١)] .

ويرى د. إدوارد سعيد في كتاب " وصف مصر " الذي كان الثمرة العلمية ـ التي يفخر بها المصريون اليوم ـ والذي طبع في ثلاثة وعشرين مجلداً ضخماً بين ١٨٠٩ و ١٨٢٨ م ، يرى فيه (المصادرة التملكية العظيمة لبلد من بلد آخر) ، حيث انطلق الباحثون من تصور عبر عنه فوربييه في مقدمته للكتاب من أن مصر بلد (غارق الآن في البربرية) تغزوه (حضارة بلغت حد الكمال) ، الأمر الذي دفع الكاتبين إلى أن يكتبوا من منظور سابق: فأخذوا (يشكلون من كل جزئية تُلاحظ تعميماً ، ومن كل تعميم قانوناً لا يتغير للطبعة الشرقية) ، وبهذا (يزيح الوصفُ التاريخَ المصري أو الشرقي عن موضعه من حيث هو تاريخ له تماسكه الداخلي والخاص ، وهويته ومعناه) وصار " وصف مصر " كما يقول إدوارد سعيد (النمط الأعلى لجميع الجهود التالية التي بذلت لتقريب الشرق من أوربا ومن ثم لامتصاصه نهائياً) [(٢)] .

ويأتي الاستعمار الغربي بعد ذلك .

ليتعامل مع البلاد الإسلامية من منظور استعلائي يقول د. إدوارد سعيد (لاينكر بلفور [(٣)] في أي سياق فوقية بريطانيا ودونية مصر) وهو يقول في

---

(١) المصدر السابق صـ ١٠٩ .

(٢) المصدر السابق صـ ١١٠ ، صـ ١١١ .

(٣) هو آرثر جيمس بلفور هو شخصية سياسية بريطانية مرموقة في أوائل القرن العشرين خدم بلده في المناصب العليا ، وكان وزيراً للخارجية ورئيساً للوزراء ونائباً بالبرلمان البريطاني لمدة طويلة .

خطبة له بمجلس العموم مبرراً احتلال مصر (إن الأمم الغربية فور انبثاقها فى التاريخ تظهر تباشير القدرة على حكم الذات لأنها تمتلك مزايا خاصة بها، ويمكنك أن تنظر إلى تاريخ الشرقيين بأكمله دون أن تجد أثراً لحكم الذات على الاطلاق ، كل القرون العظيمة التى مرت على الشرقيين ، ولقد كانت عظيمة جداً (!!) انقضت فى ظل الطغيان .) وماذا يعنى هذا فى منطق بلفور ؟ إنه يعنى أنه (خير لهذه الأمم العظيمة (!!) أن نقوم نحن بممارسة هذا النمط من الحكم المطلق عليها .) [1] .

ويقرر اللورد كرومر رؤية الغرب للشرق فى (أن الدقة كريهة بالنسبة للعقل الشرقى) بينما الأوربى (ذو محاكمة عقلية دقيقة ، وتقريره للحقائق خال من أى التباس ، وهو منطقى مطبوع) [2] ، ويستمر قائلاً : (يظهر الشرقيون سذجاً غافلين ، محرومين من الحيوية والقدرة على المبادرة مجبولين على الإطراء الباذخ والدسيسة والدهاء والقسوة على الحيوانات ، والشرقيون عريقون فى الكذب ، وهم كسالى وسيئو الظن ، وهم فى كل شئ على طرف نقيض من العرق الانجلو سكسونى فى وضوحه ومباشرته ونبله.) [3] .

والغرب عندما يتعامل مع الشرق من هذا المنظور الاستعلائى فى بداية القرن فقد كان ذلك (لأن تراثاً من الاستشراق أقدم من تراث القرن التاسع عشر زودهم بمفردات وصور وبلاغة ومجازات ليقولوه بها) [4] .

* * *

لقد كان لابد ــ تحت رعاية الأدب ــ أن يتجذر العداء فى قلب الأوربى المثقف ــ الذى يقرأ ــ على سبيل المثال من عيون الأدب الإنجليزى

---

(1) الاستشراق د. إدوارد سعيد ــ ترجمة كمال أبوديب طبعة ١٩٨١ صــ ٦٤ ــ ٦٥

(2) المصدر السابق صــ ٦٩ .

(3) المصدر السابق صــ ٧٠ .

(4) الاستشراق : إدوارد سعيد صــ ٧٢ .

فى القرن التاسع عشر فى رواية والترسكوت (الطلسمان) ماجاء على لسان المسيحى – فى أيام صلاح الدين – وهو يكتشف عدوه المسلم ، ما يأتى : –

(لقد اعتقدت أن عرقك الأعمى قد انحدر من سلالة الشرير الرجيم الذى ما كنتم لتستطيعوا دون عونه أن تحتفظوا بأرض فلسطين هذه فى وجه هذا العدد من جنود الله الشجعان (يقصد الصليبيين !!) وأنا لا أتحدث بهذه الطريقة عنك أنت بالذات – أيها المسلم — بل بشكل عام (!!) عن قومك ودينك ، ومع ذلك فالغريب فى نظرى ليس أنك تنحدر من سلالة هذا الشرير، بل إنك – أيضاً – تفاخر بذلك) .

وفى هذا النص – فضلاً عن أثره فى وجدان الأوربى – يظهر التعالى المتمثل فى لعنة شعب بأكمله " بشكل عام " مع شئ من الأدب النفاقى الذى يجيده هؤلاء فى عبارة " أنا لا أقصدك أنت بالذات " .

وكما يقول د. إدوارد سعيد : (إن الأمر ليبدو كما لو أن ثمة برميلاً اسمه " الشرقى " تطرح فيه دون تفكير جميع آراء الغرب السلطوية ، اللامنسوبة ، التقليدية حول الشرق .) [1] .

وماذا يمكن أن يترسخ فى وجدان الأوربى – المثقف بخاصة – وهو يقرأ لعلم من أعلام الأدب الفرنسى فلوبير فى قصته " معجبة الشرق " : (منذ زمن اعتاد صوفى أن يسير فى شوارع القاهرة عارياً تماماً فيما عدا طاقية على رأسه وأخرى على عضوه ، ومن أجل أن يبول كان يرفع طاقية العضو، فتركض النساء العاقرات اللواتى أردن الإنجاب إليه ، ويضعن أنفسهن تحت قوس بوله ، ويبللن أنفسهن به .)

وهكذا كما يقول د. إدوارد سعيد يصبح الشرق معرضاً حياً للشذوذ، ويظهر هذا المنحى – حتى فى أعمال المستشرقين الجادين ، فقد قال كارل بكر : (إنه رغم أن الإسلام – لاحظ الصفة التعميمية الهائلة على حد تعبير

---

[1] الاستشراق لإدوارد سعيد صـ ١٢٥ .

إدوارد سعيد ـــ ورث التراث الهيلينى فإنه لم يكن قادراً على أن يفهم أو يستخدم التراث اليونانى الإنسانى !!

وعلاوة على ذلك فمن أجل أن يفهم المرء الإسلام عليه قبل كل شئ أن يعاينه لا بوصفه " ديناً " أصيلاً " بل بوصفه شيئاً من محاولة شرقية فاشلة لاستخدام الفلسفة اليونانية فى غيبة للإلهام الخلاق الذى نجده ـ كما يقول بكر ـ فى أوربا عصر النهضة .) هكذا !

كما يظهر فى رؤية لويس ماسينيون ـــ الذى قد يكون أعظم المستشرقين الفرنسيين شهرة وتأثيراً ـــ الذى كان يرى أن أعظم رجال الإسلام ـ لم يكن محمداً (!!) أو ابن رشد ، بل الحلاج القديس المسلم الذى صلبه المسلمون السنيون لجرأته على شخصنة الإسلام [1] .

وهو يقصد بهذه الشخصنة ذلك النوع من التجسد المسيحى للإله ، الذى يلاحظ ماسينون أن الإسلام يرفضه (رفضاً منظماً ...) كما يقول .

وفى عرف الاستشراق ـ كما يقول إدوارد سعيد ـــ (كان للإسلام معنى يمكن أن يوجد ـ فى صياغة هى الأكثر دقة وجلاء ـ فى رسالة رينان الأولى ، فمن أجل أن يفهم الإسلام فهماً أفضل ينبغى أن يقلص إلى " الخيمة والقبيلة " [2] .) .

وتستمر هذه النظرة الاستعلائية العدائية عند المستشرقين المحدثين ـــ فى منتصف القرن العشرين ـ تظهر فيما ذكره إتش . أى . آر . جب فى سلسلة محاضراته فى جامعة شيكاغو عام ١٩٤٥ ، إذ يقول : صحيح أنه وجد بين الشعوب الإسلامية فلاسفة عظماء وأن بعضهم كانوا عرباً ، غير أنهم كانوا استثناءات نادرة ، فالعقل العربى سواء فى علاقته بالعالم الخارجى أو فى علاقته بالعمليات الفكرية يعجز عن أن يتخلص من شعوره الجارف الحاد بانفصالية الأحداث المحسوسة وفرديتها ، وهذا بالذات ـــ فيما اعتقد ـــ

---

[1] المصدر السابق صـ ١٢٧ .

[2] الاستشراق صـ ١٢٨ .

أحد العوامل الرئيسية التى تكمن وراء ظاهرة " فقدان الحس بالقانون " التى اعتبرها الأستاذ ماكدونالد فرقاً مميزاً فى الشرقى . وهذا هو أيضاً ما يوضح مايجد الطالب الغربى صعوبة كبيرة فى فهمه ـ نفور المسلمين من العمليات الفكرية العقلانية .) .

وعن أثر جب فى المناخ الثقافى الأوربى من جهة فهمه للإسلام يقول إدوارد سعيد : إن تحيز جب بالرغم من معرفته الفائقة التى تظهر فى كتابه ، أوبسببها على الأرجح (يظل عقبة كأداء فى وجه كل من يحاول أن يفهم الإسلام الحديث) [1] .

وبالنسبة لموقف الغرب من الشرق عموماً شاملاً ـ الإسلام بوجه خاص ـ لا يسعنا أن نتجاهل موقف كارل ماركس من الاستعمار الإنجليزى للهند فى القرن التاسع عشر . فالبرغم من أنه كان ينعته بأنه (مدفوع بأكثر المصالح قذارة ..) إلا أنه كان يرى فيه رسالة إحيائية تجديدية ، يقول : (إن على انكلترا أن تحقق فى الهند رسالة مزدوجة : الأولى تدميرية ، والثانية احيائية تجديدية ، افناء المجتمع الأسيوى ، وإرساء الأسس المادية للمجتمع الغربى فى آسيا .) .

ويرى فى هذا العمل بالرغم مما فيه من تعذيب ، وافتراس لأرواح لا تحصى ـ يمكن أن يقاس على حكم تيمورلنك ـ فإنه (يهبنا متعة أعظم) على حد قول " جوته " وهو يستشهد به [2] .

وماذا عن توماس كارليل الذى يُستشهد به فى مجال الانصاف للإسلام بناء على ماكتبه فى (الأبطال) عن محمد ﷺ ؟

بالرغم من أن كارليل لا يتهم محمداً بالكذب ـ شأن كثير غيره من المستشرقين ـ إلا أنه كان يرى أن محمداً هو مؤلف القرآن ، وأن القرآن ـ وناقل الكفر ليس بكافر ـ (هو خليط مهلهل مشوّش ممل خام مستغلق ،

---

[1] الاستشراق لإدوارد سعيد صـ ١٢٩

[2] الاستشراق صـ ١٧١ .

تكرار لا نهاية له ، وإسهاب وإطناب ، ومعاظلة ، خام إلى أقصى الدرجات ، مستغلق وبإيجاز : غباء فارغ لا يطاق) [1] .

وفى كتاب : رحلة من باريس إلى القدس (١٨١٠ ــ ١٨١١) يتحدث شاتو بريان عن القرآن بأنه لم يحتو على أى " مبدأ للحضارة ، أو أى تعليم يسمو بالشخصية " ثم يتمادى المستشرق ليمجد الحرب الصليبية باعتبار أنها (لم تدُر حول إنقاذ كنيسة القيامة فحسب ، بل دارت حول معرفة من سينتصر : مذهب تعبدى هو عدو للحضارة محبذ ــ باطراد ــ للجهل ، وللطغيان ، وللعبودية ــ أى الإسلام ــ أو مذهب تعبدى يوقظ فى البشر المعاصرين عبقرية الزمن الغابر الحكيم ، ويلغى العبودية الدنيئة .) هكذا !!

وكان هذا كما يقول إدوارد سعيد : أول ذكر مهم لفكرة قدر لها أن تكتسب سلطة خرقاء : أوربا التى تلقن الشرق معنى الحرية ، وهى ــ أى الحرية ــ مفهوم آمن شاتو بريان ، وكل من جاء بعده بأن الشرقيين ــ وخصوصاً المسلمين ــ لا يعرفون شيئاً عنه ، يقول : " عن الحرية لا يعرفون شيئاً ، من الاحتشام ليس لديهم شئ (!!)

" القوة هى ربهم " [2] .

لقد هاجم مؤرخون ثقافيون محترمون (!!) مثل ليوبولدفون رانكه وجاكوب بيركهاردت الإسلام بعنف ، ففى كتابه تاريخ العالم (١٨٨١ ــ ١٨٨٨) تحدث ــ طبقاً لدراسة إدوارد سعيد ــ رانكه عن الإسلام ليصف هزيمته أمام الشعوب الجرمانية الرومانية " وفى " شذرات تاريخية " ١٨٩٣م تحدث بيركهارد عن الإسلام كشئ " بائس ، عار ، تافه ، وقد قام بمثل هذه العمليات بمهارة وحماسة أبلغ بكثير أو ستفالد اسبنغلر فى كتابه " تدهور الغرب ١٩١٨ ــ ١٩٢٢ [3] !

---

[1] أنظر الاستشراق لادوراد سعيد صـ ١٦٩ ، ونحن لسنا بحاجة إلى الوقوف بجدية أمام هذا النقد الأبله ، الموجه إلى لغة القرآن من جاهل بلغة القرآن العربية ولو كان مستشرقاً !

[2] الاستشراق صـ ١٨٦ ــ ١٨٧ .

[3] الاستشراق صـ ٢١٩ .

وهكذا كان نولدكة وهو يعلن عام ١٨٨٧ : أن خلاصة عمله كمستشرق كانت تأكيد رأيه فى " المنزلة الوضيعة " للشعوب الشرقية .

ويقدم جاك فاردنبرج فى دراسته (الإسلام فى مرآة الغرب) دراسة لخمسة خبراء مهمين كصانعين لصورة معينة للإسلام ، وفى عمل كل منهم تظهر (درجة عالية من التحيز ، بل حتى من العدائية لدى أربعة منهم ، كما لو أن كل كاتب منهم رأى الإسلام انعكاساً لضعفه الخاص .)

وفى مجموعهم يمثل هؤلاء المستشرقون الخمسة [١] : الأفضل والأقوى فى تراث الاستشراق خلال الفترة الواقعة بين عام ١٨٨٠م ، وسنوات ما بين الحربين العالميتين ، وهم بالرغم من الفروق الظاهرة فى دراستهم فقد كانت تلك الفروق أقل أهمية من إجماعهم الاستشراقى على طبيعة الإسلام : دونية كامنة [٢] ، وقد صاغ هؤلاء الخمسة (رؤيا للإسلام كان لها تأثير واسع على الدوائر الحكومية عبر العالم الغربى بأكمله) حيث كانت لهم وظائفهم فى الإدارات الاستعمارية فى الغرب [٣] .

ويبلور ماكدونالد ميزة الشرقى (المسلم) فى (فقدان الحس بالقانون، فبالنسبة إليه ليس ثمة نظام مُرتَّب للطبيعة راسخ لا يتزحزح) (وإذا بدت هذه النظرة ــ كما يقول د. إدوارد سعيد عاجزة عن أن تفسر الإنجازات الفائقة التى حققتها العلوم الإسلامية التى بنى عليها قدر عظيم من العلوم الحديثة فإن ماكدونالد يظل صامتاً ويستمر فى دعواه) [٤] .

ثم يقول إدوارد سعيد : لا شئ من هذا طبعاً جديد .. فمن شليغل إلى رينان ، ومن روبرتسن سميث إلى ت . أ . لورنس تكرر هذه الأفكار ، ويعاد

---

[١] هؤلاء جولدزيهر ، ودنكن بلاك ماكدونالد ، وكارل بكر وسى سنوك هيرغرونج ، وماسينون .

[٢] المصدر السابق صـ ٢٢٠ .

[٣] المصدر السابق صـ ٢٢١ .

[٤] الاستشراق صـ ٢٧٨ .

تكرارها ، فهى تمثل قراراً يتعلق بالشرق لاحقيقة من حقائق الطبيعة بأى شكل ، وكل إنسان مثل ماكدونالد وجب دخل واعياً مهنة اسمها الاستشراق فعل ذلك بناء على قرار متخذ : إن الشرق هو الشرق .) [1] وكفى !

وكيف ينظر مستشرق شهير معاصر — فون جرونباوم — إلى الإسلام؟ إنه كما يقول د. إدوارد سعيد : (لا يجد فون غرونباوم من صعوبة فى الافتراض بداهة أن الإسلام ظاهرة أحادية وحدانية ، بخلاف أى ديانة أو حضارة أخرى ، ثم يمضى بعذ ذلك ليظهر الإسلام ضد — إنسانى ، عاجزاً عن التطور ، ومعرفة الذات ، والموضوعية ، إضافة إلى كونه عقيماً غير خلاق ، لا علمياً ، وسلطوياً) .

وقد سقط فون غرونباوم فريسة لشيئين فى آن واحد : المذهبيات الاستشراقية الذى ورثها ، والملمح الخاص للإسلام الذى اختار أن يؤوله باعتباره قصوراً : وهو أن فى الإسلام نظرية دينية مفصَّحاً عنها بصورة دقيقة ، وعدداً ضئيلاً جداً ، مع ذلك ، من المسارد للتجربة الدينية ؛ ونظرية سياسية مُفصَحاً عنها بصورة دقيقة ، وعدداً ضئيلاً من الوثائق السياسية ؛ ونظرية فى البنية الاجتماعية ، وعدداً ضئيلاً جداً من الأفعال المفردنة ، ونظرية فى التاريخ ، وعدداً ضئيلاً جداً من الأحداث المؤرخة ؛ ونظرية مفصحاً عنها فى الاقتصاد وعدداً ضئيلاً جداً من السلاسل المقاسة كمياً ، وهكذا .. والحصيلة النهائية هى رؤيا تاريخية للإسلام مصاباً بالعرج كلياً بنظرية لثقافة عاجزة عن أن توفى واقعه الوجودى حقه ، أو حتى أن تكتنهه فى تجربة معتنقيه ، وإسلام فون غرونباوم ، بعد كل حساب ، هو إسلام المستشرقين الأوروبيين المبكرين — موحد متناغم ، مزدرٍ للتجربة الإنسانية العادية ، إجمالى ، تقليصى ، لا متغير [2] .

---

[1] الاستشراق صـ ٢٧٩ .

[2] الاستشراق صـ ٢٩٧ ـ ٢٩٨ .

إن وجهة نظر كهذه فى الإسلام هى ، فى أعماقها ، وجهة نظر سياسية ، وليست ، حتى بطريقة استبدالية لبقة ، نزيهة متجردة .

وفى الوقت الذى ينظر فيه الكونت دوكريساتى إلى سوريا باعتبارها (شرق فرنسا الخاص) وفقاً لما أعلنه فى محاضرة ألقاها على ما يسمى " التحالف الفرنسى " عام ١٩١٣ " فإنه كان يطرح ـ أيضاً ـ منظومته فى أنه (إذا كان لفرنسا أن تستمر فى منع " عودة الإسلام " فقد كان من الخير لها أن تحتل الشرق) ، وقد كررت هذه الآراء فى مناسبات كثيرة [١] .

وفى مكان آخر فى جامعة شيكاغو عام ١٩٢٤ نجد فالنتاين شيرول ، وهو رجل صحافة معروف وتجربة عظيمة فى الشرق ، يقرر فى منظومته الفكرية بكراهية ظاهرة : أن " المحمدية " هى أحد القوى العالمية العظيمة المسئولة عن أعمق خطوط الانقسام فى العالم [٢] ويعلق د. إدوارد سعيد على هذا التناول الاستشراقى للشرق والإسلام بأنه مناقض لما يزعمه لنفسه من ثقافة تحررية ، وهو على العكس من ذلك يمثل : تصلب المذهب والمعنى الذى حوله التظاهر بالعلم إلى حقيقة ؟؟ !

ويعنى هذا المنظور الفكرى الذى تبنته المؤسسة الاستشراقية عن الإسلام ، يعنى على صعيد عملى ـ على حد قول إدوارد سعيد (أنه حين يجاهد الشرقيون ضد الاحتلال الاستعمارى فإن عليك أن تقول : إن الشرقيين لم يفهموا أبداً معنى حكم الذات بالطريقة التى نفهمه بها نحن (نحن أى الأوربيين) أو تقول مع برنارد لويس : إنه إذا قاوم العرب الفلسطينيون الاستيطان الإسرائيلى .. فإن ذلك لا يمثل إلا " عودة الإسلام " ، أو كما حددها مستشرق معاصر ذائع الصيت مقاومة إسلامية لشعوب لا إسلامية ، وهو مبدأ إسلامى أسس فى القرن السابع ...) هكذا .

---

[١] الاستشراق صـ ٢٣٣ .

[٢] المصدر السابق صـ ٢٥٨ .

وهكذا (إذ يجتاح الشعور ضد الاستعمار العالم الشرقى بأكمله ... فإن المستشرق يلعن ذلك كله لا بوصفه إزعاجاً فارغاً فقط ، بل بوصفه إهانة للديموقراطيات الغربية ، وبينما تواجه العالم قضايا حاسمة ذات أهمية عامة بالغة فإن الصورة الكاريكاتورية للشرق تستغل من قبل سياسيين يستقون زادهم العقائدى (الأيدلويوجى) لا من الاخصائيين " التكنوقراطيين " نصف المتعلمين فحسب ، بل من المستشرق الفائق العلم كذلك (!!) ويحذر خبراء العالم الخرافيون فى وزارة الخارجية الأمريكية من مخططات العرب للاستيلاء على العالم ، ويوصف الصينيون الغادرون (!!) والهنود نصف العراه (!!) والمسلحون السلبيون بأنهم حدءات ستنهش عطايانا) [١] .

ولم تكن آراء المستشرقين هذه مجرد سطور فى بطون الكتب ولكنها ذات أثر ملموس فى وجدان الرجل العادى فى الغرب .

يقول د. إدوارد سعيد (تطغى هذه الآراء المعاصرة للمستشرقين على الصحافة والعقل الشعبى ، فالعرب ــ مثلاً ــ يتصورون راكبى جمال ، ارهابيين ، معقوفى الأنوف ، شهوانيين شرهين ، تمثل ثروتهم غير المستحقة إهانة للحضارة الحقيقية ، وثمة دائماً افتراض متربص بأن المستهلك الغربى رغم كونه ينتمى إلى أقلية عددية ذو حق شرعى إما فى امتلاك معظم الموارد الطبيعية فى العالم ، أو فى استهلاكها أو فى كليهما ، لماذا ؟ لأنه بخلاف الشرقى إنسان حق ... إن غربياً أبيض ينتمى إلى الطبقة الوسطى يؤمن بأنه امتياز طبيعى له لا أن يدير شئون العالم غير الأبيض وحسب ، بل أن يمتلكه كذلك لمجرد أن العالم الأخير تحديداً ليس بالضبط إنسانياً تماماً بقدر ما "نحن" كذلك) [٢] !!

وهكذا يستقطب القطيع المؤمن فى أعماقه بما يقوله أ رنست رينان (إنه لمن الأفضل أن يكون المرء مخطئاً مع أمته المخطئة كلها من أن يكون على درجة عالية من الصواب مع أولئك الذين يكشفون لها الحقائق القاسية. [٣] !!

---

[١] الاستشراق صـ ١٣٠ ـ صـ ١٣١ .

[٢] الاستشراق لإدوارد سعيد صـ ١٣١ .

[٣] المصدر السابق صـ ١٦٦ .

بين سوء القصد وسوء العرض :

يقول د. إدوارد سعيد :

(إن كل أوربـي كـان ــ فيمـا يمكـن أن يقولـه عـن الشـرق عنصريـاً عرقياً امبريالياً ، وإلى درجة كلية تقريباً : عرقى التمركز ...

إن المجتمعات البشرية ــ أو على الأقل الثقافات الأكثر تقدماً ، نـادراً ما منحت الفرد شيئاً عدا الامبريالية والعنصريـة ، والتمركـز العرقـى للتعـامل مع الثقافات الأخرى ...

إن الاستشراق كان جوهرياً مذهباً سياسياً مورس إرادياً على الشرق ، لأن الشرق كان أضعف من الغرب) [1] .

إن كمية هائلة من الكتب دونها الغرب عن الشرق (حوالى ستين ألف كتاب تتعلق بالشرق الأدنى قد كتبهـا الغربيـون بيـن عـام ١٨٠٠ ــ ١٩٥٠) أفلم يكن منهم رجل رشيد ؟ اللهم إلا أن نقر مع إدوارد سعيد أن (الاستشراق من حيث هو جهاز ثقافى هو عدوانية ونشاط ومحاكمة ...)

وهل تغيرت هذه العدوانية على مر العصور ؟

يسجل إدوارد سعيد تطور حركة الاستشـراق فيمـا بيـن القـرن التاسـع عشر والعشرين فيحصره فيما يسميه الاستشراق الظاهر ، أمـا مـا وراءه ممـا يسميه (الاستشراق الكامن .) فهو اجماعى مستقر لا يكاد يتغير ، وهو نادراً مـا يشـكل فرقـاً فـى المضمـــون فقـد ارتبطـت الأطروحـات حـول التخلـف والانحطاط الشرقيين (!!) بالأفكار السائدة ــ فى القرن التاسع عشر ــ حـول الأسس الحيوية (علم الحياة) للتفاوت العرقى [2] . وما دام الشرق ينتمى إلى عرق منحط محكوم فقد كان ينبغـى لـه أن يحكـم مـن قبـل الاسـتعمار الغربـى

---

[1] الاستشراق صـ ٢١٥ ، صـ ٢١٦

[2] الاستشراق صـ ٢١٧ .

ويتوفر المثل التقليدى لهذه النظرة فى كتاب جوستاف لوبون الصادر عام١٨٩٤ (القوانين النفسية لتطور الشعوب .) [١] .

ولم تكن النظرة العرقية وما تستتبعه من دونية الشرق واحتقاره مذهباً فكرياً معزولاً فى ذهن زعمائه ، ولكنها كانت فى ثقافة أواخر القرن التاسع عشر فى أوربا (تكاد تكون غير متنازع عليها) [٢] .

وكانت قد تغلغلت إلى أعماق الأشياء ، وأكدت أنه ليس ثمة مهرب من الأصول ، ومن الأنماط التى أفرزتها هذه الأصول ، وقد أثر أصحاب هذه النظرة تأثيراً كبيراً على المستوى العام وأوصوا بسياسات عامة فى ضوء تقريراتهم [٣] ، وعلى سبيل المثال ، وانطلاقاً من هذه النظرة نجد كاتباً وسياسياً شهيراً قضى جانباً كبيراً من حياته بين العرب صديقاً حميماً لهم ــ لورنس ، نجده يقول فى موضع من كتابه " أعمدة الحكمة السبعة " (.. لم تكن جميع الأقاليم الخاضعة للإمبراطورية البريطانية لتساوى لدى صبياً انكليزياً واحداً ميتا .) [٤] . ونجد آخر مثل جوج أورول يقول عن زيارته لمراكش عام ١٩٣٩ (من الصعب دائماً أن تصدق أنك تسير بين كائنات بشرية .... إن للبشر وجوهاً سمراء ، ولديهم عدد كبير منها ، هل هم حقاً اللحم نفسه الذى هو أنت ؟ هل لهم حتى أسماء ؟ أم أنهم مجرد مادة سمراء لا متمايزة ، أفراد بقدر ما للنحل أو حشرات المرجان أفراد ؟! إنهم ينبعون من الأرض ، يعرقون ويعانون الجوع لبضع سنوات ، ثم يغوصون عائدين إلى أكوام المقابر التى لا أسماء لها دون أن يلحظ أحد أنهم ذهبوا ، حتى القبور نفسها سرعان ما تنحل رجوعاً إلى التراب) [٥] .

---

[١] المصدر السابق صـ ٢١٨ .

[٢] الاستشراق صـ ٢٤٠ ، ٢٤١ .

[٣] المصدر السابق صـ ٢٤٥ .

[٤] المصدر السابق صـ ٢٤٨ .

[٥] المصدر السابق صـ ٢٥٧ .

ثمرات شرقنة الإسلام فى العصر الحاضر :

وكان من ثمرات هذه الشرقنة فى العصر الحاضر كما يدلنا على ذلك د. إدوارد سعيد :

أن العربى ظهر بعد حرب ١٩٧٣ فى كل مكان شيئاً أبعد تهديداً وأشد خطراً ، وبرزت بانتظام رسوم ورقية تصور شيخاً عربياً يقف وراء مضخة للبنزين ، لكن هؤلاء العرب كانوا بجلاء " ساميين " : وكانت أنوفهم المعقوفة بحدة ، والنظرات الشذراء الخبيثة المشربنة على وجوههم تذكيراً واضحاً (لجمهور غير سامى فى معظمه) بأن " الساميين " كانوا يقبعون تحت كل مشكلات الغرب ومصاعبهم التى كانت فى هذه الحالة بشكل رئيسى النقص فى البنزين .

وهكذا ، فإذا كان العربى يحتل مكاناً يكفى لجذب الانتباه ، فإنه يحتله كقيمة سلبية ، فهو يعاين كمخرب لوجود إسرائيل والغرب ، أو فى نظرة أخرى للشئ ذاته ، كعقبة أمكن تجاوزها لخلق إسرائيل عام ١٩٤٨ . وإذا كان هذا العربى ذا تاريخ على الاطلاق ، فإن تاريخه جزء من التاريخ الممنوح له (أو المستلب منه ، فالفرق ضئيل) من قبل التراث الاستشراقى ، وفى مرحلة تالية ، التراث الصهيونى . لقد عوينت فلسطين ــ من قبل لامارتين والصهاينة الأوائل على حد سواء ــ صحراء خالية تنتظر التفجر بالازدهار ، وكان يفترض أن القلة من السكان الذين كانوا فيها رُحلُ لا وزن لهم ولا حق فعلياً فى الأرض ، وأنهم ، لذلك ، دون واقع ثقافى أو قومى ....

وإلى جانب عدائه للصهيونية ، فإن العربى مزود بالنفط . وتلك خصيصة سلبية أخرى ، إذ أن غالبية المسارد المقدمة عن النفط العربى تساوى بين المقاطعة النفطية فى ١٩٧٣ ــ ١٩٧٤ (التى أفادت منها رئيسياً شركات النفط الغربية ونخبة عربية حاكمة صغيرة) وبين غياب أى مؤهلات أخلاقية عربية لامتلاك مثل هذا الاحتياطى النفطى الهائل . والسؤال الذى يطرح فى الأعم الأغلب ، دون أى من التحسينات الاستبدالية اللبقة المعتادة ،

هو لماذا يمتلك بشر كهؤلاء العرب حق إبقاء العالم المتطور (الحر ، الديمقراطى الأخلاقى) مهدداً ؟ ومن أسئلة كهذه ينبع الاقتراح المتكرر بأن تقوم قوات الجيش البحرية الأمريكية بغزو حقول النفط العربية .

فى الأفلام والتلفاز يرتبط العربى إما بالفسق أو بالغدر والخديعة المتعطشة للدم . ويظهر منحلاً ، ذا طاقة جنسية مفرطة ، قديراً ، دون شك ، على المكيدة البارعة المراوغة لكنه ، جوهرياً ، سادى ، خؤون ، منحط ، تاجر رقيق ، راكب جمال ، صراف ، وغد ، متعدد الظلال : هذه بعض الأدوار التقليدية لعربى فى السينما . وكثيراً ما يرى العربى القائد (للصوص المغيرين ، والقراصنة ، والعصاة " من السكان الأصليين ") يزمجر فى وجه البطل الغربى المأسور والفتاة الشقراء (وكلاهما مفعم بالصحة والعافية) : " رجالى سيقتلونكما ، لكنهم – يحبون أن يتسلوا أولاً " ، وينظر نظرة تنقط خبثاً وشبقاً فيما يتكلم : وهذا حظ شائع من قدر شخصية شيخ فالنتيون . وفى أشرطة الأخبار ، أو أشرطة الأخبار المصورة ، يظهر العرب دائماً بأعداد ضخمة : لا فردية ، لا خصائص أو تجارب شخصية . وتمثل معظم الصور الهيجان والبؤس الجماعيين ، أو الإشارات والحركات اللاعقلانية (والشاذة حتى اليأس ، بالتالى) . وخلف هذه الصور جميعاً يتربص خطر الجهاد المهدد . والعاقبة : الخوف من أن المسلمين (أو العرب) سوف يحتلون العالم .

تنشر الكتب والمقالات بانتظام عن الإسلام والعرب ، دون أن تمثل تغيراً اطلاقاً بالقياس إلى المماحكات الزعاف التى سادت القرون الوسطى وعصر النهضة . ولا يصدق على أية مجموعة عرقية أو دينية سوى العرب أن أى شئ يمكن عملياً أن يقال أو يكتب عنها دون تحد أو احتجاج . لقد قال دليل المساقات لعام ١٩٧٥ ، الذى وضعه طلاب الإجازة فى كلية كولومبيا ، عن برنامج اللغة العربية ان كل لفظة من لفظتين فى اللغة ذات علاقة ما بالعنف ، وان العقل العربى كما " ينعكس " فى اللغة تبجحى دون انقطاع .

وبلغت مقالة قريبة العهد كتبتها إيميت تيرل فى مجلة هاربر درجة أعلى من القذف والتجريح والعنصرية العرقية ، إذ طرحت منظومة تقول إن العرب أساساً قتلة وأن العنف والخديعة محمولان فى الموروثات العربية . ويكشف مسح دراسى بعنوان " العرب فى الكتب الدراسية الأمريكية " معلومات خاطئة إلى الحد الأقصى من الادهاش ، أو بالحرى ، تمثيلات على درجة قصوى من الفظاظة ، لمجموعة عرقية ـ دينية . إذ يؤكد أحد هذه الكتب " أن القلة من أهل هذه المنطقة العربية يعرفون أن ثمة طريقة أفضل للحياة " ، ثم يتابع سائلاً ببراءة سلابة ، " ما الذى يربط بين شعوب الشرق الأوسط ؟ " والجواب ، المعطى دون تردد ، هو " أن الرباط النهائى هو عدائية العرب ـ وكرههم ـ لليهود وللأمة الإسرائيلية " . وجنباً إلى جنب مع مثل هذه المادة ، ثمة ما يلى ، فى كتاب آخر ، عن الإسلام : " بدأ الدين الإسلامى ، المسمى الإسلام ، فى القرن السابع . وقد بدأه رجل أعمال ثرى من شبه الجزيرة العربية يدعى محمد . وقد ادعى أنه نبى . ووجد أتباعاً بين العرب الآخرين . وأخبرهم بأنهم اختيروا لكى يحكموا العالم " . وتتلو هذه النتفة من المعرفة نتفة أخرى مثلها فى دقتها : " بعد موت محمد بقليل ، سُجلت تعاليمه فى كتاب يدعى القرآن . وصار الكتاب المقدس للإسلام " (١) .

أثر الاستشراق على النخبة الثقافية العربية المعاصرة :

يقول د. إدوارد سعيد (إن الاستشراق ، رغم إخفاقاته ، ومصطلحه المعاظل الذى يثير الشفقة ، وعرقيته التى لا تكاد تحجب ، وجهازه الفكرى الرقيق رقة الورق ، يزدهر اليوم بالأشكال التى حاولت أن أصفها . وبالفعل ، فإن ثمة ما يدعو إلى القلق فى كون تأثيره قد انتشر إلى " الشرق " نفسه : فصفحات الكتب والمجلات باللغة العربية (وباليابانية ، واللهجات الهندية

(١) الاستشراق صـ ٢٨٦ ـ ٢٨٨ .

المختلفة ، واللغات الشرقية الأخرى ، دون شك) تمتلئ بتحليلات من الدرجة الثانية لـ " العقل العربى " ، والإسلام ، وأساطير أخرى ، يقوم بها كتاب عرب . وقد انتشر الاستشراق أيضاً فى الولايات المتحدة الآن وقد أضافت الأموال والموارد العربية رهجة فتنة لا يستهان بها إلى " الانشغال " التقليدى بالشرق الهام استراتيجياً . والحقيقة هى أن الاستشراق قد استوعب بنجاح من قبل الامبريالية الجديدة ، حيث لا تفند منطلقاته السائدة ، بل إنها لتثبت وتؤكد ، المخطط الامبريالى المستمر للسيطرة على آسيا .) .

يقول د. إدوارد سعيد (فى الجزء الوحيد من الشرق الذى أستطيع أن أتحدث عنه بشئ من المعرفة المباشرة يمكن اعتبار التلاؤم المتبادل بين الطبقة المفكرة والامبريالية الجديدة أحد الانتصارات الخاصة للاستشراق . فالعالم العربى اليوم كوكب تابع ، فكرياً ، وسياسياً ، وثقافياً للولايات المتحدة . وليس هذا فى ذاته بشئ يدعو إلى الرثاء ؛ غير أن الشكل المحدد بعلاقة التكوكبية نفسه يدعو إلى ذلك . خذ بعين الاعتبار أولاً أن الجامعات فى العالم العربى تدار بشكل عام تبعاً لنسق ما موروث عن ، أو مفروض مباشرة من قبل ، قوة مستعمرة سابقة . وتجعل الظروف الجديدة واقعيات المنهج الدراسى قبيحة حتى الرعب تقريباً : صفوف يحتشد فيها مئات الطلبة ، جهاز تدريس مدرب تدريباً سيئاً ، ومرهق بالعمل ، ويتلقى رواتب سيئة ، تعيينات سياسية ، الغياب شبه المطلق للأبحاث المتقدمة ولوسائل البحث العلمى ، وأهم من ذلك، الافتقار إلى مكتبة واحدة لائقة فى المنطقة بأسرها . وفيما كانت بريطانيا وفرنسا قد سيطرتا على الآفاق الفكرية فى الشرق بفضل أهميتهما وثرائهما ، فإن الولايات المتحدة هى التى تحتل تلك المكانة الآن ، بصورة تؤدى إلى النتيجة التالية : وهى أن القلة من الطلاب الذين يبشرون بخير والذين ينجحون فى الارتقاء عبر النظام التعليمى يتلقون التشجيع للحضور إلى الولايات المتحدة لمتابعة دراساتهم العليا . وفيما يظل صحيحاً أن بعض طلاب العالم العربى ما يزالون يذهبون إلى أوروبا للدراسة ، فإن الغالبية

العظمى يأتون إلى الولايات المتحدة ، ويصدق هذا على طلاب ما يسمى الدول الجذرية بقدر ما يصدق على الدول المحافظة كالمملكة العربية السعودية والكويت . وإلى جانب ذلك ، فإن نظام الرعاية فى عالم الدراسة ، والأعمال ، والبحث العلمى يضع الولايات المتحدة فى موضع الآمرة ذات السلطة الكلية على الأمور ؛ فالمصدر مهما بلغ من عدم كونه مصدراً حقيقياً ، يعتبر الولايات المتحدة . ثمة عاملان يجعلان الموقف حتى إلى درجة أبعد وضوحاً نصراً للاستشراق . وبقدر ما يسع المرء أن يصدر تعميماً كاسحاً ، فإن الميول المحسوسة للثقافة المعاصرة فى الشرق الأدنى تسير على هدى النماذج الأوربية والأمريكية ، وحين قال طه حسين عام١٩٣٦ عن الثقافة العربية إنها أوربية ، لا شرقية ، فقد كان يسجل هوية النخبة الثقافية المصرية التى كان هو أحد أعضائها المتميزين تميزاً كبيراً . ويصدق الشئ ذاته على النخبة الثقافية العربية اليوم ،) .

(والنتيجة المتوقعة لهذا كله هى أن الطلاب الشرقيين (والأساتذة الشرقيين) ما يزالون يريدون الحضور إلى الولايات المتحدة والجلوس عند أقدام المستشرقين الأمريكين ، ثم العودة فيما بعد لتكرار الشعيرات اللغوية التى ما فتئت أصفها بأنها مذهبيات جامدة استشراقية على مسامع جمهورهم المحلى . ونظام إعادة إنتاج كهذا يجعل من الحتمى أن يستخدم الباحث الشرقى تدريبه الأمريكى ليشعر بالفوقية على أبناء وطنه لأنه قادر على " تدبُر " النظام الاستشراقى وفهمه واستخدامه ؛ أما فى علاقته بمن هم أسمى منه مكانة ، المستشرقين الأوربيين والأمريكيين ، فإنه سيبقى " المخبر الذى ينتمى إلى السكان الأصليين " . وهذا هو بحق دوره فى الغرب، إذا كان من حسن الحظ بحيث يتاح له البقاء فيه بعد إنهاء تدريبه المتقدم . ومن ثم فإن معظم المساقات الأولية فى اللغات الشرقية تُدرس من قبل "مخبرين أصليين " فى جامعات الولايات المتحدة اليوم ؛ وكذلك فإن القوة ضمن النظام (فى الجامعات والمؤسسات ، وما إليها) هى حصرياً تقريباً فى

أيدى غير الشرقيين ، رغم أن نسبة الشرقيين إلى غير الشرقيين بين الأساتذة المقيمين لا تعطى الأفضلية لغير الشرقيين إلى هذه الدرجة الجارفة .

ثمة إشارات أخرى كثيرة من أنماط مختلفة إلى الكيفية التى يتم بها الحفاظ على السيطرة الثقافية عن طريق القبول الشرقى بقدر ما يتم عن طريق الضغط الاقتصادى المباشر الخام من قبل الولايات المتحدة ، وأنها لصدمة موقظة أن نجد ، على سبيل المثال ، أنه فيما توجد عشرات من المنظمات لدراسة الشرق العربى والإسلامى فى الولايات المتحدة ، فليس ثمة مؤسسة واحدة فى الشرق لدراسة الولايات المتحدة ، وهى أعظم المؤثرات الاقتصادية والسياسية إطلاقاً فى المنطقة . وأسوأ من هذا ، لا يكاد يكون ثمة من معهد ذى مكانة حتى متواضعة فى الشرق مكرس لدراسة الشرق <نفسه>. غير أن هذا كله ، فى اعتقادى ضئيل بالمقارنة مع العامل الثانى الذى يسهم فى انتصار الاستشراق : وهو حقيقة < طغيان > الاستهلاكية فى الشرق . فالعالم العربى أو الإسلامى عامة عالق فى صنارة نظام السوق الغربى . وما من أحد يحتاج إلى التذكير بأن النفط ، المورد الأعظم للمنطقة، قد امتص امتصاصاً كاملاً ضمن اقتصاد الولايات المتحدة . ولا أعنى بذلك وحسب أن شركات النفط العظيمة واقعة تحت سيطرة النظام الاقتصادى الأمريكيى ؛ بل أعنى أيضاً أن قاعدة عائدات النفط العربية ، كى لا نقول شيئاً عن التسويق ، والبحث ، والإدارة الصناعية ، قائمة فى الولايات المتحدة ، وقد جعل هذا من أثرياء النفط العرب عملياً مستهلكين هائلين للصادرات الأمريكية. والنقطة التى أثيرها هى أن العلاقة علاقة وحيدة الإتجاه ، تمثل فيها الولايات المتحدة زبوناً مختاراً لعدد ضئيل جداً من المنتجات (النفط ، واليد العاملة الرخيصة ، رئيسياً) ويمثل العرب مستهلكين شديدى التنوع لعدد هائل من منتجات الولايات المتحدة ، المادية والعقائدية .

وقد كان لهذا عواقب كثيرة . ثمة عملية تسوية هائلة للذوق فى المنطقة ، متجسدة لا فى الترانزستورات ، والجينز الزرقاء ، والكوكا كولا

وحسب ، بل كذلك فى الصـور الثقافيـة للشـرق التـى توفرهـا وسـائل الاعـلام الأمريكية وتستهلكها دون تفكير جمـاهير التلفـاز الضخمـة . وليست المفارقـة الضدية المتجسدة فى أن يعتبر عربى نفسه " عربيـاً " مـن النمـط الـذى تنتجـه وتسوقه هوليوود سوى النتيجة الأكثر بساطة لما أشير إليه .

وهنـاك نتيجـة أخـرى هـى أن اقتصـاد السـوق الغربـى وتوجهـه الاسـتهلاكى خلقـاً (ويخلقـان بنسبة متسـارعة) طبقـة مـن المتعلميـن يوجّـه تشكلهم الفكرى نحو إرضاء حاجات السوق . فثمة تأكيد كبير على الهندسـة ، والأعمـال ، والاقتصـاد ، ممـا هـو واضـح ؛ لكـن طبقـة رجـال الفكـر الانتلجنسيا هى ذاتها عنصر مساعد فيما تعتبره الاتجاهات الرئيسية التـى أطفئت فى الغرب .

وقد رسم دور هذه الطبقة وصيغ لها بوصفها طبقة " مُحدثه " ، أى أنه تمنح الشرعية والسلطة المرجعية لأفكار حول التحديث والتقدم والثقافة تتلقاها من الولايات المتحدة بصورة رئيسية . ويقوم الدليل الباهر على هذا فى العلوم الاجتماعية . وهكذا فإذ ينجلى كل شـئ ثمـة تقبـل مشـارك فـى صـور الاستشراق ومذاهبه . وثمة أيضاً تعزيز قوى جداً لهذا فى التبادل الاقتصـادى والسياسى والاجتمـاعى : فالشـرق الحديث ــ بإيجـاز ــ يشـارك فـى شـرقنة نفسه) [1] .

* * *

وهكذا يتأكد لدينا نتيجة لهذه الدراسـة الفذة للدكتـور إدوارد سـعيد مـا كان يتردد مـن قبـل فـى الصـدور حـول دور الاستشـراق فـى تشـويه صـورة الإسلام ، ويصبح لدينا اليوم يقين ــ نتيجة لتلك الدراسة بـأن الاستشـراق مـا هو إلا مؤسسة تقوم بدور تاريخى كجهاز مناعة تعضّـى ــ أو قـل إن شـئت " تعضـون " ــ فـى بنيـة الحضـارة الأوربيـة وتغلغـل فـى أعصابهـا وشـرايينها

---

[1] الاستشراق صــ ٣١٩ ـ ٣٢٢ .

وعظامها ليرد عنها أى اقتراب إسلامى ، مغلقاً منافذ تلك البنية دون أى شعاع حقيقى من الإسلام .

حتى ما يود البعض منا أن يعتبره تحسناً أو إنصافاً فى آداء بعض المستشرقين ، فإنه حسب دراسة إدوارد سعيد (استراتيجيات لإعادة التصرف بـ " المادة " ضمن " الحقل " وتوزيعها .) إنه يؤدى إلى تغيرات ضمن الحقل ثم يعين على خلق وضع جديد ، مثلما يؤدى إدخال بوصلة جديدة على سطح توجد عليه عشرون بوصلة إلى اهتزاز البوصلات جميعاً . ثم إلى استقرارها فى تشكيل جديد قادر على الاستيعاب [١] .

أما خروج مستشرق ما على الحقل ليعلن إسلامه فإنه يصبح طبقاً لجهاز المناعة ذاك سبباً كافياً لإخراجه ـــ حسب مواصفات المؤسسة الإستشراقية ـ من زمرة البحث العلمى المعترف به فى المؤسسة ليصير أى شئ غير كونه مستشرقاً " رصيناً " .

وهكذا تقوم المؤسسة الاستشراقية بالدور الفعال ـ لا فى فهم الإسلام وتقديمه للغرب المسحيى " موضوعياً " كما كان يفترض ـــ ولكن فى زرع الألغام فى الحقل الذى يفصل ما بين الحضارة الإسلامية ، والحضارة الغربية .

---

[١] المصدر السابق صـ ٢٧٥ .

الحل الإسلامى
لمشكلة الحضارة
بين التعدد والصراع

هل يمكن أن يكون الحل فى انتصار الحضارة التى تقوم على العرقية وتعمل وفقاً لسياسة التطهير العرقى ، والإبادة البشرية والتصفية الجسدية : فى الأندلس ، وفى أمريكا " الهنود الحمر " وفى افريقيا (مئات الملايين فى تصدير السود إلى أمريكا ...) فى التفرقة العنصرية ، وأخيراً فى شرق أوربا ، : البوسة والهرسك ... وبلاد البلقان ، وحلف الناتو الذى أعلن عدواته للاتجاه إلى الإسلام [1] . ثم فى شرقنة الإسلام ؟

تلك حضارة غبية لا ترى أبعد من وقع أقدامها .

كيف لهولاء أن يطهروا العالم من المسلمين ؟

مليار مسلم ؟

هنا تظهر عناية اللـه بالمسلمين فى التكاثر وزيادة النسل . إنهم لا يبتعدون فى سياستهم تلك عن غباء السياسة الإسرائيلية التى تظن أنها يمكن أن تسحق مائتى مليون عربى .

فعناصر المقاومة فى الإسلام مكفولة :

أ – القنبلة الذُرية ، فى مواجهة القنبة الذَرية .

ب – المقاومة الخالدة فى بقاء قدس أقداس هذه الحضارة " القرآن".

جـ – بشارة الرسول ﷺ " بدأ الإسلام غريباً . وسيعود غريباً كما بدأ " .

إن الاستمرار فى هذا الغباء لن تجنى منه الإنسانية غير المواجع والآلام .

ولكنه – أبداً – لن يحقق أغراضهم فى إزالة " الآخر " وتلك عمق أعماق سياساتهم ...

مقارنة :

إننا نقول لقيادات الحرب فى صفوف الحضارة الغربية .. لقد وسعناكم فى إطار أهل الكتاب .

---

(1) أنظر تصريح الأمين العام للحلف فى صحف ١٩٩٥/٢/٣ .

ففى أى إطار وسعتمونا أنتم ؟ وبماذا سميتمونا ؟

هل وسعتنا حقوق الإنسان الصادرة عنكم وهى حقوق مشروطة بالتخلص من حركة النهضة الإسلامية ؟

هل وسعتنا حريتكم الفكرية ، وهى تحتضن مقولات الفسق والفجور فى روايات سلمان رشدى وما أشبهه ؟

ولا تسع بحثاً علمياً حول مصداقية إبادة اليهود فى المانيا كتبه روجيه جارودى ؟

هل وسعتنا علمانيتكم ، وهى مشروطة بالتخلص من الإسلام باعتباره لا يأخذ بالعلمانية ؟

هل وسعتنا ديموقراطيتكم وهى مشروطة بالتخلص من الإسلام باعتباره آخذاً بشريعة إلهية ؟

هل وسعنا نظامكم العلمانى – فى شرق أوربا – البوسنة والهرسك وبقية المسلسل ؟

هل وسعتنا نظمكم التربوية وأنتم الذين لا زالت مناهجكم تلقن تلاميذكم الأكاذيب والأحقاد ضد الحضارة الإسلامية – كما هو ثابت فى الدراسات التى تناولت هذا الموضوع فى مصادركم نفسها ؟

ما الحل ؟ وأين التعدد ؟

إذا أردنا أن نجيب من منطلق قيمى بحت فلابد أن نتفق على أن الحل الوحيد هو فى انتصار الحضارة التى تسمح للآخر بأن يوجد على ظهر هذه الأرض .

الحل هو فى انتصار الحضارة التى تتعايش فى ظلها الأقليات والطوائف .

الحل هو فى انتصار الحضارة التى تؤمن للثقافات المختلفة أن تعبر عن ذاتها ؟

الحل هو فى انتصار الحضارة التى تسمح للأفكار المختلفة بأن تعبر عن ذاتها فى كافة أرجاء المعمورة ولو وقفت منها (حضارتنا الرائدة) موقف النقد والنكران .

الحل هو فى انتصار الحضارة التى تؤمن بأنه " لا إكراه فى الدين " .

الحل هو فى انتصار الحضارة التى تمتثل أمر الله فى قوله تعالى :

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتُقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ .

الحل هو فى انتصار الحضارة التى تؤمن بقوله تعالى ﴿ **يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ..** ﴾ .

الحل إذن هو فى انتصار الحضارة الإسلامية ، فهى التى انطوت ـ مع الخلاف ـ على السماحة ، ومع الإنكار على التسامح ، : نظرياً كما انطوت على ذلك عمليا ...

ولأمر ما ـ وربما كان هذا الأمر هو ما نحن فيه ... ضمن الإسلام (لأهل الكتاب ، موقعاً حصيناً فى المجتمع الإسلامى .

وقام المسلمون على تقدير هذا الموقع ، ولم يخامرهم قط خاطر التطهير العرقى ، أو إبادة " الآخر "...

لقد كانت الحضارة الإسلامية وعاء انصهرت فيه القوميات والجنسيات والعروق والشعوبيات ، ابتداء من أقصى الشرق فى الصين ، مروراً بفارس ، والشرق الأوسط وتركيا والأندلس ...

وكما يقول شيخ الأزهر الراحل (الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق إبراهيم جاد الحق رحمه الله) فى رسالة له إلى مؤتمر برلمان " أديان العالم" الذى انعقد فى شيكاغو فى الفترة من ٨/٢٨ إلى ١٩٩٣/٩/٤ .

(إن المسلمين لم يقترفوا فى تاريخهم الطويل ما يشينهم .

فلم يضطهدوا شعباً ولم يُكرهوا أحداً على الدخول فى الإسلام .

ولم يقوموا بعمليات تطهير عرقى أو تفرقة عنصرية ، ولم يحدث أن أبادوا أتباع دين من الأديان الأخرى . وليس أدل على ذلك من أن البلاد التى دخلت فى الإسلام – منذ كان وفى العصور المتعاقبة وللآن – مازال بها الجمع الغفير من الديانات الذين كانوا بتلك البلاد حين دخلها الإسلام ، ولو كان الحكم الإسلامى وقتذاك قد مارس ما يمارسه أصحاب الديانات الأخرى فى العصر الحاضر ما بقى فى بلاد المسلمين من أتباع الأديان الأخرى أحد) [1] .

وأنظر إلى ما يقوله الأستاذ الدكتور أحمد طربين – أستاذ التاريخ الإسلامى عن معاملة الدولة العثمانية للمسيحيين :

(يبدو أن كثيراً ممن كتب فى هذا الموضوع ، يرى أن الدولة العثمانية أساءت معاملة غير المسلمين ، وخاصة بعد أن ضمت إليها العالم العربى الإسلامى ... وبالمقابل فإن عديداً من المؤرخين المنصفين يرون أن السلاطين برغم اعتقادهم فى قرارة نفوسهم بأن المسيحيين لابد أن يكونوا حلفاء طبيعيين للقوى الأوربية المسيحية المعادية للعالم الإسلامى ، فإنهم لم يتجاوزوا حدود معاملة المسلمين السمحة – السابقة – بل كان تسامح الأتراك العثمانيين مع مسيحيى الولايات العربية أشد وضوحاً من تسامحهم مع مسيحيى البلقان الذين كانوا فى بلادهم أغلبية تتآمر مع النمسا . كما يرون أن الدولة العثمانية حافظت على أملاكهم وحرية عبادتهم وكنائسهم ، وفتحت لهم أوسع أبواب العمل الحر فى الزراعة والصناعة والتجارة ، فانتظموا فى سلك الحرف المختلفة على قدم المساواة مع زملائهم المسلمين ، وكانوا معهم فى تعاطف وود ، بل إنهم برزوا فى ميدان التجارة الخارجية لصلتهم مع الأوربيين ، وتكونت منهم طبقة برجوازية غنية ، وها هى ذى سجلات المحاكم الشرعية فى مختلف الحواجز العربية تشهد بذلك ...) [2] .

---

[1] مجلة الأزهر – ديسمبر ١٩٩٣ .

[2] أنظر المجلة العربية للعلوم الإنسانية التى تصدر عن جامعة الكويت العدد ٣١ صـ ٢٦٩

إن عجز الحضارة الأوربية المعاصرة عن دور التسامح هذا هو الذى يشكك فى إمكانية التعدد الحضارى بعيداً عن مظلة الإسلام .

إن الإسلام هو المرشح الوحيد لوراثة الحضارة المعاصرة ـ لمصلحة الإنسانية ـ وليقوم بنفس الدور الذى قام به فى وراثة الحضارة اليونانية والرومانية والفارسية من قبل .

هناك كانت الوراثة بأن ضم العمل إلى العلم .

واليوم فإن الوراثة بأن يضم الإيمان إليها .

وهذا لا يعنى القول بأن الحضارة الإسلامية تنحصر ضمن قيود ضيقة ، أو أنها خاضعة دائماً لتفاصيل ما تم إنجازه فى تاريخ الحضارة الإسلامية .

إن أقصى ما نقرره من قيود للحضارة الإسلامية لا يتعدى الثلاثية التى أشرنا إليها : العلم والعمل والإيمان .

وهى بعد ذلك ـ ومع ذلك ـ تقبل أن تتم إنجازها فى صور متعددة ولكنها متقاربة ، فيصبح التعدد هنا كالتنوع داخل الجنس الواحد ، فيخرج إلى الوجود حضارة إسلامية ينتجها العرب ، كما يخرج إليه حضارة إسلامية ينتجها الفرس ، أو حضارة إسلامية ينتجها العثمانيون ، أو حضارة إسلامية تنتجها أوربا .

إن الجمع بين أركان الحضارة الثلاثة التى هى العلم والعمل والإيمان هو مجمع تحديات المستقبل بالنسبة للإنسان على هذه الأرض ، وهنا تبدو لنا ملامح نصرة الإسلام فى مستقبل صنع الحضارة خصوصاً إذا لاحظنا بعض الظواهر التى تبدو أمامنا منذ الآن ومن أهمها :

١ – أن العالم المسيحى صائر حتماً إلى الأخذ بوجهة نظر الإسلام عن المسيح ، وهذا ما تؤكده الدراسات التى يقوم بها اللاهوتيون الكبار فى أوربا .

٢ - أن الملحدين فى العالم يتحولون ـ كما نرى ـ إلى الأخذ بدين من الأديان ، إذ هم يتناولون إلحادهم كدين وهم سوف يلتقتون حتماً إلى إجراء المقارنة بين ديانة الإلحاد ، وبين الأديان الأخرى ، وليس غير الإسلام دين يصلح لمخاطبة هذه العقول .

٣ - أن عالم القوة النووية صائر حتماً ـ كما نرى ـ إلى فقدان القدرة على استخدامها ، ولو تعجل فى استخدامها لكان ذلك ضد مصلحة العالم الذى يملكها إذ تتساوى حينذاك فى الخراب جميع الأقدام .

٤ - أن العالم الإسلامى صائر حتماً إلى ولادة جديدة ، وهذا هو مصدر الفزع عند كهنة الحضارة الغاربة .

والخطر الذى يتهدده هو خطر التعجل ، تعجل الولادة قبل أوانها من ناحية ، وخطر الغفلة عما تستوجبه ساعة الميلاد من ناحية أخرى ، وعليه أن يستفيد من درس العروبة فى معالجاتها الخاطئة ، لقضية الخلافة الإسلامية عند سقوط الدولة العثمانية أولاً ، وقضية الوحدة العربية ثانياً ، وقضية فلسطين ثالثاً ، وقضية النظام العالمى الجديد أخيراً .

ويبقى عبء خطير على العاملين فى مجال الدعوة الإسلامية أن يعدوا أنفسهم لهذا الميلاد بالتخلص من سلبياتهم ، ومنها ما يقع فيه بعض فصائلهم من خشونة فى الأسلوب تارة ، ومن نظرة تشاؤمية للمستقبل تارة ، ومن فقر فى القدرة على الاجتهاد تارات .

وراثة الحضارة

إذا كانت الصين ــ فيما يقال ــ تتطلع بمليارها إلى وراثة هذه الحضارة المتداعية ، فقد يتساءل البعض منا : ــ لم لاتتطلع بدورنا ــ إن صلح أمرنا كما يقول الدكتور رشدى فكار [1] ـ إلى مكاننا فى هذه الوراثة ؟ بمليارنا الإسلامى الذى يرتكز على الوطن العربى والذى يمتد إسلامياً فى آسيا وافريقيا ؟

الآخرون المتطلعون إلى هذه الوراثة يتفاوتون فى أرتكازهم على وحدة الأرض ، أو وحدة اللغة ، أو وحدة التاريخ ، أو وحدة العقيدة ، بينما نحن المسلمين نرتكز على هذه الركائز جميعاً ؟

لقد فاتت الفرصة على اليابان لوراثة هذه الحضارة فيما يقوله هارولد لاسكى (لقد كان من الممكن أن تتعلم اليابان كيف تكون قنطرة بين الشرق والغرب ، ولكن يبدو أنها لم تستفد شيئاً سوى ذلك الدرس الغث : الاستعمار الاقتصادى ، لقد اكتشفت " المهارة " فى لندن وبرلين وباريس ونيويورك ، ولكنها ــ أى اليابان لم تكتشف مثلهم الهدف الكبير الذى تهب له هذه المهارة..) [2] .

ويتفاءل بعض المفكرين الغربيين بوراثة الإسلام لهذه الحضارة المتداعية ، إذ يقول روجيه جارودى (لقد سبق للإسلام أن أنقذ امبراطوريات متهافتة من الفناء فى القرن السابع الميلادى .) .

ولعل هذا هو ما يبيته القدر للإسلام مرة أخرى أن يرث الحضارة المعاصرة ليعطيها ما قد فقدته : هدف الإيمان
أن تكون الحضارة لله .

يقول الله تعالى : ﴿ **إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده .** ﴾ ١٢٨ الأعراف .

---

[1] أنظر كتابة " نهاية عمالقة صـ ١٣٧ - ١٣٩ " .

[2] محنة الديموقراطية لهارولد لاسكى جـ ١ صـ ١٢ ـ ١٣ .

ويقول تعالى ﴿ **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون .** ﴾ ١٠٥ الأنبياء .

ويقول تعالى ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها** ﴾ ١٣٧ الأعراف

ويقول تعالى ﴿ **وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها** ﴾ ٢٧ الأحزاب .

ويقول ﷺ (بدأ الإسلام غريباً ويعود غريباً كما بدأ) .

لكن السؤال الذى ينبغى أن يلح على المسلمين اليوم هو : إذا كان الإسلام هو المرشح الوحيد لإنقاذ هذه الحضارة أو لوراثتها ، فهل المسلمون المعاصرون مرشحون أيضاً لهذه الوراثة ؟

إنه كما يقول بعض المفكرين ـ الدكتور يحيى الرخاوى ـ لا يمكننا ذلك (ونحن لا نفعل إلا أن نكرر حياتهم على مستوى أفشل وبمحتوى أضحل) .

(ولن يغير من الأمر شيئاً أن نضيف إلى نموذجهم نشاطاً خاصاً بالجانب الوجدانى القلبى المتدين .. وليس بديلاً ما ندعيه من ممارسات إسلامية لمجرد أن اللافتة تعلن شيئاً مختلفاً عن لافتتهم ، نمارس تحته ما يملونه علينا .

ولن ينفعنا أن نشق أنفسنا إلى نصفين : فنعيش حياتنا العلمية والسياسية والاقتصادية بأسلوب علمانى تمت صياغته هناك . ونعيش حياتنا الروحية بتسليم عاطفى حالم .

ولن يصلح من شأننا أن نستغل الحماس للإسلام لتجميع طاقات الشباب لتحقيق تغيير يؤدى فى النهاية إلى الوجه الآخر من نفس الحضارة العلمانية التى نشيع قرب غروبها) .

ثم يستمر قائلاً : (ليس بالضرورة أن يكون تأزم حال المسلمين يعنى تأزم الإسلام .

فكما نكرر دائماً : " أزمة جيل ليست بأزمة مصير " و " أزمة نخبة ليست بأزمة أمة ") [1] .

غير أن المسلم المرشح لهذا الدور لن يتحقق عن طريق الإشباع الاستهلاكى ، والتطلع إلى شهوات الدنيا ومتاعها أو جمع فتات موائد الكبار من الصواريخ وأسلحة الدمار .

وإنما يتحقق مستعيداً لذاته ، وبنائه ، كإنسان فى عصر عزت فيه إنسانية الإنسان .

فهو بملياره الذى نطمع أن يتحلى فى سلوكه بالقرآن ، يمثل الإنسان المتوازن المتعادل روحاً وجسداً ونفساً .. المتعادل فى مشيته وإنفاقه ، بل حتى فى صوته الخاشع لربه ، ومنه يستمد الهدى والنور .

الإنسان الذى يعيد إلى التصميم الهندسى للحضارة كما أراده الله : جانب الإيمان فى ثلاثيته : العلم والعمل والإيمان .

هذا المسلم بسلوكه المتميز يمكنه أن يكون هو أداة التصحيح لمواريث هذه الحضارة ، بإرجاعها إلى طريق " الحضارة لله " .

الإسلام ممثلاً فى عصر النبوة بالوحى الخالد ، والسنة الشريفة والاجتهادات البناءة فى تراث المسلمين هو الذى يشق طريقه الآن إلى قلوب البسطاء فى كل مكان ، كما يشق طريقه إلى العمالقة فى حضارة الغرب ، بعد أن أعيتهم الطرق ، طالبين النجاة لعقل كرمه الله ، وإنسان أسلم وجهه لله .

ولكن ذلك كله لن يكون إلا وفق سنن الله فى الكون .

---

[1] الأهرام ١٩٨٤/١/١٦

إن العناية الإلهية تظللنـا فـى جميـع أدوار حياتنـا ، ولكـن مـن العنايـة الإلهية أيضاً أن يكون هذا الكون خاضعاً لنظام ، وأن تكون الحضارة خاضعة لقوانين .

إنه لا عناية بغير النظام .

ولا رحمة بغير القوانين .

قوانين الله فـى التغيير ، قوانيـن اللـه فـى النصـر ، قوانيـن اللـه فـى الحصول على الدنيا ، قوانين الله فى عموم البـلاء ، قوانيـن اللـه فـى التـلاؤم بين الحكام والمحكومين ، قوانين اللــه فـى نمـو المـال ، قوانيـن اللـه فـى أكـل الحلال ، قوانين الله فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قوانين الله فـى قبول الدعاء أورده ... !

كيف نطلب الرحمة بإبطال القوانين ؟

كيف نطلب الرحمة باللارحمة ؟

فكيف نتصور إذن أن يكون مسلمو اليوم هم ورّاث هذه الحضارة ؟

ما الحكم فى قوم كلما وجه إليهم أمر للتنفيذ مصمصوا شفاههم قـائلين : عفواً نحن غير قادرين ؟

أليس من قوانين الله ـ منطقياً ـ أن يتم الاستغناء عنهم ؟

ما الحكم فى قوم كلما واجههم تكليف إلهى مصمُصوا شفاههم قائلين : نحن غير قادرين ؟

إذا دُعُوا إلى التخلـص مـن الربـا قـالوا : إن كـان حرامـاً فنحـن غيـر قادرين ؟

إذا دُعُوا إلى الجهاد قالوا : إن كان واجباً فنحن غير قادرين .

إذا دُعُوا إلى الوحدة قالوا : خير ، لكن نحن غير قادرين ؟

إذا دُعُوا إلـى الأخـوة الإسـلامية : قـالوا : جميـل ، ولكـن نحـن غيـر قادرين ؟

وإذا دُعُوا إلى تصحيح فى سياسة التعليم يربط فيه بين العلم والعمل والإيمان قالوا : تحيرنا بين النظريات والبرامج ، وما نحن بقادرين .

وإذا قيل لهم : صححوا علاقتكم بالدنيا وأجعلوها فى أيديكم لا فى قلوبكم قالوا : تلك صوفية ، وما نحن بقادرين .

وإذا قيل لهم : أحرصوا على الحرية ، وأسلكوا اليها من باب العبودية لله وحده .. قالوا : تلك مثل عليا وما نحن بقادرين .

وإذا دُعُوا إلى شئ من الاقتصاد يبتعدون فيه عن الإسراف والتبذير وتمويل رأسمالية العدو ، قالوا عادات ، وما نحن بقادرين .

وإذا دُعُوا إلى قلب المعادلة السائدة بينهم بين اللهو والجد ، خذوا أنفسكم بالجد ، وأجعلوا اللهو هامشاً محدوداً قالوا : تلكم دعوة إلى الكآبة وما نحن بقادرين .

وإذا دُعُوا إلى تحرى الحِل فى مأكلهم ومشربهم والبعد عن الحرام والمشتبهات ، قالوا : وكيف نعيش ؟

نحن غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قالوا : وما شأننا ؟ نحن غير قادرين ؟

وإذا دُعُوا إلى الأخذ على يد الظالم قالوا : صعب ، ونحن غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى مخاصمة الفسق فى الفن وفى الاعلام .. قالوا : إزاى؟ نحن غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى إلزام نسائهم بالحجاب ، قلبوا شفاههم ، وقالوا : نحن غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى تربية أولادهم على طاعة الله .. قالوا نحاول ، ولكن نحن غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى **العفة** وما يوصل إليها من الكف عن إثـارة الشـهوات ، نظـروا بجـانب مـن عيونهـم إلـى نظريـات فـى علـم النفـس ، وعلـم الجمـال ، وقالوا: نحن غير قادرين .

وإذا دُعـى علمـاؤهم إلـى الجهـر بكلمـة الحـق ، قـالوا : نحـن غـير قادرين.

وإذا دُعى حكامهم إلى عدم موالاة الكافرين .. قـالوا : حسـناً ، ولكنـا غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى التكافل المعيشـى مـع الذيـن يموتـون جوعـاً بـالآلاف ، قالوا : نحن غير قادرين .

وإذا دُعُوا إلى التضامن مع المستضعفين من إخوانهـم الذيـن يذبحـون بالآلاف ، قالوا : نحن غير قادرين .

بماذا شهد هؤلاء على أنفسهم ؟

هل ينطبق عليهم رفع التكليف فى قوله تعالى .. ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** .﴾ .

أليس معنى الآية ابتداء أن الله لا يكلف إلا بالوسع ؟ فهم مـاداموا قـد كلفوا فمعنى هذا أنه فى وسعهم ؟

وعلـى هـذا الأسـاس يكـون قولهـم نحـن غيـر قـادرين محــض كـذب وتهرب ؟ !

وهل ينطبق عليهم رفع التكليف إذا كانوا هم أنفسهم مساهمين بدرجـة أو بأخرى فى صنع الخطأ أو الخطيئة ؟

أو مستفيدين بدرجة أو بأخرى ـ باستمرار هذا الخطأ أو الخطيئة ؟

أليست الأغلبية اليوم دائرة بين هذا وذاك .. بين صانع ، أو مستفيد ؟

قد يقال :

المشكلة ترجع إلى تضارب الأفكار ، واختلاطها ، وعلى سبيل المثال:

يقول بعضنا : العلمانية ، كلها شر ، ولكن آخرين يرفعون إمكانية التضامن معها ، والتصالح مع بعض فصائلها .

هكذا فإن الرؤية قد أصيبت بالاختلاط .

حسناً ، فمتى يكشف الحق ؟

هنا : لابد من الابتلاء .

قد يقال :

المشكلة ترجع إلى اختلاط في البشر ، حيث لا يظهر فيهم مؤمن خالص ، من منافق خالص ، من كافر خالص .

ويقول بعض هؤلاء : تحتاج الحركة الإسلامية إلى فصل هذه الفصائل ، وإلا وقعت الحركة في شر النتائج ، شر الفشل .

حسناً : فمتى ينفصل هؤلاء من هؤلاء ؟

هنا : لابد من عذاب ينزل للتمييز ، فالمؤمن ينجلي كما ينجلي الذهب في النار ، وغيره يتساقط كما يتساقط التراب ، أو كما يتساقط الغبار .

هنا لابد من سريان قانون التمييز .

﴿ **ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب** ﴾ ١٧٩ آل عمران .

﴿ **ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم ، أولئك هم الخاسرون .** ﴾ ٣٧ الأنفال .

﴿ **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً، كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون .** ﴾ ٥٨

قد يقال : التمييز موجود ، فنحن نعرف الطريق ، ونعرف من هم أربابه ، ولكنا غير قادرين .

غير قادرين على فعل شئ .

والله لا يكلف نفساً إلا وسعها .

فعندئذ يقال :

وإذا كنتم قد خرجتم من إطار المكلفين فما معنى وجودكم ؟

إنكم بذلك قدمتم شهادة الإزالة .

هنا : لابد من عذاب ينزل ـ لا لمحض الابتلاء ، ولا لمحض التمييز ولكن لغرض المحق ، والإزالة كما تمت إزالة أقوام من قبل .

منطقياً : ماذا ينتظر لقوم كلما واجههم تكليف إلهى مصمصوا شفاههم قائلين : لا حول ولا قوة إلا بالله ، نحن غير قادرين ؟؟ وهم قد أخرجوا إلى الوجود أصلاً من أجل القيام بهذه التكاليف ؟

أليس المعقول أن ينتظروا الإزالة ؟

أما حسابهم يوم القيامة فشئ آخر .

أليست الإزالة هى الحل الوحيد فى شأنهم ؟

ليأتى قوم غيرهم .

﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾

إن هؤلاء ـ نحن ـ أكثر الأجناس على وجه هذه الأرض ترشيحاً للإزالة ، لعدة أمور :

أولاً : لأننا إنما خرجنا على ظهرها وارتفع ذكرنا فيها لمهمة خاصة هى القيام برسالة الإسلام .

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس .. تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ فعندما نتخلى عن هذه الرسالة ـ ونحن نكاد نفعل ـ يزول سبب وجودنا ، ونذهب شراذم بددا ، فى طرائق قددا .

ثانياً : لأننا لو بقينا وانتصرنا على أعدائنا بنصر الله لكان فى ذلك نصر للزيف الذى نحن فيه ، وإعلاء لشأنه ، وهذا لا يمكن أن يكون ، لأنه لا يجوز فى حق كماله تعالى .

ثالثاً : لأننا بخلاف أعدائنا ، لا نحن عملنا من أجل الدنيا كما يعملون ، فننال وعد الله كما ينالون ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون** ﴾ .

ولا نحن عملنا من أجل الآخرة ، كما عمل بناة الأمة الإسلامية ، فننال وعد الله كما نالوا ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً** . ﴾ .

إننا أولى الناس بالإزالة لولا ...

لولا ضمان من وعد الله لبقية تبقى .

هى التى سيوكل إليها بناء الحضارة الإسلامية ، ووراثة الحضارة الغربية المتداعية .

فى رواية لمسلم بسنده عن ثوبان قال قال رسول الله ﷺ : " إنى سألت ربى لأمتى ألا يهلكها بسنة عامة [1] .. وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم [2] وإن ربى قال : يا محمد إنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإنى أعطيتك لأمتك : ألا أهلكهم بسنة عامة ، وألا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، يستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، ويسبى بعضهم بعضاً .) .

---

[1] أى كارثة عامة

[2] أى جماعتهم

الفهرس